



صور من التاريخ العربي

نقولا زيادة







صور من التَّاريخ العربي

تأليف: نقولا زيادة

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٦

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: نقولا زيادة

اسم الكتاب: صور من التَّاريخ العربي

الطبعة الأولى: ١٩٤٦

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري

مراجعة وتدقيق: حنين خالد عِناية

صف وتنضيد: شادية الخطيب

تصميم الغلاف: فاطمة حسين

فلسطين

صور من التَّاريخ العربي

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة
وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً
للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.
نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان
نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠/٣/٢٠٢٠

الإهداء

إلى قرينتي ...

أيُّها القارئ الكريم

•••

في التَّاريـخ العـربيّ قاعـات قـلّ داخلوهـا، وسـبل قـلّ طارقوهـا، وزوايـا قـلّ والجوهـا. وفي هـذه القاعـات والسُّـبل والزّوايـا خـير كثـير، لـو أنصفهـا النَّـاس.

وهـذه الصُّـور التـي أقدّمهـا لـك هـي ثمـرة جهـد بـذل في سـبيل التعـرّف إلى تلـك النّواحـي المهجـورة مـن تاريخنـا.

ولقـد لقيـت في جمعهـا متعـة ولـذّة، رأيـت ألَّا أحرمـك منهـما، وآمـل أن أوفَّـق إلى إثـارة رغبتـك في الكشـف عـن صـور مماثلـة لهـا، ومـا أكثرهـا.

بيـت المقـدس **نقـولا زيـادة**

٣١ آب (أغسطس) ١٩٤٦

المجتمع العربي

•••

١- مع ابن بطلان

كنا نجوب أنحاء أنطاكية.

وشعرت وصديقي أن الحر قد اشتد فأوينا إلى دير قريب من الطريق، فأضافنا رئيسه. وجلسنا في بهو واسع نستمتع ساعة، وجاء بعض الرهبان يتحدثون فقال قائلهم» في هذا الدير أقام ابن بطلان في أواخر أيامه» وكنت أنا قد اعتمدت قاعدة أسطوانة في البهو الكبير، وأقبل الكرى على عيني يراودهما، فكانت كلمات الراهب آخر ما سمعت قبل أن أقصاني النوم عن الجماعة.

فما لبثت حتى رأيت رجلا واقفا أمامي. حاولت أن أتعرف هذا الأسود القبيح الخلقة الذي فاجأني فلم أهتد. لكنه لم يسمح لي بأن يطول اغترابي فيه فقال «أنا ابن بطلان الطبيب. ألم تكن تسأل عني فها قد جئتك بنفسي وامتلأت نفسا سرورا. فها أنا بصحبة الطبيب البغدادي الكبير. ولكن أين نحن؟ وأدرك ابن بطلان ما بنفسي فلفت نظري إلى ما حولي ودلني على معالم المكان، فإذا نحن بالكرخ حيث دار الطبيب وصحبه وتلامذته ومرضاه. وأردت ابن بطلان على أن يطوف بي في بغداد عاصمة العرب. لكن الرجل همس في أذني أن بغداد فيها فوضى واضطراب، فالبويهيون أصبحت أيامهم معدودة وأولاد سلجوق يجمعون في الشرق جموعهم ورجال الدولة كثيرو الشك والريبة في كل من يهبط البلد من الغرباء، فخير لي أن أستغنى عن هذه الزيارة.

ثـم أضـاف قائـلا «وهـا أنـا عـلى أهبـة السـفر مـن بغـداد فهـل لـك في أن ترافقنـي. وثـق أن سـفرتنا سـتكون ماتعـة حقـا». فقبلـت، وخرجنـا معـا إلى أقـرب خـان فاكترينـا دابتـين وحزمنـا أمتعـة قليلـة وخرجنـا لنلحـق بالقافلـة التـي كانـت تعتـزم السـير إلى شـمال سـوريا بطريـق الجزيـرة. وقبـل أن نخـرج دوّن ابـن بطـلان في مفكرتـه أنـه غـادر بغـداد في مسـتهل شـهر رمضـان سـنة ٤٤٠ للهجـرة.

وكان رفيـق سـفري هـذا يعنـى بـكل شـاردة وواردة تقـع عليهـا عينـه أو تطـرق سـمعه، سـواء في ذلـك أوصـاف الحيـوان وفوائـد النبـات وأخبـار النـاس وبـارع النكتـة ورائـق الشـعر. لذلـك عرجتـا عـلى مشـايخ البـلاد فـكان يسـتمليهم مـا عندهـم.

وقضينـا تسـع عـشرة مرحلـة حتـى وصلنـا الأنبـار وقـد صعدنـا نهـر عيسى فيهونـا مـن الأنبـار طيبهـا وتنـوع فواكههـا بحيـث أننـا عددنـا تسـعة عـشرة نوعـا مـن الأعنـاب.

فـما كان منـا إلا أن تمتعنـا فيهـا بعـد سـفرة بعضهـا موحـش، ثـم تابعنـا سـيرنا أربعـة أيـام حتـى حللنـا الرصافـة. فـما قمنـا بعـض الوقـت حـول قصرهـا حيــث ضرب رجــال القافلــة خيامهــم واجتمــع إليهــم النــاس يبادلونهــم المتاجـر. واغتنمنـا نحـن فرصـة انشـغال النـاس عنـا، ولم يكـن لنـا تجـارة ولا بيـع، وأخذنـا نطـوف بـين مـا تبقـى مـن آثـار قسـطنطين في بيعتـه وهشـام بـن عبـد الملـك أيـام جـدد الرصافـة وسـكنها فـكان يفـزع اليهـا طلبـا للراحـة والاسـتجمام. وأعجبنـا فيهـا صهريـج كبـير يختـزن فيـه القـوم مـاء المطـر. وأهـل هـذا الحصـن بالباديـة يعيشـون مـن تخفـير القوافـل

وجلب المتاع.

وآن للقافلة أن تعود سيرتها الأولى فان لنا أن نفارق الرصافة، ففعلنا ذلك ونحن نتحسر على ما آل إليه أمرها منذ أن هجرها الأمويون فأقفرت. وكان أمامنا رحلات أربع حتى نصل حلب. فقضيناها تتحدث عن شتى الشؤون وابن بطلان المحدث وأنا السائل أو المصفى. وكان الرجل من رحابة الصدر بحيث أنه لم يمتنع عن رواية بيتين من الشعر قيلا في وصف خلقته الدميمة. بل إنه أضاف لي أنه ذكرهما في كتابه المسمى بدعوة الأطباء.

أما البيتان فهما:

فلـمَّا تبدّى للقوابل وجهه

نكصن على أعقابهنّ من النّدم

وقلن، وأخفين الكلام تستّرًا

ألا ليتنا كنا تركناه في الرّحم

هبطنا حلب وكان حاكمها ابن مرداس الذي شمل نفوذه الرقعة كلها. وانصرف الناس إلى تجارتهم واصطحبني ابن بطلان في أنحاء المدينة ينقب عن الفوائد والأنباء والأخبار ويدوّنها. وكان تصرفه تصرف العالم الحريص. فلم يغفل حقيقة أو أسطورة. فقد سمع البعض يقول إنه لما هبط ابراهيم الخليل حلب كان يخبئ غنمه في مغارة فاذا حلبها أضاف الناس بلبنها فكان الناس يتساءلون حلب أم لا فسميت المدينة»حلبا» لذلك. فقيد هذا. لكنه سأل عن مساجد المدينة وبيعها

وشرب أهلها والنهر المار بها المسمى قويق. وكتب ابن بطلان في مفكرته أن بالمدينة» في قيسارية البز عشرين دكانا للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعا قدره عشرون ألف دينار يعتبر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن، ودوّن في مناسبة أخرى أنه ليس في حلب موضع خراب أصلا. واهتم بحلب على أنها ملتقى طرق تصلها بأمهات المدن في الجزيرة والشام والساحل، فالرقة وقنسرين وحماة وأنطاكية وغيرها تنتهي طرقها إلى حلب.

وأعجب ابن بطلان في حلب بدار تتوسط البلدة فلما سأل عنها قيل له إنها دار علوة صاحبة البحتري فرقص لذلك طربا. ثم قادني إلى مجلس فيه أنس وطرب فتعرفنا هناك إلى أبي الفتح بن أبي حصينة الشاعر فاستنشده صاحبي شعرا فأنشده قوله:

ولما التقينا للوداع ودمعها

ودمعي يفيضان الصّبابة والوجدا

بكت لؤلؤا رطبا ففاضت مدامعي

عقيقا فصار الكل في نحرها عقدا

ووجدنا أن أهل القافلة سيقضون في حلب وقتا طويلا، فتركناهم وسرنا، وقد جمعنا ما استطعنا من الأخبار والأشعار والفوائد والفرائد ونحن نقصد أنطاكية. وبعد ما بين البلدين يوم وليلة، والمسافة متصلة القرى مزهرة الرياض متفجرة المياه كثيرة الشعير والحنطة والزيتون يقطعها المسافر في رضى وأمن وسكون. فكان ذلك من دواعي سرورنا

بعـد أن كنـا نتنقـل فيـما يـكاد يكـون صحـراء قبـل هبوطنـا حلـب

وأعجبنـا بأنطاكيـة واتسـاع رقعتهـا إذ أن سـورها يرتفـع إلى قمـة الجبـل المبنيـة عـلى سـطحه، وراقنـا نهرهـا المقلـوب. ولاحظنـا أن الشـمس تـشرق في أنطاكيـة متأخـرة لأن الجبـل الشرقـي كان يسـترها عنـا

وقضينـا يومنـا الأول نسـتريح ثـم درنـا في المدينـة. وكان ابـن بطـلان لا يـكل مـن التنقـل ولا يمـل مـن السـؤال. فزرنـا آثـار دار قسـيان وأرانـا أحـد الحـراس مـكان فنجـان السـاعات. وقادنـا أحـد أهـل المدينـة إلى كنائسـها الجميلـة المعمولـة بالجـص المذهـب والزجـاج الملـون والبـلاط المجـزع. ثـم أرشـدنا الى بيمارسـتان حيـث يراعـى البطريـق المـرضى فيـه بنفسـه. وأردنـا أن ننعـم بلـذاذة مـن لـذاذات الدنيـا، فلـما أظهرنـا رغبتنـا إلى صاحـب الخـان الـذي كنـا فيـه دلنـا عـلى حـمام وقـوده مـن الآس ومـاؤه سـيح. وقـد عرفنـا بعـد أن جميـع حمامـات المدينـة مثلـه. فسـدنا أهـل أنطاكيـة عـلى طيـب مدينتهـم وكـثرة نعمهـا وخيراتهـا وتنـوع متاجرهـا التـي تحمـل إليهـا مـن مينائهـا السـويدية ومـن حلـب وغيرهـما. لكـن سـاءنا أن هـذه المدينـة يحرسـها أربعـة آلاف رجـل ينفـذون إليهـا مـن القسـطنطينية مـن حـضرة الملـك فيقضـون في حراسـتها سـنة ثـم يسـتبدل بهـم في الثانيـة.

سـاءنا ذلـك لأنهـا مدينـة مثـل حلـب ودمشـق وبغـداد جـزء مـن العـالم العـربي وقلنـا في نفوسـنا لا بـد مـن عـودة.

وقـد أنسـنا في أنطاكيـة بلقـاء أبي نـصر بـن العطـاء وهـو قـاضي قضاتهـا، فأفدنـا مـن غزيـر علمـه ومليـح حديثـه وبـارع أخبـاره مـا أكـد لنـا أملنـا وقـــوى عقيدتنـا بـأن الرابطـة بيننـا وبـين أهلهـا وثيقـة لا تنفصـم.

وانتقلنا من أنطاكية إلى اللاذقية، وهي راكبة البحر، تابعة للروم ولكن فيها قاض للمسلمين وجامع يصلون فيه. وقد رأينا فيها أشياء غريبة، وبلغنا أن في البلد من الحبساء والزهاد في الصوامع والجبال كل فاضل لم يتسع وقتنا لزيارتهم والتعرف إليهم.

كان ابن بطلان يقصد مصر، لأنه يريد أن يقابل ابن رضوان الطبيب المصري الشهير ولم تكن لي رغبة في مرافقته إليها. فسار هو إلى مصر وعدت أنا إلى أنطاكية.

رأيت هذا الرجل الأسود اللون ذا الخلقة الدميمة الذي وقف أمامي وقد أخذت صورته تختفي رويدا فناديته أن قف فلم يمتنع وسألته إن كان له شعر فقال احفظ عني:

ولا أحد إن متُّ يبكي لميتي

سوى مجلسي في الطبّ والكتب باكيا

ولعل التعب الذي كان قد حملني إلى عالم الأحلام قد فارقني فرأيتني تتفتح عيناي شيئا فشيئا، ورأيتني أعود إلى تقري ما حولي ومن حولي. فإذا أنا مسند ظهري إلى قاعدة الأسطوانة الكبيرة في بهو الدير، وإذا بالراهب لا يزال يحدث الجماعة، وكان ما سمعته منه قوله:

وتوفي ابن بطلان ولم يتخذ امرأة ولا خلف ولدا ولذلك يقول:

ولا أحد إن متُّ يبكي لميتي

سوى مجلسي في الطبّ والكتب باكيا

وأصلحت جلستي فضحك القوم من نومي. ولم نلبث، أنا وصاحبي، أن غادرنا الدير وأتممنا سيرنا في أنحاء أنطاكية.

٢ - ليلة في الرقة

لي صاحب كثير التجوال بعيد الأسفار. نزل الرقة في أواخر القرن الرابع للهجرة، وكان في طريقه من حمص إلى بغداد. وكانت الرقة بلدة صغيرة من بلدان الحدود. فأعجبته دورها الصغيرة المنتشرة على شاطئ الفرات، فرأى أن يتخلف عن القافلة ليقضى فيها يوما وبعض اليوم يستجم من وعناء السفر الطويل ويستمتع بصحبة أهل هذه المدينة. فودع رجال القافلة وقصد حانا صغيرا أعد لنزول المسافرين فأودع ما معه من متاجر قليلة ودابته القاعة الكبيرة في الطابق الأرضي المعدة لحفظ هذه الأشياء. واستأجر غرفة صغيرة تطل نافذتها على الفرات. ولما استراح قليلا غير لباسه، وخرج إلى شوارع البلدة يتقصى أخبارها ويتعرف معالمها ويستطلع ما فيها.

كانت البلدة صغيرة ولكثرة من يمر بها من الغرباء والمسافرين اعتاد أهلها أن يلمحوا النزيل بينهم. فما سار صاحبي إلا قليلا حتى اقترب منه رجل عليه سيماء الاحترام والمهابة فحياه ودعاه إلى مرافقته في بلدته، فقيل صاحبي ذلك، وسار الاثنان، وقد آذنت الشمس بالمغيب قليلا حتى أفضى بهما السير إلى حصن الرقة. فأشار إليه الرقى وقال:» بلدتنا هذه، على صغرها، مركز هام من مراكز الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية في هذه الناحية، فنحن على طريق المسافرين، فأكثر من يقصد بغداد من شمال بلاد الشام يمر بنا. وفضلا عن ذلك

فنحـن عـلى سـيف الصحـراء، ومـن ثـم كان لبلدتنـا هـذا المركـز الإدارى الهـام في نظـر الخليفـة ورجالـه.

وأعجـب صاحبـي بالحصـن. فقـد كان ضخـما متينـا قويـا يرتفـع مائـة ذراع أو يزيـد ويـشرف عـلى البلـدة وأرياضهـا وسـواقيها. وقـف يتأملـه وقـد رأى فيـه منعـة الدولـة وعزهـا وإشرافهـا عـلى شـؤون الرعيـة وسـهرها عـلى أمورهـا. فلـما رأى رفيقـه هـذه العنايـة دعـاه إلى الصعـود، فصعدا إلى سـطح الحصـن هنـاك دلـه عـلى مـا يقـع تحـت نفـوذ صاحـب الحصـن وأشـار إليـه أن يمتـع نفسـه برؤيـة القافلـة الكبـيرة عـلى نهـر الفـرات. وكان المنظـر سـاحرا. فقـد غطسـت الشـمس خلـف الأفـق، وخلفـت اصفـرارا مشربـا بحمـرة منتـشرا في الجـو فـوق رمـال الصحـراء ومـاء الفـرات إلى مسـافات شاسـعة. فطـرب صاحبـي للنظـر، وهتـف» إنهـا بـلاد العـرب، بـلاد الجـمال والجـلال والبهـاء».

وهـم صاحبـي بالعـودة. لكـن رفيقـه تلطـف بـه ودعـاه لتنـاول طعـام العشـاء معـه، فـما يجـوز، في عـرف بلدتـه، أن يخـرج غريـب مـن الـدار قبـل أن يشـارك أصحابهـا زادهـم. وعندهـا أدرك صاحبـي أن رفيقـه إنمـا هـو ماسـك القلعـة وصاحـب جنـد الخليفـة في الرقـة. فقبـل الدعـوة شـاكرا. فهـو أراد أن يتعـرف إلى البلـدة أثنـاء إقامتـه، فـإذا بالمصادفـات توقعـه بـين يـدي صاحـب جندهـا.

وانحـدر الاثنـان إلى داخـل الحصـن، ودخـلا قاعـة كبـيرة أحاطـت بهـا الطنافـس ووضعـت في وسـطها مائـدة كبـيرة صفـت عليهـا صحـون الفاكهـة. ومـا كاد يسـتقر المقـام بالرجلـين حتـى أعلـن صاحـب الـدار أن بالبـاب

جماعة قد استأذنوا عليه فخرج لاستقبالهم بنفسه، ثم دخل الجميع فحيوا وجلسوا وعندها ذكر صاحب الجند لصاحبي أن الداخلين كانوا قاضى البلدة ومتولى الضياع السلطانية فيها والبندار وصاحب البريد فبلغ السرور بصاحبي حدا لم يستطع معه أن يعبر عما خالجه وهو الكاتب البليغ والشاعر المبدع. فأي باعث كان يدفعه إلى قضاء هذه الليلة في الرقة؟

وتنقل القوم وعبثوا ببعض الفاكهة، ثم أقبل الخدم يحملون صحاف الطعام وقصاع المأكل، فصفوها على المائدة، فأخذ كل منها بنصيبه. وكان صاحبي جائعا فأكل منها شبعه.

ولكن الأمر الذي استمتع به صاحبي أكثر من الأكل هو هذا الحديث الذي دار بين الموجودين أثناء الأكل وبعده. فكأن هؤلاء الناس أحسوا بما رغب فيه ضيفهم، فما قصروا في ذكر أخبار بلدتهم وأعمالهم هم. وكان أول من تحدّث صاحب البريد. فقد كان كثير الدل بمنزلته وعمله، أليس هو عين الخليفة في بقاع الأرض النائية وصاحب خبرة في أنحاء ملكه البعيدة؟ هكذا أوصاه صاحب ديوان البريد في بغداد لما وكل إليه الأمر. فقد قص على الحاضرين أن صاحب الديوان ذكره بأنه يتحتم عليه أن يراقب طرق التجار وسيرهم ويتحرى شؤون العمال ويتجسس على الأعداء ويستطلع أسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات ثم يكتب بخبر ذلك كله إلى الديوان البغدادي، وبذلك يعرف الخليفة خفايا الأمور ودخائلها في كل جزء من أجزاء مملكته. ولم يفت صاحب البريد أن يذكر الحضور بأنه يوجد تحت تصرفه

مجموعـة مـن الحـمام الزاجـل تحمـل رسـائله إلى بغـداد وبذلـك تصـل أخبـاره بسرعــة كبـيرة. وكأن صاحــب البريــد خــشي أن يكــون قــد ســاور الضيـف شيء مـن الريبـة فيـما قـال، فـما أسرع مـا تنـاول مـن كمـه الواسـع رقـا ملفوفـا لفـا محكـما ثـم فتحـه بـين يديـه وقـرأ فيـه مـا يـأتي:» هـذا عهـد بمـا يجـب عـلى صاحـب البريـد» عليـه أن يعـرف حـال عـمال الخـراج والضيـاع فيـما يجـرى عليـه أمرهـم ويتتبـع ذلـك تتبعـا شـافيا ويستشـفه استشـفافا بليغـا وينهيـه عـلى حقـه وصدقـه، وعليـه أن يعـرف حـال عـمارة البـلاد ومـا هـي عليـه مـن الكـمال والاختـلال ومـا يجـرى في أمـور الرعيـة فيكتــب بــه مشروحــا. وأن يعــرف مــا عليــه الحــكام في حكمهــم وســيرهم وســائر مذاهبهــم وطرائقهــم. وأن يعــرف حــال دار الــضرب ومــا يــضرب فيهــا مــن العــين والــورق ومــا يلزمــه المــوردون الكلــف والمــؤن ويكتــب بذلـك عـلى حقـه وصدقـه. وأن يعـرض المرتبـين لحمـل الخرائـط في عملـه ويكتــب بعددهــم وأســمائهم ومبالــغ أرزاقهــم وعــدد الســكك في جميــع عملــه وأميالهــا ومواضعهــا. وأن يوعــز إلى الموقتــين بإثبــات المواقيــت وضبطهـا حتـى لا يتأخـر أحـد عـن الأوقـات التـي سـبيله أن يـرد السـكة فيهـا. وأن يفـرد لـكل مـا يكتـب مـن أصنـاف الأخبـار كتبـا بأعيانهـا». ولمـا فـرغ مـن قـراءة هـذا العهـد، لفـه بأحـكام وأعـاده مكانـه وعـاد إلى حديثـه فقـال: إنـه قـد يتفـق لـه أن يكتـب في اليـوم الواحـد كتابـين إلى بغـداد. فـإذا صـلى العشـاء كتـب بأخبـار النهـار، وإذا صـلى الفجـر كتـب بأنبـاء الليـل. ويغلـب هـذا أيـام كـثرة المتنقلـين في مواسـم الأسـواق والتجـارة، وعنـد مـا تبـدو في الجـو ثـورة أو عصيـان أو تغـير عـلى الحمـى قبائـل مـن الصحـراء..

فيترتب عليه في هذه الأحوال أن ينبئ الخليفة بالأخبار بأسرع ما يتيسر له حتى يتمكن هذا من التصرف في الأمر بالسرعة والشدّة التي تتطلبها المناسبة.

وأعجب صاحبي بهذا العمل، وحسب أنه من حق صاحب البريد أن يفتخر بمنصبه. لكن ما كاد هذا ينتهي من حديثه حتى تقدم البندار ينافره ويفاخره. أليس هو الوكيل على مال الجمارك والخراج؟ أليس هو المكلف بتقدير أثمان المتاجر والسلع وتعيين ما يتوجب على أصحابها دفعه لديوان المال؟ ولما كانت الرقة مركز ا كبيرا للتجارة ومحطة للقوافل فقد أصبح منصبه ذا قيمة خاصة. فقد يزيد ما يدفعه التجار في اليوم الواحد عن مئات الدنانير، وإن كان هذا ليس مستمرا كل يوم، قال هذا وتناول روزنامجه، وهو كتاب اليوم، وعد فيه أوراقا، واحدة بعد أخرى، فوجد أنه قد قبض هذا المبلغ الكبير عشر مرات في عشرة أيام في الموسم الحاضر. ثم التفت إلى صاحب الجند وذكره بأنه احتاج إلى بعض جنده ليحرسوا الجامع لكثرة الأموال المودعة فيه ريثما يأتي عمال الخليفة فيقبضوها.

وكأن الجهد الذي بذله في الدفاع عن منصبه نال منه، فأقبل على قصعة يأتهم ما فيها من الطعام ليعوض عما فاته وهو يتكلم. فاغتنم صاحب البريد الفرصة ونال منه بنكتة لاذعة فقال إن البندار جشع في أكله مثله في عمله فلا يرضى إلا باللقمة الكبيرة، ولا يتحدّث إلا عن المال الكثير» فضحك الحاضرون حتى استلقوا. أما البندار فاستمر يا كل كأن لم يكن المقصود بذلك.

وتقدّم متولي السواقي في أدب وتواضع وأشار إلى أن عمله دون صاحب البريد والبندار. فإنه يترتب عليه أن يشرف على ضياع الخليفة وأرضه وهي الأملاك التي تعود على الدولة بشيء كثير من المال.

والسواقي في الرقة كثيرة واسعة، ذلك أن كثيرين من أهل تلك الجهة ألجأوا أراضيهم وأملاكهم للخليفة ليضمنوا تعهدها وحمايتها. فضلا عن أن أيام الرخاء التي مرت بالدولة قبل سنين يسرت لها ابتياع عدد كبير من الضياع المحيطة بالفرات. وعليه - أي متولي السواقي - أن يقوم بالرقابة الفعلية على جميع الشؤون المتصلة بالزراعة والري من بناء القنوات وترميمها وغير ذلك مما يتوقف عليه غلة الدولة ودخلها.

وأعجب صاحبي بهذا الشاب الهادئ الذي يعنى بهذه الشؤون المتصلة بالحياة إلى هذا الحد ومع ذلك فهو لا يتبجح وأدرك أنه لا بد له من مستقبل زاهر. وهم بسؤال صاحب الجند عن عمله، ولكن هذا كان أسرع من صاحبي إذ قال للجماعة» لقد تحدثتم كل عما يقوم به من أعمال. ولست أريد أنا أن أطيل ولكنى أود أن أذكركم أن هذا الحصن الذي نجلس فيه إنما هو طوع أمري وتحت تصرفي بما فيه من جند وشرطة. وأنا المسؤول عن حفظ الأمن في هذه الأنحاء كلها. وأي إخلال بالنظام إنما تقع مسؤوليته على عاتقي وحدي. وإن كنتم ترون الأمور على خير في هذه الجهة فاذكروا أن الفضل في ذلك يرجع إلى أنني هنا منذ أربع سنوات وقد استطعت أن أؤمن السبل وأنشر الأمن وأنظم التنقل. وقد قمعت منذ سنتين ثورة قام بها أحد الناقمين على

سلطان الخليفة وتم ذلك في مدة قصيرة ودون خسارة في الأرواح حتى أن الخليفة نفسه أثنى عليّ».

وكان ثمة رجل واحد في المجلس قد حافظ على اتزانه. كان يرتدى طيلسانا أسود ويعتم بعمة مهيبة، ولم يكن في تصرفه في المساء كله ما يؤخذ عليه. ذلك هو القاضي، وكان صاحبي يود لو يسمعه، ولكنه خيب أمله. على أن البندار استقضاه في هذه الخصومة البريئة التي قامت بين الجماعة، وطلب إليه أن ينصف بين المتفاخرين، وعندها شاعت في وجهه ابتسامة عريضة فبدأ حديثه بقوله «إنكم إذ تقدمتم إلى للفصل فيما بينكم، إنما اعترفتم بأنني عادل، وهذه صفة رئيسية يجب أن يتحلى القاضي بها. وأحمد الله على أن أمير المؤمنين اختارني وولاني هنا القضاء والحسبة. فأنا هنا أقوم بالفصل بين المتخاصمين على أسس الشرع الشريف وأرعى تصرف الناس وآدابهم على ما تقتضيه قواعد المحتسب. فأنا أرقب السوق في الصباح وأتأكد من صحة الكيل والميزان وأستوثق من أن أصحاب الحوانيت لا يبسطون متاعهم بحيث يعترض المارة ويعوقهم. فإذا ارتفعت الشمس جلست للفصل في الخصومات. وقد يعرض لي أن يتظلم أحد الناس من صاحب السلطان، فإما اقتنعت بصحة دعواه انتصفت له، وعندها أمثل صاحب المظالم. وقد جعلت مرشدي في عملي وصية الخليفة الطائع إلى قاضي القضاة في أيامنا هذه إذ أوصاه ألا يقبل رشوة ولا يلتمس جعلا وأن يبحث عن أمانات الشهود ويضبط ما يجري في عمله ويحتاط على أموال الأيتام وأن يرد أحكامه إلى كتاب الله».

وخـشى صاحبـي أن يقـف القـاضي عنـد هـذا الحـد فـلا يصـدر حكمـه في الخصومـة التـي شـجرت بـين الحاضريـن، لكـن القـاضي اسـتمر قائـلا» أمـا فيـما يختـص بهـذا الـذي أنتـم فيـه، فـإني واللـه لـو عرفتكـم جاديـن لأجريـت عليكـم الحـد، فـما يجـوز لأحـد أن يمـن عـلى بلـده وجماعتـه وأمتـه لأنـه يقـوم بواجبـه، ولكنـي أعـرف أنكـم مازحـون، وأن كل واحـد منكـم إنمـا وضـع شـعاره الـذي يهتـدى بـه «وتعاونـوا عـلى الـبر والتقـوى ولا تعاونـوا عـلى الإثـم والعـدوان".

وهنـا جمـع صاحبـي كل قوتـه وشـجاعته، واسـتأذن في أن يـروى لهـم مـا أثـر عـن المنصـور، فأذنـوا لـه فقـال إنـه يؤثـر عـن الخليفـة الكبـير أنـه كان يقـول» مـا كان أحوجنـي إلى أن يكـون عـلى بـابي أربعـة نفـر، هـم أركان الملـك. أمـا أحدهـم فقـاض لا تأخـذه في اللـه لومـة لائـم، والآخـر صاحـب شرطـة ينصـف الضعيـف مـن القـوى، والثالـث صاحـب خـراج يسـتقصي ولا يظلـم الرعيـة فـإني عـن ظلمهـا غنـي، والرابـع صاحـب بريـد يكتـب إلى بخـبر هـؤلاء عـلى الصحـة».

ثـم قـال صاحبـي» ومـا تمنـاه المنصـور ببغـداد وجـده الطائـع في الرقـة. فإنكـم واللـه أولئـك النفـر الذيـن أرادهـم»

قـص عـلى صاحبـي قصتـه فسـألته ومـاذا حـدث لـك بعـد ذلـك؟ قـال:» لا أدرى فقـد وقـع الغطـاء عنـي، فأحسسـت بالـبرد وأفقـت مـن حلمـي الجميـل».

٣ - مجلس أطباء في القرن الخامس للهجرة

هبطت دمشق وكانت بي علة فسألت أهلها عن طبيب أعتمد عليه في شفاء ما بي، فقال قائلهم: عليك باليبرودي، ففتشت عنه حتى اهتديت إلى داره بسوق جيرون فدخلت عليه فسلمت فردّ السلام وأمرني بالجلوس. فشرحت له حالتي، ففحصني فحصا دقيقا ليعرف كل شيء عنى، ثم وصف لي الدواء اللازم لي. وهممت بالانصراف لولا أن دخل عليه ساعتها جماعة من المشتغلين بالطب وغيره من أهل دمشق، فرأيت أن أقيم لعلى أسمع من طرائف أخبارهم ما لم يكن لي به علم. ولعل اليبرودي أدرك ما بي فابتسم وقال لي» لا عليك يا هذا، امكث حيث أنت، لعلك تصيب من حديثنا ما يهون عليك بعض ما بك» فظللت حيث كنت.

واستقر بالجماعة المجلس وتجاذبوا أطراف الحديث فخاضوا في شتى المباحث والشؤون، وانتهى بهم الأمر الى سؤال اليبرودي عن تعلمه الطب. فأطرق الرجل ساعة، كأنه يستعيد حلما رآه من زمن بعيد، ثم رفع رأسه وقد علت وجهه ابتسامة وانطلق يقص عليهم خبره قال «كنت في صباي أحمل الشيح من ضيعتي يبرود وأبيعه في دمشق، وكنت يوما أقود دابتي وعليها حملها من الشيح. فمورت بالفاصد أبي الخير وقد فصد شابا فوقعت الفصدة في الشريان فتحير وتبلد وطلب قطع الدم فلم يتمدد على ذلك فاجتمع الناس عليه. فلما رأيته على تلك الحال أشرت عليه بأن يقصده في اليد الأخرى ويسد الفصد الأوّل، ثم يعود للثاني فيسده ففعل ووقف الدم. فتشبث أبو الخير بي وسألني

عـما أمرتـه بـه، فأخبرتـه أني أرى أبي في وقـت سـقى الكـرم إذا انفتح شـق مـن النهـر وخـرج منـه المـاء لا يقـدر عـلى إمسـاكه حتـى يفتـح فتحـا آخـر ينقـص بـه المـاء الأول الواصـل إلى ذلـك الشـق ثـم يسـده بعـد ذلـك. فلـما سـمع أبـو الخـير ذلـك منعنـي مـن بيـع الشـيح واقتطعنـي وعلمنـي صناعـة الطـب. فلـما تبـصرت في أشـياء منهـا وصـارت لي معرفـة بالقوانـين العلميـة أردت أن أسـتريد مـن أحـد ثقـات الأطبـاء فدلـوني عـلى أبي الفـرج وكان ببغـداد، فتأهبـت للسـفر وأخـذت سـوارا كان لأمـي وتوجهـت إلى بغـداد وصرت أنفـق عـلى نفـسي مـا يقـوم بـأودي واشـتغلت عـلى أبي الفـرج حتـى مهـرت في الصناعـة فعـدت إلى دمشـق وهـا أنـا لا أزال فيهـا.

·فطـرب الحـاضرون لهـذه القصـة وقـال أحدهـم، وكان شـيخا جليـلا اشـتعل رأسـه شـيبا» الـشيء بالـشيء يذكـر، فقـد اتصـل بي أن طبيـب مـصر الكبـير ابـن رضـوان لقـى في حداثتـه صعوبـات في تعلـم الطـب. فقـد أسـلم نفسـه لتعليـم الطـب لمـا بلـغ الرابعـة عـشرة مـن عمـره ولم يكـن لـه مـال ينفـق منـه فعرضـت لـه في التعليـم صعوبـة ومشـقة فـكان مـرة يتكسـب بصناعـة الطـب ومـرة بالتعليـم ولم يـزل كذلـك حتـى بلـغ الثانيـة والثلاثـين».

وسـأل آخـر عـن السـبب الـذي يدفـع الكثيريـن الى الطـب ودراسـته فأجـاب أحدهـم وكان مـن رجـال الطـب، بأنـه لمـا كان ينبغـي لـكل إنسـان أليـق الصنائـع ولمـا كانـت صناعـة الطـب تتاخـم الفلسـفة لأنهـا تكامـل الفضائـل كلهـا؛ لذلـك أقبـل عليهـا الكثـيرون طاعـة اللـه عـز وجـل. وقادهـم هـذا السـؤال إلى التحـدّث عـن صفـات الطبيـب. فتحـدّث في ذلـك كل المشـتغلين بالطـب وانتهـى الأمـر بهـم جميعـا الى أن الطبيـب هـو الشـخص الـذي

تجتمـع فيـه الخصـال التاليـة:

الأولى - أن يكـون تـام الخلـق صحيـح الأعضـاء حسـن الـذكاء جيـد الروايـة عاقـلا ذكـورا خـير الطبـع

الثانيـة - أن يكون حسـن الملبس طيـب الرائحة نظيف البدن والثوب.

الثالثـة - أن يكـون كتومـا لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم

الرابعـة - أن تكـون رغبتـه في إبـراء المـرضى أكـثر مـن رغبتـه فيـما يلتمسـه مـن الأجـرة ورغبتـه في عـلاج الفقـراء أكـثر مـن رغبتـه في عـلاج الأغنيـاء.

الخامسـة - أن يكـون حريصا عـلى التعليم والمبالغة في منافع الناس.

السادسـة - أن يكـون سـلم القلـب عفيـف النظـر صـادق اللهجـة. لا يخطـر ببالـه شيء مـن أمـور النسـاء والأمـوال التـي شـاهدها في منـازل الأعـلاء فضـلا عـن أن يتعـرض إلى شيء منهـا.

السـابعة - أن يكـون مأمونـا ثقـة عـلى الأرواح والأمـوال لا يصـف دواء قتـالا ولا يعلمـه ولا دواء يسـقط الأجنـة. يعالـج عـدوّه بنيـة صادقـة كـما يعالـج حبيبـه.

ومـا إن بلغـوا هـذه الغايـة مـن حديثهـم حتـى تنـاول اليـبرودي كتابـا قريبـا منـه عـلى يمينـه وقلـب أوراقـه ثـم قـرأ للموجوديـن مـا يـلى»إن الطبيـب هـو مـن تكاملـت فيـه الفضائـل كلهـا: التـي هـي العلـم التعليمـي والطبيعـي والإلهـي وصناعـة المنطـق والطـب وصالـح الأعـمال ومحاسـن الأخـلاق. إن مـن كان كامـلا في الطـب وناقصـا في واحـد منهـا فهـو يعـد متطبـب لا طبيـب، ومـن لم تتكامـل فيـه صناعـة الطـب فهـو متعلـم لم

يبلـغ بعـد إلى أن يسـمى بالمتطبـب». ولمـا سـأله أحدهـم عـن صاحـب هـذه الحكمـة أجابـه أنـه جالينـوس أبـو الطـب اليونـاني. والظاهـر أنـه كان بـين الجماعـة متعلـم في الطـب فنظـر إلى اليـبرودي وسـأله نصيحـة يحفظهـا عنـه، فقـال اليـبرودي» نصيحتـي إليـك هـي نصيحـة قرأتهـا بخـط ابـن رضـوان المـصري إذ قـال: إذا دعيـت الى مريـض فأعطـه مـما لا يـضره إلى أن تعـرف علتـه فتعالجهـا عنـد ذلـك». فشـكر المتعلـم لـه نصحـه.

وراقنـي المجلـس. فقـد جئـت أستشـفي فـإذا بي أقـضي سـاعة ماتعـة. وتذكـرت مـا سـمعته قبـلا مـن أن الأطبـاء الحقيقيـين في بـلادي العربيـة شـديدو المحافظـة عـلى سـمعتهم الطبيـة وكثـير والعنايـة بـشرف المهنـة، ولذلـك لم أسـتغرب لمـا رأيـت اليـبرودي، وهـو مـا عرفـت علـما وسـعة اطـلاع، لا يـرى عـارا في أن يـروى نصيحـة عـن ابـن رضـوان، أمانـة في النقـل، واعترافـا بالفضـل.

وخشـيت أن تفلـت الفرصـة دون أن أسـمع شـيئا عـن نـوادر الطـب والأطبـاء، والمجلـس الـذي أنـا فيـه الدهـر بمثلـه ضنـين، فجمعـت كل مـا عنـدي مـن جـرأة وطلبـت إلى الحاضريـن أن يـرووا شـيئا مـما جـرى لهـم. وكنـت آمـل ألا يبخـل اليـبرودي نفسـه بـأن يقـص علينـا نـوادره. ولم يخيـب أمـلي فقـد اسـتوى في جلسـته وابتسـم وقـال: عـبرت يومـا في سـوق جـيرون في هـذه المدينـة فرأيـت إنسـانا وقـد بايـع عـلى أن يـأكل أرطـالا مـن لحـم فـرس مسـلوق مـما يبـاع في الأسـواق. فلـما رأيتـه وقـد أمعـن في أكلـه بأكـثر مـما تحتملـه قـواه، ثـم شرب بعـده فقاعـا كثـيرا ومـاء بثلـج واضطربـت أحوالـه تفرسـت فيـه أنـه لا بـد أن يغمـى عليـه وأن يبقـى في حالـة يكـون المـوت

فيهـا أقـرب إليـه إن لم يتلاحـق. فتبعتـه إلى المنـزل الـذي لـه واسـتشرفت إلى مـاذا يـؤول أمـره، فلـم يكـن إلا أيـسر وقـت وأهلـه يصيحـون ويضجـون بالبـكاء ويذيعـون أنـه قـد مـات. فأتيـت إليهـم وقلـت إننـي أبوئـه. ثـم إننـي أخذتـه إلى حـمام قريـب وفتحـت فكيـه كرهـا ثـم ثقبـت في حلقـه مـاء مغليـا وقـد أضفـت إليـه أدويـة مقيئـة، وقيأتـه برفـق ثـم عالجتـه وتلطفـت في مداواتـه حتـى أفـاق وعـاد إلى صحتـه، فتعجـب النـاس منـى واشـتهرت عنـى هـذه القضيـة، وكنـت أرمـى بطبيعـة الحـال إلى اختبـار رأيـي فيـما يمكـن أن يحـدث لـه وإنجـاده مـما يقـع فيـه، وقـد صـدق حـدسي.

واسـتزدنا اليـبرودي فقـص علينـا أنـه حـدث أن رجـلا خبـازا بينـما هـو يخبـز في تنـوره بمدينتنـا هـذه إذ عـبر عليـه رجـل يبيـع المشـمش فاشـترى منـه وجعـل يأكلـه بالخبـز الحـار، فلـما فـرغ سـقط مغشـيا عليـه فنظـروا فـإذا هـو ميـت. فجعلـوا يتربصـون بـه ويحملـون لـه الأطبـاء فيلتمسـون دلائلـه ومواضـع الحيـاة فيـه فلـم يجـدوا. فقضـوا بموتـه فغسـل وكفـن وصـلى عليـه وخرجـوا بـه إلى الجبانـة. فبينـما هـم في الطريـق عـلى بـاب البلـد اسـتقبلتهم فسـمعت النـاس يلهجـون بقضيتـه فسـألتهم عنـه فقصـوا عـلى قصتـه فقلـت حطـوه حتـى أراه فحطـوه فجعلـت أقلبـه وأنظـر في أمـارات الحيـاة ثـم فتحـت فمـه وسـقيته شـيئا مقيئـا فانـدفـع مـا هنالـك فـإذا الرجـل فتـح عينيـه وتكلـم وعـاد بعـد حـين كـما كان إلى حانوتـه

فقـال أحـد الحضـور معقبـا عـلى قصـة اليـبرودي» لقـد قـرأت في كتـاب الغـاذي والمغتـذي لا بـن أبي الأشـعث الطبيـب أنـه رأى يومـا إنسـانا وقـد

بايع أن يأكل جزرا كثيرا. فحضر الأشعثي أكله ليرى إيراد الغذاء على المعدة قسرا إلى ماذا يؤول. فرآه يأكل ويضاحك من حوله حتى إذا مر على الأكثر مما كان بين يديه رأى الجزر يخرج من حلقه ممضوغا ملتفا متحبلا متعجنا بريقه، وقد جحظت عيناه وانقطع نفسه واحمر لونه ودرت وداجاه وعروق رأسه واربد وكمد وجهه وعرض له من التهوع أكثر مما عرض له من القذف حتى رمى من ذلك الذي أكله شيئا كثيرا. وبمثل هذه المناسبات كان الأشعثي يدرس الغذاء وأحواله. وعندها تقدم شخص آخر من الحضور وذكرنا بأن الأشعثي هذا شرح سبعا حيا بعد أن سقاه ماء كثيرا ليثبت أن المعدة متى امتلأت قسرا امتدت الطبقة الداخلة حتى ضار سطحها مستويا.

وكان آخر ما تحدث به القوم ذكرهم المتطببين وأدعياء الطب. فقد ذكر أحدهم أن تسامح شيوخهم في التسمي بالمتطبب شجع المتعلمين على استعمال هذه التسمية وإن لم يستحق هذه الرتبة. والذي سمى نفسه طبيبا ولما تتكامل فيه صناعة الطب أي دون اجتياز امتحانها فهو كذاب أحمق. ولفت اليبرودي نظرهم إلى أن من كبار الأطباء من حرم العمل لأنه أساء السيرة مثل ابن بكس الذي أبعد عن البيمارستان وتحامى طبه الناس لثلاث خلال لفساد عقله بمواصلة السهر وارتعاش يده من تعامل المجس وامتناع بصره عن رؤية القوارير.

كانت ساعات النهار قد ولت وقد أوقدت الخادم السرج ونحن بعد جلوس فرأت الجماعة أن تتفرق، فقاموا وحيوا وخرجوا. وما كادوا يصلون إلى السوق حتى وجدوها في هرج ومرج فسألوا عن ذلك

فذكروا بأن الغد هو يوم الوقوف بعرفات من سنة ٤٣١ للهجرة، وكانوا قد نسوا ذلك لانشغالهم بأمور الطب والتحدث عنها

ورأيت وقد تركت الجماعة، أولادا يقتربون مني فرحين، ولما وصلوا إلي زحموني بحيث شعرت كأن أضلاعي تكسرت. فأفقت من نومي وكانت تباشير الصباح قد آذنت بانتهاء موعد النوم

فنفضت عني الغطاء، ونهضت من الفراش، وأنا أفكر بهذا الحلم اللذيذ، وبما كانت عليه الطبابة في عصور العرب الزاهرة وبما كان يعنى به أطباؤهم من محافظة على شرفهم واهتمام بشؤون المرضى ورعاية لحقوق المهنة. فكرت بهذا كله فشعرت بأنني أعتز بهم وأفخر، وقلت في نفسي» فلا قص حديثي هذا على الناس، فلعل فيه ما ينفع، وذكر» إن نفعت الذكرى».

٤- مؤتمر مدرّسين

وجدتني وصاحبي نذرع صحنا واسعا في دار فخمة جميلة، ولم ندر ما الذي جاء بنا ذلك المكان، ولم نجد ثمة من نسأله عن الدار وأهلها. فاتجهنا نحو أحد الأروقة المعمدة المحيطة بفناء الساحة الواسعة وتبينا بابا يؤدي إلى غرفة صغيرة فوقفنا عليه فرأينا في ركن من الغرفة شابا بين يديه كراريس كثيرة فسلمت عليه وسألته عن المكان الذي نحن فيه. فرد التحية بأحسن منها ثم قال (أنتما في المدرسة العادلية وإذن نحن في دمشق وفي المدرسة العادلية؟

وجذبني صاحبي وهم بالخروج لكني تلكأت وكان ذلك من حسن حظنا. فقد لفت نظري أن أفرادا من أصحاب العمائم يتجهون نحو

بـاب كبـير في آخـر الصحـن الواسـع. فاقترحـت أن نتجـه نحـوه وقبـل صاحبـي فذهبنـا وكانـت ثمـة قاعـة كبـيرة مفروشـة بالسـجاد تـدور بهـا طنافـس ووسـائد والنـاس يدخلونهـا ويتخـذ كل مقعـدا. فدخلنـا مـع الداخلـين وجلسـنا في ركـن مـن أركانهـا بحيـث نـرى كل شيء دون أن تلفـت النظـر إلى وجودنـا.

والتـأم المجلـس وكان فيـه عـشرات مـن النـاس. لكـن خمسـة أشـخاص انتبـذوا مـن دون الباقـين مكانـا مرتفعـا. وأخذنـا نتأمـل الحاضريـن جميعهـم لكـن تأملنـا لم يطـل، فقـد ارتفـع صـوت مـن المـكان المرتفـع بذكـر الفاتحـة خشـع الجميـع يقرأونهـا. ومـا أن انتهـوا حتـى عـاد الصـوت نفسـه إلى الـكلام فقـال: نحـن نجتمـع السـاعة هنـا للنظـر في شـؤون المـدارس والتعليـم. فـكل واحـد بيننـا عمـل عـلى نـشر المعرفـة بـين أبنـاء قومـه. ولكننـا نـرى أن حالـة التعليـم أخـذت تنحـط بيننـا لذلـك اجتمعنـا لنبحـث القضيـة بحثـا خالصـا لوجـه اللـه تعـالى. فأشـد مـا أخشـاه أن نكـون قـد اتجهنـا نحـن بالتعليـم اتجاهـا شـوه غايتـه وباعـد بـين أصلـه ومرمـاه. وصمـت الشـيخ الجليـل عنـد مـا تقـدم أحـد الجالسـين عـلى المنصـة فتنـاول مـن كمـه الواسـع رقـا ملفوفـا ففتحـه وحمـد اللـه وأثنـى عليـه ثـم قـال: عنـي العـرب بـادئ ذي بـدء بالقـرآن وعلـوم الشريعـة فتناولوهـا في مدارسـهم بدقـة.

فلـما تعرفـوا إلى نتـاج القرائـح اليونانيـة نقلـوه إلى لغتهـم فصـار جـزءا مـن تفكيرهـم وعندهـا دخلـت الرياضيـات والطـب والفلـك دور العلـم وانتـشرت هـذه في العواصـم وكـبرى المـدن. وكان المسـجد أول دار للعلـم في الدولـة لكـن منـذ القـرن الرابـع للهجـرة خـرج النـاس إلى دور خاصـة

بعضهـا أنشـأها الخلفـاء والأمـراء كبيـت الحكمـة البغـدادي ودار العلـم القاهريـة، وبعضهـا مـما ينفـق عليـه الأفـراد مثـل المدرسـة التـي أسسـها الفقيـه الموصـلي في بلـده وجعـل فيهـا خزانـة كتـب مـن جميـع العلـوم ووقفهـا عـلى طـلاب العلـم فلـم يمنـع أحـد مـن دخولهـا وكان هـو نفسـه يعلـم فيهـا.

لكـن لمـا وقعـت بلادنـا تحـت سـيطرة الأتـراك السـلاجقة اتخـذوا مـن المدرسـة سـبيلا لنـشر دعايتهـم السياسـية وبذلـك تغلبـت النزعـة الدينيـة السياسـية عـلى الحيـاة العلميـة الفكريـة الخالصـة.

ومـع أن هـذا ليـس شـأن جميـع المتغلبـين، فقـد وضـع أولئـك بـذور هـذه الفكـرة. ولعـل بعـض مـا نعـاني اليـوم هـو مـن آثـار

هـذا التغلـب وأثـار هـذا الخطـاب القصـير نقاشـا طويـلا لكنـه ظـل هادئـا، فقـد لفـت نظـر المتحـدث إلى أن هـذا التعميـم فيـه خطـأ فاضـح. وأشـار كثـيرون إلى الفضـل الـذي أدتـه المـدارس العديـدة للعـرب وللإسـلام. وتنـاول أحـد الحضـور رحلـة ابـن جبـير مـن بـين كراريسـه وقـرأ للمجتمعـين وصـف الرحالـة لمجلـس حـضره في المدرسـة النظاميـة ببغـداد للشـيخ القزوينـي رئيـس الشـافعية وفقيـه المدرسـة، وقـد جـاء في هـذا الوصـف أنـه بعـد أن خطـب الشـيخ خطبـة سـكون ووقـار وعلـم صحيـح رشـقه الطـلاب والفقهـاء بالمسـائل مـن كل صـوب فأجـاب عليهـا كلهـا حتـى حـان المسـاء فتفـرق الجميـع. وأيـد آخـرون هـذه الدعـوى دحضـا لحجـة الخطيـب الأول. وعـاد هــذا إلى الـكلام ولكــن بغـير رق يخرجـه مـن كمـه فقـال: لقـد عرضـت للأمـر مـن ناحيتـه التاريخيـة، وقـد أكـون مخطئـا في الأمـر الـذي

وصلت إليه وعلى كل فإن لم يكن اللوم يقع على الأحوال فانه يقع على الرجال. وإذا كانت السلطة بريئة مما عزى إليها فالحق كله على المعلم الذي وكل إليه الأمر فلم يحسن القيام به، ولنرجع إلى هذا المعلم إلى نفوسنا لنرى موضع التقصير.

وكأن هذا التحدي من المتكلم قد لمس موضعا حساسا في نفوس القوم فأمنوا على قوله واتفق رأيهم على أن ينظروا الأمر من هذه الناحية. وكان أول ما بدا لهم من المسائل هو الغاية التي يجب أن يرمي إليها من التعليم؟ وتحدث في ذلك كثيرون وخرجوا من نقاش طويل هادئ إلى أن الغايات التي يجب أن يضعها أمامه المعلم والمتعلم هي ثلاث: أولاها أن ينوى المتعلم بطلب العلم رضا الله تعالى والآخرة. وثانيها أن يكون العلم جمالا للغنى ومالا للفقير، على حد ما قاله عبد الملك بن مروان. وثالثها أن ينال المتعلم من علمه لذة عقلية إذ أن الغرض من العلوم الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق.

فلما انتهى المجتمعون من تقرير هذه الناحية عادوا إلى فحص نفوسهم كمعلمين ليروا مسؤوليتهم في التدهور الذي أصاب التعليم في أيامهم، وكانت النواحي التي تحدثوا عنها هي الصفات التي يجب أن تتوفر فيهم ليحق لهم أن يكونوا المشرفين على تربية النشء وتهذيبه ليصلوا به إلى هذه الغايات التي أقروها، وكان بين الحضور شخص قد لزم الصمت الوقت كله فتقدم الآن للكلام فقال: روى ابن حوفل أنه لما زار بلوم عاصمة صقلية سنة ٣٦٢هـ وجد فيها ثلاثمائة معلم

ولما استكثر العدد وسأل عن سبب هذه الكثرة قيل له إن الكثيرين يتخذون التعليم مهنة لأنه ينقذهم من الغزو ويبعدهم عن الجندية.

ونحن لا نريد هذا النوع من المعلمين.. إنما نريد أن نكون نحن عند وصف ابن الكناني إذ قال: يجب أن يكون المعيد، وهو معلم أيضا، من الصلحاء الفضلاء صبورا على اختلاف الطلبة حريصا على إفادتهم قائما بوظيفة اشتغالهم. وقد لا يستطيع كل معلم أن يكون إماما في موضوعه لكنه يجب أن يكون قد أجازه شيوخه. والمهم في هذه المسألة هو أن يكون قد أخلص الله تعالى فقدم طهارة النفس على رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف. نحن بحاجة إلى قوم لم يبخلوا بشيء في سبيل الحصول على المعرفة قبل أن يعطوها لغيرهم. وصمت المتكلم قليلا كأنه يستريح من العناء الذي ناله ثم استمر قائلا (إن سبيل التعليم هو أن يلحق الطالب بالمعلم حيث كان. أتدرون لماذا نبه شأن أمثال التبريزي والمعرى وغيره؟ اسمعوا أقص عليكم حكاية الخطيب التبريزي وما ناله في سبيل العلم. حصلت له نسخة من كتاب الأزهري المسمى التهذيب في اللغة وأراد تحقيق ما في الكتاب، فدل على المعرى، فجعل الكتاب، وهو في مجلدات في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة، ولم يكن له ما يستأجر به مركوبا وسار أربعين يوما حتى وصل معرة النعمان. وقد نفذ العرق من ظهره اليها فأثر فيها البلل. هذا أيها السادة هو المثال الذي يجب أن نحتذيه في طلبنا العلم. وأعجب الحاضرون بقصة التبريزي، الذين كانوا يعرفونها قبلا مثل الذين كانوا يجهلونها، فدوى المكان بتصفيقهم.

وأقـر المجلـس بعـد حديـث طويـل أنـه لا يجـوز لمـن لم ينـل مـن العلـم حظـا وافـرا ومـن لم يتحمـل المشـقة في سـبيله ولم يأخـذه عـن أئمتـه أن يتـولى التعليـم.

وتبـين لنـا أن إعـداد المعلمـين كان دائمـا موضـع عنايـة خاصـة ذلـك لأن المهـم في حيـاة المدرسـة العربيـة كان دائمـا المعلـم أو الأسـتاذ، فلـم يكـن طلبـة العلـم يعنـون بـأن يقولـوا إنهـم تعلمـوا في مـكان كـذا ولكـن أنهـم قـرأوا عـلى الشـيخ الفـلاني وأجازهـم الإمـام الفـلاني. ومـن ثـم كان الأسـتاذ هـو عـماد الحيــاة الفكريـة، فمـن قلـت بضاعتـه كسـدت سـوقه وحكـم النـاس عليـه بالهجـر.

وتنـاول الحـاضرون بعـد ذلـك العلـوم التـي يجـب أن يلقنوهـا طلابهـم. وهنـا ظهـر اتجاهـان يـكادان يكونـان متناقضـين. فقـد أصر القلائـل عـلى الاكتفـاء بالقـرآن الكريـم وعلـوم الـشرع واللغــة والشـعر والأخبـار في المـدارس. وقـال كثـيرون بوجـوب ضـم حسـاب الهندسـة والجـبر والمقابلـة لتكـون معرفـة الطالـب وافيـة بالعلـوم العقليـة والنقليـة عـلى أن يختـار بعدهـا الطالـب سـبيله في التخصـص فيكـون عالمـا في الشريعـة أو في اللغـة أو راويـة للأخبـار أو طبيبـا أو مهندسـا. وهـذه تتـم كلهـا في المـدارس الفنيـة. فالبيمارسـتان يلجـأ إليـه طالـب الطـب ومدرسـة الهندسـة، كتلـك الثـى في دمشـق، يقصدهـا طـلاب المعـمار ومـن إليهـم. وقـد تكلـم في هـذا الموضـوع كثـيرون وطـال التحـدث فيـه. وأخـيرا تغلـب أصحـاب الـرأي العلمـي عـلى الآخريـن فأقـرت الجماعـة وجـوب تعليـم المباحـث المختلفـة في دور العلـم حتـى لا يبـلى شـبابنا بمعرفـة ناقصـة.

هنا أعلن صاحب الصوت الذي افتتح الكلام بأن آخر ما بين أيدي المجتمعين هو بحث العلاقة بين المعلم وطلابه. وعندها تقدم ثلاثة لمعالجة الموضوع. فتكلم الأول عن أجرة المعلم، وتكلم الثاني عن طريقة التعليم وتحدّث الثالث عن العلاقة الشخصية بين المعلم والمتعلم.

فأما الأول فقد أشار إلى أن المعلم بحاجة إلى كسب العيش إلا من توفر له من المال ما يكفيه. وقد أكد أن الشرع لم يمنع أخذ الأجرة على التعليم ولو على تعليم القرآن. فقد سئل الغزالي في ذلك فقال إنه للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليتفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم، وأشار المتكلم إلى أن هذه القاعدة النظرية طبقت عمليا في الأندلس وفي المشرق. فضلا عن أن المدارس النظامية التي كانت تقوم الحكومات عليها كان يعطى فيها للمعلمين مرتبات. وقد أعطيت المرتبات هذه حتى للطلبة في المستنصرية وغيرها من المدارس. ويظهر من هذا كله أن لا بأس بأخذ الأجرة إذا دعت الحاجة إليها.

وأما الثاني فقد تناول بحثه أساليب التدريس وطرق التعليم، فأشار إلى أن لكل صاحب صناعة طريقة خاصة به. ولما كان التعليم من جملة الصنائع فإنه أصبح لكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها، فقد يلجأ الأستاذ إلى دروسه فيذكرها دون أن يتلعثم، وهو النوع الصالح للمعاهد العلمية المتقدمة، وقد يفضل المدرس أسلوب المناقشة والمناظرة. والمهم في هذا كله هو أن يكون الشرح أولا على سبيل الإجمال، يراعى فيه استعداد الطالب ثم

يستوفي الشرح والبيان بحيث يخرج عن الاجمال، فإذا تم له ذلك عمد إلى التفصيل الدقيق الذي لا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلا وضحه وفتح مقفله. أما الطالب فعليه أن يعنى بأمرين: الأول أن يحفظ ما أعطيه ويعيه ثم عليه أن ينمى الملكة العلمية. فإن الطالب الذي تكون عنايته بالحفظ أكثر من عنايته بتحصيل الملكة لا يحصل على طائل من ملكة التصرف في العلم ولا يحصل شيئا من الفن. والمقصود من العلم أن يصل المتعلم إلى ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال والاستحضار.

وتكلم الثالث عن وظيفة المعلم المرشد بالنسبة إلى طلابه، وكان هذا الرجل ممن تأثر بالغزالي إلى حد كبير، فبعد أن أمن على أقوال زميله عن الأسلوب المؤدى إلى خلق الملكة العلمية قال: عندما أقلب صفحات الكتب التي حض فيها أصحابها على طلب العلم أجد فيها نصائح كثيرة تدور حول ما يتوجب على المتعلم والمعلم، ولكني أرى أن نظرات الإمام الغزالي في هذه المسألة هي الثى يجب أن تكون شعارنا نحن الذين نريد أن نشرف على تربية نشأنا وتقويمه. ذلك لأن هذا الإمام كان. يرى أن التلاميذ بالنسبة إلى المعلم أبناؤه، فعليه أن يجريهم مجراهم. فإذا صح ذلك فليس يجوز للمعلم أن يدع من نصح المتعلم شيئا وعليه أن يتأكد من إتقانه العلوم الجلية قبل الانتقال إلى العلوم الخفية. فاذا تعرض المتعلم لسوء الأخلاق كان زجره بطريق التعريض والرحمة لا يصرخ ولا يونج، وقد خشي الغزالي أن يعمد المتكفل ببعض العلوم تقبيح العلوم الأخرى فنهى عن ذلك. وكان الغزالي يكره القائلين دون أن يعملوا بالقول فأوصى المعلمين بوجوب موافقة القول للعمل

فلا يكذب القول الفعل وكان هذا الرجل شديد العناية بأن ينشأ الصغار من الطلاب خاصة تنشئة صحيحة فأوجب على معلميهم أن يمنعوهم من التنعم والزينة وأن يعوّدوهم الخشونة في المفرش والملبس والمطعم.

انتهى الثالث من خطابه، وبذلك انتهت أعمال المؤتمر. وأخذ الحاضرون يخرجون من القاعة وقد بحثوا شؤونهم بحثا وافيا نزيها.

وخرجت وصاحبي فيمن خرج، ولما صرنا في الشارع اتفقنا على أن هذه المباحثات البعيدة عن الهوى تؤدّى ولا شك إلى فهم الأمراض الاجتماعية ومعرفة طرق الإصلاح.

ورأينا في الشارع قوما يتراكضون فسألنا ما الخبر؟ فقيل لنا: إن تيمورلنك على أبواب دمشق وأنه من مج أن يحاصر المدينة حتى تدفع له غرامة كبيرة، فقلنا في أنفسنا عاد الغريب يزعج بلادنا وأبناءنا وشعبنا، ليته يتركنا لنصلح شؤوننا. ولكن ليت لم تنفعنا، فإن تيمور لم يلبث أياما حتى دخل المدينة وفعل فيها الشر الكثير وتركها طعمة للنهب والسلب. لكن آثار مؤتمر المعلمين تغلبت حتى على غزوة تيمور.

٥ - كتاب

انقطع صاحبي عني فترة طويلة من الزمن، فلم تصلني أخباره ولم أدر ماذا جرى له. مرت على ذلك سنوات حتى هبطت قاهرة المعز في شتاء السنة ٨٠٠ للهجرة، وحللت في أحد الفنادق الكبيرة. وكنت في أحد جالسا في غرفتي أفكر بشئوني خطر ببالي صاحبي فتمنيت على الله أن أقابله إن كان في مصر. وما كدت أعرض لهذه الأمنية حتى شعرت بدافع يقودني إلى الخروج، فلبيت نداءه. ووجدتني بعد ساعة أسير في شوارع القاهرة على غير هدى حتى وصلت مسجد السلطان حسن فراعتني ضخامته، حتى لكأنني أراه لأول مرة، فدخلته لأمتع نفسي برؤية هذا الأثر النفيس، فلم أكد أصعد درجاته الخارجية حتى رأيتني وجها لوجه مع صاحبي. وحسبتني بادئ ذي بدء في حلم، لكنني أدركت أنني في يقظة. فسلمنا وتحدثنا قليلا ونحن وقوف، ثم قادني إلى داره فدخلتها، فإذا بها رحبة واسعة فيها فرش جميل وأثاث أنيق، وقد لفت نظري مظهر صاحبي قبلا، فأنا لم أكن أراه إلا مشعث الرأس أغبر الوجه تبدو عليه أمائر التنقل والأسفار، أما اليوم فإنه يرتدى طيلسانا واسع الأردان و يعتم بعمة أنيقة وثيابه نظيفة ويفوح منه بدل رائحة التراب عبير المسك. لكن شوقي إلى صاحبي وتطلعي إلى معرفة أخباره منعاني من التسآل عن مظهره.

واستقر بنا المجلس في داره فدعا بشراب هو عصير فواكه ساخن، وأخذ يسألني عن حالي وغايتي وقصدي وخبري حتى استقصى كل ما يريد،

وكان الظلام قد هبط على المدينة فاستأذنت صاحبي فأقسم ألا أقمت عنده ضيفا ما دمت في مصر. وكنت أحب ذلك، فلم أمانع. وجاء بالطعام المنوع الأشكال المتعدد الألوان فأكلنا شبعنا ثم تنقلنا وتفكهنا بالفاكهة والأخبار. فلما تم ذلك كله، نظرت إلى صاحبي وفي نفسي سؤال. لكنه لم يمهلني فقد بدأ هو الحديث بقوله «لعلك تريد أن تعرف سر ما أنا فيه من نعمة؟ فابتسمت ولم أقل شيئا. فصمت لحظة ثم قال» أنا يا أخي اليوم كاتب في ديوان الإنشاء، ولى مرتب شهري قرابة ثلاثين دينارا» ولم أكتم أنني استغربت ذلك ولكن صاحبي طيب خاطري بقوله» إن العمل في ديوان الإنشاء عمل كبير الخطر، وأنا إنما قبلته لأنني أستطيع عن طريقه أن أقوم بخدمة لبلادي وأمتي. فلا تحسبني أنني موظف قبلت العمل لا أملك شروى نقير، فأنت تعرف أنى بحمد الله كنت أحصل من تجارتي ما لا يقل عن أجرى. ولكن لي حكاية تتعلق بعملي في الديوان لعل في قصها عليك تطييبا لخاطرك. فقلت هات، فاعتدل صاحبي في جلسته وحدثني قائلا:» أودّ قبل كل شيء أن أذكرك بالعمل الذي يقوم به ديوان الإنشاء بالنسبة للدولة والإدارة الحكومية، فلعلك لانقطاعك إلى كتب الفلسفة نسيت ما في الدنيا وغيرها من شؤون. فاعلم يا أخي أن صاحب الديوان تمر من تحت يديه الأمور التالية: التعيين والتوقيع والإشراف على الكتب والعناية بالبريد والحمام واختيار العيون الذين يوافون السلطان بأنباء أعدائه وتعهد المناور والمحرقات في أنحاء المملكة. فأنت ترى من هذا أنه لا يستطيع أن يغفل شيئا من وسائل توصيل الأخبار إلى الحكام أو الحصول على الأخبار

فـإذا وثقـت مـن خطـر هـذا الديـوان انتقلـت بـك إلى روايـة القصـة المتعلقة بعمــلي هنــا، فأمنــت عــلى كلامــه وعندهــا اســتمر في حديثــه «كنــت في إحـدى سـفراتي بـين غـزة والإسـكندرية في مركـب للجنوبيـين. وكان فيـه عـدد كبـير مـن الـركاب، عـلى عـادة هـذه المراكـب، فلفـت نظـري منهـم ثلاثـة لم يكونـوا في هيئـة مـن التجـار ولا زي الحجـاج، ورأيتهـم ينفقـون عـن سـعة، فأخـذت نفـسي بمراقبتهـم. وفي ليلـة صفـا جوهـا وطـاب هواؤهـا خرجـت إلى ظهـر المركـب لأسـتمتع بالمنظـر فرأيـت الثلاثـة في زاويـة يتهامسـون. فاضطربـوا لظهـوري لكنهـم لم يلبثـوا أن عاودهـم هدوءهـم وعـادوا إلى حديثهـم. فلعلهـم اطمأنـوا إلى أننـي لا أفهمهـم. وهنـا كان خطأهـم. فإننـي قـد تعلمـت شـيئا مـن هـذه اللغـة لكـثرة مـا سـافرت وتنقلـت، وفهمـت مـن حديثهـم أنهـم عيـون للأجانـب يريـدون أن يهبطـوا بلادنـا ويتعرفـوا شـؤونها وأمورهـا. فصمـت وراقبتهـم كثـيرا دون أن يلحظـوا ذلـك، حتـى انتهـت الرحلـة فنزلنـا في الاسـكندرية وعرفـت أي فنـدق قصـدوا فأسرعـت إلى صاحـب الثغـر فأخبرتـه بالأمـر فقبـض عليهـم وبعـث بهـم إلى عاصمـه السـلطنة وجئـت معهـم. وهنـاك نظـر في أمرهـم فثبتـت التهمـة عليهـم وحوكمـوا، وسـجنوا».

«وكان مــن الطبيعــي أن أتصــل بصاحــب ديــوان الإنشــاء لأنــه المعنــى بالعيـون والجواسـيس ومـا يحملـون مـن الأخبـار. وقـد تحدثنـا كثـيرا حـول أنـواع مختلفـة مـن الأعـمال الثـى يجـوز أن تتـم في الديـوان، وعندهـا عـرض عـلى أن أعمـل في ديوانـه. وقـد تـردّدت بـادئ ذي بـدء لأننـي لا أريـد أن أتقيـد بمـكان وزمـان وعمـل. فأنـا أحـب التنقـل والسـفر والحريـة. لكـن

صاحب الديوان قال لي على سبيل الإقناع» أنت تعرف لغة أجنبية وبذلك تستطيع أن تتعرف إلى هؤلاء الناس الذين يصلون إلى بلادنا بحجة الرحلة والحج وهم عيون للعدو علينا وقد كثر عددهم مؤخرا. وأنت كثير الأسفار لذلك تعرف الطرق والأماكن فيمكنك أن تؤدى لنا خدمة كبيرة في شؤون البريد، فليس يسيرا علينا أن يكون في ديواننا من يعرف هذا كله. وأنت بعد كاتب بليغ فنحن نأمن زلة من قلمك، ولا ريب في أن اشتغالك بالتجارة ونقلك أطلعك على شؤون كثيرة للصناعة وموادها وأسعارها ورسومها وجماركها وجعلها، ولذلك تتمكن من الإشراف على ناحية من نواحي المالية في ديواننا». وكانت كلمات صاحب الديوان هذه مغرية فوعدته بالتفكير، وبعد أن أعملت الفكرة قبلت فما يجوز لأمرى أن يتقاعد عن أداء واجب لقومه وبلاده. وها قد مرت على أربع سنوات وأنا أعمل في هذا الديوان. وأؤكد لك أن العمل فيه لذيذ».

كان الليل قد امتد بنا ولكنى لم أشعر بتعب، ولم يشعر صاحبي به، فعدنا إلى التحدّث. وأردت أن أعرف عن الديوان أشياء وأشياء فسألت صاحبي فأجاب وما بخل. واتفقنا على أن الكتابة بحد ذاتها صناعة عقلية تتفق والميول الأدبية فمادتها ألفاظ يتخيلها الكاتب ويضم بعضها إلى بعض فتصور صورا تامة هي بنات أفكاره وغايتها انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة العائدة بالفائدة الجسيمة. ورأينا أن الملك تنتظم أموره في ثلاثة أشياء: أولها رسم ما يجب أن يرسم للعمال والمكاتبين. وثانيها استخراج الأموال من وجوهها واستيفاء

الحقـوق السـلطانية فيهـا. وثالثهـا تفريـق الأمـوال في مسـتحقها مـن أعـوان الدولـة وأوليائهـا، وهـذه الأعـمال كلهـا يقـوم بهـا الكتـاب، ولا تتـم بـدون كتـاب ماهريـن.

وسـألت صاحبـي عـن الصفـات المرجـوة فيمـن يتـولى عمـلا مـن أعـمال الكتابـة الخطـيرة فأطـرق صاحبـي كأنمـا يسـتعيد شـيئا مـر بـه، ثـم قـال: يذكـرني سـؤالك هـذا بحادثـة مـرت في الديـوان. ذلـك أن أحـد كبـار المشـتغلين بصناعـة العلـم ومـن أصحـاب العلـم الواسـع تقـدّم للعمـل في الديـوان، ولكـن حالـت صفاتـه الخلقيـة دون قبولـه. فالعمـل في الديـوان يتطلـب صفـات خاصـة، فمنهـا أن يكـون عـدلا. فالعدالـة لازمـة لمـن يحكـم في أرواح النـاس وأموالهـم، ويجـب أن يتوفـر في الكاتـب الـرأي الجـزل والعقـل، فيعـرف كيـف يضـع الأمـور في مواضعهـا والمسـائل في حدودهـا. وعليـه أن يكـون كفئـا لمـا يتـولاه. فـإن العاجـز يدخـل الوهـن في أمـر قومـه ويدخـل الـضرر عـلى المملكـة. هـذا فيـما يخـص صفاتـه العقليـة والخلقيـة، وثمـة صفـات عرفيـة يجـدر بـه أن يتحـلى بهـا كدقـة الحـس وجـودة الحـدس وحـلاوة اللسـان والشـمائل وملاحقـة الـزي ونظافـة المجلـس ورقـة الحاشـية. وإلى هـذا كلـه فإنـه ينتظـر منـه أن يكـون حسـن السـيرة شريـف المذهـب يعتمـد تقـوى اللـه في الأسرار والاعـلان ويضمـر صـلاح النيـة لمـا يتـولاه مـن أمـور السـلطان وقصـد النفـع العـام ويتجنـب الريـب ويتنـزه عنهـا ويلـزم العفـاف والصيانـة فيـما يتـولاه مـن أعـمال السـلطان. وقـد يعـرض للكاتـب أن يعـاشر مـن هـم فوقـه ومـن هـم أكفـاؤه ومـن هـم دونـه. فعليـه أن يعـرف لـكل عشـير حقـه وأن يضـع علاقاتـه معهـم في مواضعهـا، فيكتـم الـسر إن بيـح لـه بـه ويشـكر عنـد الشـكر ويفـي عنـد

الحاجة ويتجنب الأدلال. فأنت ترى من هذا أن من يكتب في الديوان يجب أن يتحلى بالكثير من الخلال الفاضلة والصفات الطيبة.

وهممت بالاكتفاء ولكن صاحبي أصر على أن نتابع الحديث، فهذه ليلة قد لا تعود، فقد يشغل صاحبي أياما بلياليها في عمله إذا تأزمت الأمور واشتدت، سيما وأن العدوّ محيط بنا من نواح كثيرة، فالتتار يهددون شمال سوريا والإفرنج يهددوننا من البحر. فقبلت من صاحبي طلبه، وجدت عليه بسؤال عما ينتظر من الكاتب أن يعرفه حتى يتسنى له أن يعين في عمل من الأعمال في ديوان الإنشاء. فأجاب صاحبي» الكتاب على أنواع وكل نوع منهم بحاجة إلى نوع من المعرفة يتناسب مع عمله. فأعمال ديوان الإنشاء على ما تعرفها اليوم على سبعة أنواع كلها كتابية: فثمة كاتب ينشئ ما يكتب في المكاتبات والولايات، وهناك كاتب يتولى مكاتبات الملوك عن ملكه. وثالث يكتب إلى أهل الدولة وكبرائها وولاتها ووجوهها. ورابع يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ. وخامس عمله أن يبيض ما ينشئه المنشئ. وسادس يتصفح ما يكتب في الديوان. وسابع يكتب التذاكر والدفاتر، وأنت ترى التفاوت بين هذه الأنواع. ومن ثم كان ما يجب أن يعرفه كل واحد يختلف اختلافا كبيرا عما يعرفه الآخر».

وخشيت أن يصمت صاحبي فأخجل من تكرار السؤال فلا أصل إلى بغيتي. لكنه لم يصمت إلا ليستريح قليلا، ثم عاد إلى الكلام فقال: على أنه ثمة بضعة أمور يجب أن يعرفها جميع الكتاب ثم يعنى كل بناحية خاصة من نواحي حياته. لكن الواقع أن صاحب ديوان الإنشاء

في هــذا البلــد يجــب أن يحيــط كل عامــل في ديوانــه بشــعاب المســائل ليتمكــن مــن القيــام بــأي عمــل يعهــد إليــه بــه، دون أن يضطــرب أو يحــار، وهــو في هــذا يجــري عــلى ســنن الســلف الصالــح.

فابـن قتيبـة مثـلا يجـب أن تتوفـر في الكاتـب معرفـة أمـور اللغـة والتصريف والنظـر في الأشـكال لمسـاحة الأرضـين والزوايـا والمثلثـات والمربعـات، ويجـب عــلى رأيــه أن تمتحــن معرفــة الكاتــب بالعمــل في الأرضــين لا في الكتابــة بالدفاتــر. ومــن الــضروري أن يعــرف الكاتــب إجــراء الميــاه وحفــر فــرض المشــارب وردم المهــاوي ومجــاري الأيــام ودوران الشــمس وحــال القمــر ونصـب القناطـر والجسـور والنواعـير، وإلا نقصـت كتابتـه. أمـا الوزيـر ضيـاء الديــن بــن الأثــير فــزاد عــلى ذلــك بــأن صاحــب صناعــة الكتابــة يحتــاج إلى معرفــة مــا تقولــه النادبــة بــين النســاء والماشــطة عنــد جلــوة العــروس ومــا يقولـه المنـادى في السـوق عـلى السـلعة. ومـن الواضـح أنـه ثمـة فـرق بـين اسـتعمال الكاتـب لأنـواع المعرفـة، فاللغــة والبيـان سـبيله في كل أمـر، فهـو محتــاج إليهــما بطريــق الــذات. أمــا العلــوم الأخــرى فإنمــا يحتــاج إليهــما بطريــق العــرض كالطــب والهندســة والهيئــة ونحوهــا مــن المباحــث، فــإذا تنــاول عملــه العنايــة بشــؤون الجنــد أو الرمــاة أصبــح مــن الــضروري أن يعــرف مصطلــح رمــاة البنــدق ومــا إلى ذلــك.

« إلا أنــه مــما لا ريــب فيــه أن الكاتــب يجــب أن تكــون لــه معرفــة بالعلــوم الشرعيــة، لأنهــا قــوام الدولــة".

كان الليــل قــد انتصــف أو كاد، وكنــا قــد أدركنــا النعــاس، ولكــن قبــل أن نــأوي إلى الفــراش إذا بطــارق ليــل ففتــح صاحبــي لــه فدخــل شــاب يحمــل

بـين يديـه دفاتـر كثـيرة. فقلبهـا صاحبـي وأعجـب بتنظيمهـا ثـم التفـت إلى وقال:»كنـت أعتـزم أن أصحبـك غـدا إلى الديـوان لـترى بعـض مـا يعمـل فيـه، ولكـن جـزءا مـن الديـوان نفسـه جـاء إليـك. فهـذا الكاتـب كلـف أن يتـم عمـلا كان قـد تركـه سـلفه الـذي أرسـل إلى دمشـق قبـل أسـبوعين وهـا هـو قـد أتمـه وحمـل الدفاتـر إلى لأراهـا. فانظـر«.

قـال صاحبـي هـذا وبسـط بـين يـدي الدفـتر الأول فـإذا بـه يحـوي ألقـاب الـولاة وغيرهـم مـن ذوي الخـدم وأسـماءهم وترتيـب مخاطباتهـم. ثـم طـواه وفتـح الثـاني فـإذا فيـه تذاكـر تشـتمل عـلى مهـمات الأمـور التـي تنهـي في ضمـن الكتـب وبذلـك يسـهل الرجـوع إليهـا بـدل التفتيـش عنهـا في الأضابـير. فلـما انتهينـا إلى الدفـتر الثالـث وجـدت فيـه الحـوادث العظيمـة مـما يجـرى في المملكـة، ثـم جـاء دور الدفـتر الرابـع فـإذا بـه يحـوي فهرسـة للكتـب الصـادرة والـواردة مفصـلا مسـانهة ومشـاهرة ومياومـة. وكان في الدفـتر الخامـس فهرسـت للإنشـاءات والتقاليـد ومـا إليهـا. ولكـن لمـا وصلـت إلى الدفـتر الأخـير وجـدت شـيئا أثـار دهشـتي حقـا. فقـد كان فيـه فهرسـت لترجمـة الكتـب الثـى تـردّ عـلى الديـوان بغـير اللسـان العـربي مـن الرومـي والفرنجـي وغيرهـما. ومـع كل كتـاب معنـاه واسـم مترجمـه.

أعجبـت بهـذا الـذي رأيـت، فنظـر إليّ صاحبـي مزهـوا وقـال» بمثـل هـذه التنظيـمات اسـتطاع ديـوان الانشـاء هنـا أن تضبـط أمـوره ومـن ثـم أمـور الدولـة«.

فقلـت لصاحبـي» لقـد كنـت أعـرف مـن قبـل أن ديـوان الإنشـاء لـه قيمـة في حيـاة الدولـة وأنـه لـه نظـام يسـير عليـه، لكنـي مـا كنـت أعـرف أنـه بلـغ

هـذه الدرجـة مـن الدقـة. فـما أكـبر الفـرق بـين نظـام الديـوان البسـيط كـما وضعـه عمـر بـن الخطـاب وبـين هـذا التركيـب والتعقيـد الـذي نـراه في ديواننـا هـذه الأيـام».

فابتسـم صاحبـي كأنـه أراد بابتسـامته أن ينـال منـى لجهـلي، عـلى زعمـه، ثـم قـال» لعلـك لم تنـس أنـه قـد مـرت قرابـة ثمانمائـة سـنة عـلى ذلـك العهـد، وقـد اختـبر النـاس مـن شـؤون الدولـة والحكـم الـشيء الكثـير. ولا يجـوز أن تذهـب اختبـارات النـاس عبثـا. فدواويـن دمشـق وبغـداد وقرطبـة والقاهـرة وتونـس كلهـا كانـت لهـا أنظمـة وقوانـين وهـذا ابـن مـماتي قـد كتـب كتابـا سـماه قوانـين الدواويـن. والـذي أريـد أن أذكـرك بـه هـو أن تنظيـم ديواننـا هـو خلاصـة لـكل مـا عرفـه هـؤلاء الحـكام وزبدتـه»

وجمـع صاحبـي الدفاتـر لينـا ولهـا للشـاب الـذي كان هنـا فسـقط منهـا واحـد عـلى رجـلي فآلمنـي ومـددت يـدي أتحسـس موضـع الألم فوجـدت رجـلي متخـدّرة، ووجدتنـي مكبـا عـلى مكتبـي وقـد غلبنـي النعـاس وأمامـي كتـاب صبـح الأعـشى للقلقشـندي فقـرأت فيـه.

لمـا كان أربـاب الأمـور وولاتهـا مـن الخلفـاء فمـن دونهـم ينقـدون مـا يكتـب بـه الكتـاب عنهـم ومـا يـرد عليهـم مـن الكتـب ويناقشـون عـلى مـا يقـع فيهـا مـن خطـأ أو يدخلهـا مـن خلـل ويقدمـون الفاضـل ويرفعـون درجتـه ويؤخـرون الجاهـل ويحطـون رتبتـه كان الكتـاب يتبـارون عـلى اقتنـاء الفضيلـة ويترفعـون عـن أدنى رذيلـة ويجهـدون في تحسـين ألفاظهـم وتزيـين مكاتباتهـم.

« أما الآن فقد انعكست القضية. فقدم من غلط بهم الزمان وغفل عنهم الحدثان واستولت عليهم شره الجهل ونفرت منهم أوانس الفضل وصار العالم لديهم حشفا والأديب محارفا والمعرفة منكرة والفضيلة منقصة والصمت لكنة والفصاحة هجنة اجتنبت الآداب اجتناب المحارم وهجرت العلوم هجر كبار المآتم».

قرأت هذا وفكرت ثم قلت في نفسي» ما أشبه الليلة بالبارحة»

٦ - عزلة الإمام الغزالي ببيت المقدس

جاءني صاحبي وقد قارب وقت أذان العصر، وقال دون أن يجلس: «هيا بنا نحضر حلقة الوعظ ودرس التفسير في المسجد الأقصى» وكان من عادتنا، إذا جاء رمضان، أن نواظب على حضور هذه الحلقات لما فيها من علم وموعظة، فقلت له «استرح قليلا، فالوقت أمامنا بعد متسع».

ولكن صاحبي أبى أن يجلس وألح على بالذهاب حالا، فقد بلغه أن حلقة الوعظ حظيت اليوم بإمام كبير ولا شك أن الزحام سيكون شديدا، لأن الكل حريص على أن يفيد من علمه. ورأيت صاحبي، وهو الهادئ عادة، مضطربا راغبا في الإسراع فأسرعت بارتداء ملابسي وخرجنا معا. وقد حدث ما توقعه صاحبي، فلم نكد ندخل ساحة الحوم حتى رأينا الناس يتراكضون نحو إيوان المسجد الكبير، فأسرعنا الخطى، ويسر لنا هذا أن نجلس في الصفوف الأمامية. لكن الإمام الكبير لم يكن قد دخل المكان، فأخذ الناس يتحدثون عنه وعن غزارة علمه. وكان إلى جانبنا رجل عليه سيماء المهابة والجلال، يزينهما هدوء. فالتفت إليه

وسألته إن كان يعرف هذا الإمام الذي ننتظر، وهذا العالم الكبير الذي سيحدثنا. فأجاب أنه عرف عنه الكثير. فهو أبو حامد الغزالي، ولد بطوس ودرس بالنظامية ببغداد فكان له فيها ثلاثمائة من الطلاب، ثم مالت نفسه إلى ترك العمل هناك والاعتزال للتعرف إلى الطرق العملية للصوفية فرحل إلى دمشق ثم جاء بيت المقدس فكان يدخل منارة جامع دمشق ويقضى فيها سحابة نهاره. أما في بيت المقدس فكان يدخل قبة الصخرة، فيغلق عليه بابها ساعات طويلة يتأمل ويذكر، وقد مرت عليه شهور وهو على هذه الحال، لكنه لم يعقد حلقة وعظ ولم يشهد له الناس درسا، ولا يعرفه إلا القلائل ممن يثابرون على المجيء إلى هذه الأماكن المقدسة

بدأ الإمام حديثه بذكر الله والثناء عليه، ثم قرأ الآية الكريمة «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام». وروى أنه لما سئل النبي الكريم عن معنى قوله تعالى هذا أجاب «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب».

فقيل: وما علامته، فقال «التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود. فلما انتهى من رواية الآية الكريمة والحديث الشريف انتقل إلى تفسيرهما. وكان أساس تفسيره اختياراته الشخصية. فإنه، على ما فهمنا منه سلخ زمنا طويلا من عمره وهو يقاسي الصعوبات في سبيل استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق. وقد خاض لجة هذا البحر خوض الجسور لا خوض الحذور، وتوغل في مدلهمه وتهجم على كل مشكلة وتفحم كل ورطة، وقد كانت المشكلة الأولى الثى عرضت

لـه هـي تخليـص حقيقـة الفطـرة الأصليـة مـن حقيقـة العقائـد العارضـة ففتـش عـن علومـه ومعرفتـه فشـك فيهـا، شـك في المحسوسـات، وشـك في المعقـولات، وشـك في وسـائل هـذه وتلـك. وانحـصرت أصنـاف طالبـي الحـق عنـده في أربـع فـرق هـم المتكلمـون والباطنيـة والفلاسـفة والصوفيـة. وتنـاول أصحـاب هـذه الفـرق وذكـر كيـف درس أبحاثهـم وعـرف طرائقهـم، وكان المتكلمـون أول مـن هاجمهـم. فقـد طالـع كتبهـم فصـادف علمهـم غـير واف بمقصـوده، فتركهـم وتركـه، وانتقـل إلى الفلاسـفة.

كان الغـزالي إلى السـاعة يتكلـم بهـدوء، فلـما وصـل إلى الفلاسـفة أخذتـه حماسـة الخصومـة. فقـد كلفتـه دراسـة الفلسـفة كثـيرا مـن الجهـد، ذلـك أنـه أقبـل عليهـا وهـو مبتـلى بالتدريـس والإفـادة ببغـداد، فـكان يختلـس مـن أوقـات فراغـه عـلى قلتهـا سـاعات يقـرأ فيهـا كتبهـم، فوجدهـم أنهـم موصوفـون بالكفـر مشـمولون بـه، عـلى اختـلاف أصنافهـم. أمـا علومهـم فهـي علـوم حسـية سـواء في ذلـك رياضياتهـم ومنطقياتهـم وطبيعياتهـم وإلهياتهـم. ولذلـك يجـب تحذيـر الكافـة مـن قـراءة كتبهـم والعمـل عـلى الـرد عليهـم وذكـر المحـدث أنـه ألـف مقاصـد الفلاسـفة وتهافـت الفلاسـفة ليثبـت بطـلان آرائهـم وسـقم تفكيرهـم.

وأمـا التعليميـون فلـم يهتـم بهـم كثـيرا، فهـم عـلى رأيـه، لا حاصـل عندهـم، واكتفـي بـأن أشـار عـلى مـن يريـد أن يعـرف بطـلان رأيهـم وزيفـه أن يقـرأ مـا كتبـه هـو ضدهـم مـن أمثـال المسـتظهري وحجـة الحـق والجـداول والقسـطاس المسـتقيم.

كان الجهد قد بلغ من محدثنا درجة كبيرة، فصمت دقيقة أو اثنتين كأنه يستعيد نشاطه، أو يراجع ذاكرته، ثم استأنف كلامه. وكأنه أحس أن المستمعين شعروا أنه بعد عن الآية. والحديث وتفسيرهما، فاستماحهم عذرا على الاطالة، وذكرهم أنه إنما يفسر عن شعور واختيار شخصي لا عن علم تقليدي، لكن الحاضرين لم يملوا لأن كلامه كان طليا عذبا، وكان يتدفق في حديثه كالسيل، ذلك لأنه يحدّث عما مر به ولا ينقل شيئا مما قاله السلف، ولو أنه صالح.

عاد إلى حديثه فقال: ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ووصف كيف أنه قرأ كتبهم واطلع على كنه مقاصدهم وحصل ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع وأدرك أنهم أرباب الأحوال أصحاب الأقوال، وأن الذوق والحال هو سبيلهم الى العلم. وأدرك الغزالي، على ما اعترف هو أن أسس الإيمان عنده ثلاثة حصل عليها بالشعور والحس وهي الايمان اليقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر.

وهنا أقبل الغزالي على الحاضرين يصف لهم كيف تصادمت في نفسه رغباته القلبية برغبات الدنيا، وكيف تشاد الزهد والحياة الناعمة في أعماق روحه، فهو يطمع في سعادة الآخرة ويعرف أن التقوى وكف النفس عن الهوى سبيلها ويدرك أن رأس ذلك كله التجافي عن دار

الغـرور والانابـة إلى دار الخلـود والإقبـال بكنـه الهمـة عـلى اللـه، وهـذا لا يتسـنى لـه إلا بالإعـراض عـن الجـاه والهـرب مـن الشـواغل والعوائـق. يعـرف هـذا كلـه ويدركـه لكنـه يلتفـت حولـه فـاذا بـه منغمـس في العلائـق، وإذا بأحسـن أعمالـه وهـو التدريـس يشـغل وقتـه فيـه بعلـوم غـير مهمـة ولا نافعـة في طريـق الآخـرة. بـل هـو يبحـث عـن نيتـه في عملـه فـإذا هـي غـير خالصـة بـل باعثهـا ومحركهـا طلـب الجـاه والشـهرة وانتشـار الصيـت وذيوعـه. فـإذا قابـل الرغبـة في سـعادة الآخـرة وطرقهـا بحالـه الواقعيـة رأى نفسـه عـلى شـفا جـرف هـار. ويخطـر لـه أن يخـرج مـن بغـداد ويعتـزل النـاس ويفـارق تلـك الأحـوال، ولكـن الدنيـا تغريـه فيقـدم رجـلا ويؤخـر أخـرى. فـإذا صدقـت رغبتـه في طلـب الآخـرة بكـرة حملـت عليهـا جنـد الشـهوة، عشـية، فتفـتر الهمـة. فكانـت شـهوات الدنيـا تجذبـه إلى المقـام ومنـادى الإيمـان يدعـوه إلى الرحيـل، وينعقـد منـه العـزم عـلى السـفر الطويـل، ليتخلـص مـن ريـاء علمـه وتخييـل عملـه، والشـيطان يهمـس في أذنيـه هـذه حـال عارضـة إيـاك أن تطاوعهـا، فإنهـا سريعـة الـزوال. فـان أذعنـت لهـا وتركـت هـذا الجـاه العريـض والشـأن المنظـوم الخـالي مـن التكديـر والتنغيـص والأمـن المسـلم الصـافي مـن منازعـة الخصـوم ربمـا التفتـت إليـه نفسـك ولا يتيـسر لـك المعـاودة.

وعـاد إلى الصمـت يسـتجمع قـواه، فقـد كانـت كلماتـه تخـرج مـن أعـماق نفسـه، وكأنهـا قطـع مـن قلبـه ودمـه. ذلـك أنهـا كانـت تصـوّر جهـاد نفسـه في سـبيل الحصـول عـلى هـذا النـور الـذي يقذفـه اللـه في قلـب المـرء. فلـما عـادت إليـه قوتـه عـاد إلى الحديـث فـروى كيـف دام هـذا التجـاذب في نفسـه بـين شـهوات الدنيـا ودواعـي الآخـرة سـتة أشـهر، وكان مـن نتيجتـه

أن أقفل على لسانه حتى اعتقل عن التدريس، فكان يجاهد نفسه أن يدرس يوما واحدا تطبيبا للقلوب المختلفة اليه، فكان لسانه لا ينطق بكلمة واحدة حتى أورثت عقلة لسانه حزنا في قلبه، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب. فلا هو يستسيغ الثريد ولا تنهضم له لقمة. عندها صح عزمه على الخروج من بغداد وسهل على قلبه الإعراض عن الجاه والمال والأولاد. ولكن أين يتجه؟ وماذا يقول للناس؟ فهو يريدها عزلة خالصة لله، دون أن يعرف الناس لها سببا. إن الشام بلد تصح فيه الوحدة والعزلة ولكن ليكن عذره أمام الناس أنه خارج إلى مكة، وفي نيته ألا يعود إلى بغداد أو طوس، قال الغزالي» ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال. ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدّة في مسجد دمشق فأغلق على نفسي باب المنارة، وها أنا هنا في بلدكم، أفعل مثل الذي فعلته بدمشق».

صمت المحدث مرة أخرى، وطال في هذه المرة صمته، حتى خشينا أن يكون قد انتهى، ونحن نريد أن نسمع منه بعد أشياء وأشياء. وكان الرجل قد أضناه الجهد الذي بذله في حكاية حاله، إذ استذكر مع الرواية ما كان قد مر به فعلا، وساد المكان سكوت عميق حتى كأن الناس على رؤوسهم الطير.

وخرج من أحد جوانب الإيوان الكبير صوت، رنان قال صاحبه (شوقتنا يا سبدي، ثم وقفت بنا في منتصف الطريق، فهلا أخبرتنا بربك ما أفدته من الصوفية). فأومأ الإمام الغزالي إيماءة من يطلب الصبر قليلا، ثم لم يلبث حتى عاد يتم قصته، وكان هذا الجزء منها لا يقل روعة عما سبق. فهذا الغزالي المتصوّف يعلم يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لقد زادنا الغزالي بقوله» لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة. وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

وإذن فقد وصل الغزالي في خلوته وتصوّفه إلى ما أراد، وشعر بالنور يقذف في قلبه، فأدرك الأمور إدراك ذوق وإيمان. بله العلم اليقيني، وجاءه ذلك من مجالسة الصوفية وسلوك سبلهم. ولكن وجه الطرافة في هذا الجزء من قصة الغزالي هو أن هموم الحياة لم تفارقه في هذه السنين، فحوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش كانت تغير في وجه المراد وتشوّش صفوة الخلوة. فلم يصف له الحال إلا في أوقات متفرقة، لكنه كان كلما دفعته العوائق عن الخلوة عاد إليها مجددا قوته

وما كاد الغزالي يصل هذا الحد حتى سأله سائل عما ينوى أن يفعله في حياته الباقية، بعد أن طلب إلى الله أن يمد فيها. فاغرورقت عينا الإمام بالدموع ثم مسحها وأجاب سائله إجابة طويلة عرض فيها لخطته المستقبلة أو ما يرجوه في حياته. فقد تحركت فيه داعية فريضة الحج، فهو يعتزم أن يزور رسول الله ويستمد من بركات مكة والمدينة. وقد يعرج على القاهرة والإسكندرية ليستمع من علمائها وفضلائها، وهو يحس بجاذب يدعوه إلى الوطن، وهو إن عاد، وقد يعود، فسيعنى بنشر العلم ولكن على غير ما كان يفعله ببغداد. فقد أفاد من خلوته كثيرا، فقد رأى فتور الاعتقادات في أصل النبوة ثم في حقيقة النبوة ثم في العمل بما شرحته النبوة. وعرف أن أسباب ذلك كله ترجع إلى أن المشرفين على التعليم بعيدون عن الذوق والفهم الصحيح. واعتزم لذلك أن يكشف هذه الشبهة ويفضح أولئك المتفلسفين والمتكلمين والمتوسمين من العلماء، فما يجوز لمن يعرف مثل معرفته أن يقبع في جحره ويخلو ويعتزل الناس وقد عتم الداء ومرض الأطباء، وإذن فالغزالي سيشتغل بكشف هذه الغمة ودعوة الخلق إلى الحق. إن النور الذي قذفه الله في قلبه سيحاول أن ينشره هو في قلوب الناس.

كانت الشمس قد آذنت بالمغيب وآن للناس أن يهرعوا إلى بيوتهم انتظارا لأذان المغرب. فما كاد ينتهي حتى أخذوا يخرجون زرافات ووحدانا وهم في تفكير عميق في هذا الذي سمعوا.

وطرق أذني دوى هائل، فذعرت وانتبهت، فإذا هو مدفع السحور وإذا

أنـا قـد غفـوت عـلى مكتبـي، ففتحـت عينـي فوقعتـا عـلى (القسـطاس المسـتقيم) (تهافـت الفلاسـفة) و(المنقـذ مـن الضـلال) للإمـام أبي حامـد الغـزالي.

العرب في جزر البحر المتوسِّط

•••

١- الفتوح

كانت فتوح العرب الأولى برية، وقد كان ذلك طبيعيا. فإن العرب خرجوا من الجزيرة فقابلتهم سوريا والعراق، فلما انتهوا منهما انتقلوا إلى ما والاهما من الأقطار. وكان عمر بن الخطاب يكره أن يفصل بينه وبين المحاربين ماء فلم يسمح لهم بخوض عباب البحر المتوسط إلى الجزر القريبة من شواطئ سوريا. فلما ولي الخلافة بعده عثمان بن عفان تغيرت الحال، فقد أذن لمعاوية بالمسير إلى قبرص. وكتب إليه في ذلك «لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه، فاستعمل معاوية على البحر عبد الله بن قيس الحارثي، فغزا قبرص سنة ٢٨ هـ. واحتلها وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار وعلى ألا يغزو العرب، وأن يؤذنوهم بعسير عدوهم من ورائهم.

وكانت غزوة قبرص فاتحة لسياسة الفتح البحرية، وساعد هذه السياسة على النمو بسرعة كبيرة واقعة ذات الصواري. ذلك أن ملك القسطنطينية جمع أسطولا كبيرا، يروى أنه كان في خمسمائة مركب، وسار يقصد مصر ليستردها. ولكن يقظة معاوية وحيطته كانتا قد دفعتاه إلى الاحتفاظ بما يجوز أن يسمى إمارة بحرية وعمارة تستطيع دفع الأذى؛ خرج معاوية بها وقد التقى بعبد الله بن أبي سرح والى مصر لعثمان بن عفان، وكان عبد الله عندها أمير البحر. فكانت ثمة وقعة بحرية كبيرة انتصر فيها العرب وردوا لمغيرين. وهذه المعركة

هـي الثـى أيقظـت في العـرب روح المخاطـرة البحريـة، ونبهتهـم إلى وجـوب الحيطـة في شرق البحـر الأبيـض المتوسـط، فاحتلـوا أو أتمـوا احتـلال جزيـرة رودس بـل لعلهـم غـزوا كريـت في هــذه الفـترة، ولكـن الغـزوة لم تنتـه بالفتـح المسـتقر.

ويرجـع الفضـل في إعـداد الوسـائل والمعـدات للسياسـة البحريـة العربيـة ويرجـع إلى الأمـير حسـان بـن النعـمان وزيـر الدولـة الأمويـة. ذلـك أنـه بعـد أن دان شـمال أفريقيـا بالطاعـة للعـرب، أنشـأ حسـان بفنـاء قرطاجنـة دار الصناعـة لبنـاء السـفن والأسـاطيل وصنـع الأسـلحة وجلـب لهـا الصنـاع مـن مـصر، وسـار عـلى منهاجـه طـارق بـن زيـاد لمـا ولى المغـرب. ولمـا تـم للعـرب ملـك الأندلـس أنشـأ أمراؤهـا دور الصناعـة في طراكونـة وأشـبيلية وألمريـة، فـكان لهـم مـن ذلـك أسـاطيل قويـة تنشـأ في أفريقيـا والأندلـس، فتعرضـت جـزر البحـر المتوسـط وشـواطئ إيطاليـا وجنـوب فرنسـا لغزواتهـا مـدة طويلـة مـن الزمـان.

واحتـلال العـرب الجـزر البحـر المتوسـط واتخاذهـا مراكـز للغـزو يكـون فصـولا مـن أمتـع مـا عـرف مـن تاريـخ المغامـرات البحريـة، وقـد نبـغ في تلـك العصـور مجموعـة مـن أمـراء البحـر العـرب كان لهـم شـأن في تقريـر السياسـة البحريـة وتعيـين طـرق المراكـب التجاريـة. ولا شـك أن في مقدمتهـم المفـرح بـن سـلام وليـون الطرابلـسي، وهـما يجـب أن يوضعـا في صـف خـير الديـن بربروسـا وفرنسـيس دريـك ومـن شـاكلهما.

وقـد أشرنـا قبـلا إلى أن كريـت تعرّضـت لغـزو العـرب في دور الفتـوح الأول. لكـن فتـح هـذه الجزيـرة تأخـر حتـى أوائـل القـرن الثـاني للهجـرة (التاسـع

للميلاد). وتم على أيدي جماعة من الأندلس، وحكاية هذه الجماعة طريفة. ذلك أن ثورة قامت في قرطبة ضد الحكم، أميرها، فقام الحكم بإخمادها وفرق الثوار ثم أمر من بقي منهم، وهم كثرة، بالخروج من الأندلس. فانصرف بعضهم إلى فارس واتجهت جماعة إلى الاسكندرية فتغلبت عليها، وكان عددهم، فيما روى الراوون، خمسة عشر ألفا. ثم جاءهم والى المأمون على مصر فغلبهم وأخرجهم وزودهم بالسفن والعتاد ووجههم إلى كريت، وعلى رأسهم زعيمهم أبو حفص عمر البلوطي. فلما وصلت سفنهم إلى كريت ونزل القوم، أمر أبو حفص بالسفن فأحرقت فاشتد الجند في أمر الحرب فاحتلوا الجزيرة. وظلت كريت في أيدي العرب وتولاها أبناء أبي حفص وأحفاده حتى أواسط القرن الرابع للهجرة أي أن حكمهم لها دام مائة وثلاثين سنة. وكان العرب قد حفروا خندقا يتسترون فيه، فلما احتلوا الجزيرة قامت هناك مدينة سميت الخندق، وهي مدينة قنديا الحالية.

وكان البيزنطيون يحاولون المرة بعد المرة أن يستردوا الجزيرة من العرب ولكن محاولاتهم فشلت، حتى كانت حملة نيقفور فوكاس سنة ٩٦١ م، فأناخ عليها باثنين وسبعين ألف محارب بينهم خمسة آلاف فارس فحاصر قنديا واشتد في حصارها حتى فتحها عنوة بالحرب والجوع، فقتل ونهب وسبى وحمل صاحبها عبد العزيز، من ولد البلوطي، إلى القسطنطينية ثم هدم حجارة المدينة وألقاها في الميناء لئلا يدخل فيه بعدهم عدو. وبذلك انتهت سيادة العرب على هذه الجزيرة، لكنهم ظلوا يهاجمونها بعد ذلك كثيرا.

وأما مالطة فقد غزاها ابن الأغلب صاحب أفريقيا حول الوقت الذي احتل فيه العرب كريت. لكن هذه الغزوة وغزوات أخرى تلتها، لم تزد عن كونها محاولات. أما الفتح فقد تم في أواسط القرن الثالث، وتم على يد الأسطول الأغلبي ولذلك ألحقت بولاية أفريقيا. وكان أمير البحر عندها خفاجة فقلده الأغالبة على إيطاليا أيضا. ومن مالطة كانت تخرج سفن الغزو العربية إلى بروفانس وإيطاليا وما إليهما. وقد جرت قرب مالطة معركة كبيرة بين الأسطول العربي والاسطول البيزنطي انتصر فيها الأخير. لكن هذا الانتصار لم يكن كافيا لإخراج العرب من مالطة، ذلك لأن الأسطول العربي انتصر على محاولات البيزنطيين الأخرى وتعقب أسطولهم سنة ٢٧٥ فأزاحه عن غرب البحر المتوسط وفتح للعرب سبيل السيطرة على شواطئه فضلا عن جزره الغربية.

وظلت مالطة تابعة للعرب حتى سنة ١٠٩٠ وقد انتزعها منهم النورمانيون الذين كانوا قد ظهروا آنئذ على مسرح السياسة والحرب في البحر المتوسط. لكن ظل فيها من العرب كثيرون. وكان العرب لما احتلوا الجزيرة قد عاملوا الأهلين بالرفق والمباشرة وقرروا سنتهم وأحكامهم وامتزجوا بهم للغاية حتى كأنّ العنصرين عنصر واحد، ولذلك تركوا في لغة الجزيرة وعادات أهلها وآدابهم الشيء الكثير.

وقد اتجهت أنظار العرب نحو بقية الجزر الغربية في وقت مبكر من انتشار سلطانهم في البحر المتوسط. فإن الرواية العربية تذكر أن صقلية نفسها قد هو جمت حتى في خلافة عثمان، وأن معاوية بن أبي

سـفيان كان صاحـب الفكـرة، غزاهـا الفـزاري أيـام خلافـة معاويـة نفسـه. ولمـا صـارت تونـس ولايـة لهـا شـبه اسـتقلال ذاتي صـارت صقليـة قبلـة نظـر واليهـا. وقـد وجـه إليهـا الفهـري، فغزاهـا وغـزا سردينيـة سـنة ١٣٠ للهجـرة. ثـم اشـترك بحـارو الأندلـس في غـزو سردينيـة وكورسـيكا واكتسـحوا الجزيـرة الأخـيرة، فبعـث إليهـم شـارلمان بأسـطول قـوى فانسـحبوا خشـية منـه، لكـن لمـا اشـتبكوا قـرب سردينيـة تـم النـصر للعـرب. ومـع أنهـم لم يحتلـوا هاتـين الجزيرتـين نهائيـا فقـد أكـثروا مـن الـتردّد عليهـما بحيـث أنهـما لم تسـتريحا إلا قليـلا. وقـد أسر العـرب في إحـدى غزواتهـم سـتين رجـلا مـن أهـل كورسـيكا وبلـغ خبرهـم شـارلمان ففكهـم مـن الأسر بفديـة أداهـا عنهـم

وقـد احتفـظ التاريـخ للأغالبـة بفتـح صقليـة. فـان زيـادة اللـه بـن الأغلـب بعـث سـنة ٢١٢ للهجـرة قائـده ووزيـره أسـد بـن الفـرات عـلى رأس عـمارة بحريـة قوامهـا أربعمائـة سـفينة وثلاثـون ألـف مقاتـل. وكانـت بلـرم المقصـد الأول فحاصرهـا ابـن الفـرات خمـس سـنين وفتحهـا. وكتـب زيـادة اللـه إلى المأمـون يبـشره بالفتـح. ثـم تابـع الأغالبـة والعباسـيون حملاتهـم حتـى وقعـت الجزيـرة كلهـا بأيـدي العـرب.

وكانـت البندقيـة في ذلـك الوقـت قـد بـدأت حياتهـا التجاريـة في البحـر المتوسـط، فخـشي البنادقـة عـلى تجارتهـم ودفعهـم إمبراطـور الـروم ثيوفيـل إلى حــرب العــرب، فجهــزوا أســطولا مؤلفــا مــن ســتين مركبــا أقلــع إلى صقليـة والتقـى بالأسـطول العـربي شرقـي الجزيـرة فمـزق أسـطول البنادقـة شر ممــزق وهلــك معظــم رجالــه. وانتقــل الأســطول العــربي إلى البحــر

الادرياتيـكي فـسرح في أنحائـه وأغـار عـلى شـواطئه وعـاد بغنائـم كثـيرة مـن السـفن.

واطـمأن أهـل صقليـة لحكـم العـرب، فتعلمـوا اللغـة العربيـة ودان معظمهـم بالإسـلام. وكان مـن مشـاهير أمرائهـا بنـو أبي الحسـن الكلبيـين وقـد امتـدت إمارتهـم زمانـا طويـلا. والظاهـر أن صقليـة تبعـت في القـرن الخامـس لمـصر، ولمـا تأخـر والى صقليـة البعبـاع عـن دفـع المـال طالبـه صاحـب مـصر فعجـز، وكان النورمانيـون قـد ظهـروا في البحـر المتوسـط كـما أشرنـا، وكان البعبـاع عـلى خـلاف مـع بقيـة الأمـراء، فاغتنـم الفرصـة وأعـان النورمـان عـلى نفسـه. فتقـدم روجـر بجيشـه وسـفنه فاسـتولى عـلى الأجـزاء الشرقيـة مـن الجزيـرة، فأخـذ أهلهـا بمفارقتهـا. فخـرج جماعـة إلى المعـز بـن باديـس بأفريقيـة. واسـتمر رو جـر يحـارب أهـل صقليـة ثلاثـين سـنة حتـى تـم لـه فتحهـا حـول الوقـت الـذي تـم فيـه فتـح مالطـة.

وهكـذا نـرى أن ظهـور النورمـان المتحديـن في البحـر المتوسـط كان السـبب المبـاشر لانسـحاب العـرب مـن جـزره. وقـد أعـان العـرب خصومهـم عليهـم لأن بعـض الخـلاف قـد دب بينهـم. عـلى أنـه في الفـترة التـي كان العـرب فيها سـادة الميـاه الغربيـة مـن البحـر، اتخـذوا مـن هـذه القواعـد البحريـة مراكـز للهجـوم عـلى شـواطئ أوروبـا ومدنهـا. فكانـت ثغـور إيطاليـا وبيزنطيـة وشـواطئ الأدرياتيـكي معرضـة لهـم في كل سـنة. وكثـير مـن التحصينـات التـي تشـاهد عـلى تلـك الشـواطئ ترجـع إلى ذلـك العهـد. فحصـن ضاحيـة الفاتيـكان أقامـه البابـا ليـو الرابـع بعـد إحـدى الغـارات القويـة.

ولعـل الغـارة البحريـة التـي تسـتحق الذكـر بهـذه المناسـبة هـي غـزو

العرب لرومة. كانت هذه الغزوة ٨٤٦ للميلاد و٢٣١ للهجرة. فسارت حملة كبيرة من صقلية متجهة شمالا محاذية للشاطئ الإيطالي فهاجمت ثغوره ونهبت موانئه وحاصرت بعضها ثم رست عند مصب التيبر. ومن هناك انقض البحارة العرب على الحي الذي لم تكن أسوار رومة تشمله، وضربوا الحصار على العاصمة القديمة. وكان من أثر ذلك أن ارتاع السكان واضطرب أهل رومة. واهتم الإمبراطور الأمر فبعث حملة من جنده وجهزت الثغور الإيطالية مثل أمالفي ونابولي وعنيثا حملة بحرية لمقاتلة الغازين. واقتتل العرب مع جند الامبراطور قتالا شديدا، لكن خلافا دب فيما بينهم، فرفعوا الحصار رومة، وبذلك وقفوا دون فتح المدينة الخالدة.

وعاد العرب مرة ثانية إلى غزو رومة بعد ذلك بنحو خمس وعشرين سنة، وفي هذه المرة كانت الحملة منظمة: فالظاهر أن الأغالبة أشرفوا على تجهيزها، واتخذت جزيرة سردينية مكانا للاجتماع وقاعدة للهجوم. والتقى الأسطول العربي وأسطول المدن الإيطالية عند مصب التيبر. لكن العواصف حالت دون اشتباك قوي، مع أن العمارة العربية كانت تستطيع التغلب على مناظرتها بسهولة.

ولبث العرب زمنا طويلا يهددون المدينة الخالدة حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يفاوضهم في الجلاء على أن يدفع لهم جزية مقدارها خمسة وعشرون ألف مثقال من الذهب.

وما دمنا بمعرض التحدث عن العرب ومغامراتهم في جزر البحر المتوسط فلنشر إلى إحدى غزوات ليون الطرابلسي أحد كبار أمراء البحر العرب.

لقـد كانـت لـه غـزوات كثـيرة، لكـن أكبرهـا تلـك التـي قـام بهـا في سـنة ٩٠٤ للميـلاد ٢٩٢ للهجـرة. خـرج مـن طرسـوس عـلى رأس عمارتـه وفيهـا مـا يزيـد عـن خمسـين مركبـا، ومعـه عـشرة آلاف جنـدي قاصـدا سـلانيك، وكانـت هـذه مـن أمنـع الثغـور البيزنطيـة وأغناهـا. وكانـت أسـوارها قـد تقوضـت لكـن الدفـاع عنهـا متيـسر. لكـن لا الحاميـة الأصليـة ولا العـمارة التـي جـاءت للمدافعـة عـن المدينـة ولا مهـارة القـواد أسـلمت المدينـة مـن الطرابلـسي. فمـع أن الخليـج مـليء بالحجـارة، فقـد تقـدم بسـفنه وعليهـا أبـراج ضخمـة مملـوءة بالرجـال، حتـى صـار أعـلى مـن الأسـوار وعندهـا هبـط رجالـه عـلى المدينـة واسـتولوا عليهـا. وبعـد ذلـك عـاد متجنبـا لقـاء الأسـطول البيزنطـي حتـى وصـل طرسـوس التـي كانـت قاعـدة لاسـتبدال الأسرى بـين العـرب والبيزنطيـين، فتبـادل القـوم أسراهـم، إلا مـن قـدر لـه ألا يفتـدى.

هـذه صفحـات مـن مغامـرات العـرب البحريـة فيهـا الغـزو الموقـت وفيهـا الفتـح المسـتقر، وقـد كان عندهـا العـرب عـلى حـد تعبـير ابـن خلـدون «وقـد غلبـوا عـلى هـذا البحـر وعظمـت صولتهـم وسـلطانهم فيـه فلـم يكـن لخصومهـم قبـل بأسـاطيلهم بـشيء مـن جوانبـه، وامتطـوا ظهـره للفتـح سـائر أيامهـم. فكانـت المقامـات المعلومـات مـن الفتـح والغنائـم وملكـوا سـائر الجزائـر المنقطعـة عـن السـواحل فيـه مثـل ميورقـة ومنورقـة وسردينيـا وصقليـة ومالطـة وأقـر يطـش (أي كريـت) وقـبرص، فسـارت فيـه أسـاطيلهم جائيـة ذاهبـة وقـد مـلأت الأكـثر مـن بسـيط هـذا البحـر عـدة وعـددا واختلفـت في طرقـه سـلما وحربـا».

٢ - العمران

إن العـرب، أيـام كانـت لهـم دولـة وسـلطان، اسـتولوا عـلى جـزر البحـر المتوسـط جميعهـا. لكـن مـدة حكمهـم لهـا لم تكـن واحـدة في جميـع الجزائـر. ولعـل جزيـرتي مالطـة وصقليـة نالهـا أطـول المـدة، هـذا باسـتثناء قـبرص وأرواد. وقـد يكـون لوجـود دولـة الأغالبـة في شـمال أفريقيـة ومـن تلاهـم مـن حـكام تونـس تأثـير كبـير في ذلـك.

أمـا آثـار العـرب في مالطـة فيدخـل في عدادهـا الألفـاظ العربيـة الكثـيرة الموجـودة في اللغـة المالطيـة وأسـماء البـلاد في الجزيـرة ونقـوش كثـيرة وقطـع مـن المسـكوكات العربيـة. وممـا يلفـت النظـر أنـه لم يظهـر في مالطـة كثـير مـن العلـماء عـلى نحـو مـا نعـرف عـن غيرهـا مـن ديـار العـرب، ومـع ذلـك فنحـن نجـد عالمـا اسـمه المالطـي كان أحـد الذيـن نقـل عنهـم ياقـوت الحمـوي.

لكـن الجزيـرة التـي اسـتبحر فيهـا عمـران العـرب هـي صقليـة. وقـد كانـت حضـارة العـرب فيهـا أحـد الأسـس التـي بانتقالهـا إلى أوروبـا عملـت عـلى بعـث الحيـاة الفكريـة فيهـا، مـن رقادهـا الطويـل في أيـام النهضـة.

لمـا احتـل العـرب صقليـة كانـت مدينتهـم في الـشرق وفي الغـرب في دور نضجهـا وإيناعهـا، فحملـوا معهـم إلى الجزيـرة ثمـار جهدهـم في الـشرق ونتـاج نشـاطهم في الغـرب. ومـن ثـم كانـت مدنيـة صقليـة منوعـة قويـة نشـيطة وكان مـدى تأثيرهـا في أوروبـا بعيـدا، ومقدرتهـا عـلى الاسـتمرار في الجزيـرة نفسـها كبـيرة.

عـاش الرعايـا المغلوبـون في صقليـة أيـام حكامهـا العـرب في راحـة وسرور ونعمـوا بأمـن واطمئنـان. وتـرك الفاتحـون لأهـل الجزيـرة عاداتهـم وأنظمتهـم وحريتهـم الدينيـة وجمعـوا منهـا جبايـة قليلـة، وأعفـوا منهـا الرهبـان والنسـاء والأولاد وسـمحوا بالإبقـاء عـلى الكنائـس جميعهـا.

عـلى أن المظهـر الكبـير لعمـران صقليـة أيـام العـرب هـو نشـاطها الاقتصـادي الكبـير. فـان العـرب أحيـوا زراعـة الجزيـرة واعتنـوا بصناعتهـا فأدخلـوا إليهـا أصنافـا جديـدة مـن الغـلات الزراعيـة كالـبردى، وكانـت لهـم مصانـع للـورق، ومنهـا انتـشرت هـذه الصناعـة في إيطاليـا.

وكانـت مناجـم الذهـب والفضـة والشـب والكحـل والـزاج والحديـد والرصـاص قـد أهملـت فأحيـا العـرب ميتهـا. ومـن المرجـح أن العـرب هـم الذيـن علمـوا أهلهـا صناعـة الحريـر. وقـد كانـوا يحلونـه بنقـوش جميلـة بالخـط الكـوفي وقـد انتـشرت هـذه الصناعـة مـن صقليـة حتـى بلغـت أواسـط أوربـا، عـلى مـا يبـدو مـن رداء حريـري محفـوظ في إحـدى مـدن أوروبـا الكـبرى وكانـت صقليـة تصـدر إلى أوربـا في تلـك العصـور الأقمشـة المحـلاة بالجواهـر والطنافـس وعليهـا أنـواع الصـور والجلـد المدبـوغ. وكانـت قصـور ملـوك أوربـا تتنافـس في اقتنـاء الحـلى البديعـة التـي تنتجهـا مصانـع بلـرم.

لقـد كان في أواخـر عهـد العـرب في صقليـة مائـة وثلاثـون بلـدا بـين مدينـة وقلعـة غـير المنـازل والضيـاع والبقـاع. وقـد كان عـدد سـكان بلـرم لمـا دخلهـا العـرب ثلاثـة آلاف نسـمة فلـم تلبـث حتـى ازدحمـت بالسـكان. ومـما

عليـه المؤرخـون أن نصـف سـكان الجزيـرة كان في القـرن الحـادي عـشر للميـلاد مـن العـرب، والنصـف الآخـر مـن اليونـان.

وكانـت أبنيـة الجزيـرة، عـلى مـا اسـتخلصه المـؤرخ الفرنـسي شـارل ديـل، مليئـة مظاهـر الفـن العـربي الغربيـة: مـن القناطـر العاليـة الجميلـة والمقرنصـات والقاشـاني الجميـل والفسيفسـاء المعمولـة مـن الرخـام الملـون، والصـور الجميلـة

وقـد زار ابـن حوقـل الرحالـة الجغـرافي جزيـرة صقليـة سـنة ٣٦٢ للهجـرة وقـضى فيهـا مـدة فوصفهـا في كتابـه «وصـف الأرض» وصفـا شـائقا نقتطـف بعضـه في هـذا الفصـل، وقيمتـه ترجـع إلى أنـه كلام شـاهد عيـان.

«صقليـة جزيـرة عـلى شـكل مثلـث طولهـا سـبعة أيـام وعرضهـا أربعـة. والغالـب عليهـا الجبـال والقـلاع والحصـون وأكـثر أرضهـا مسـكونة مزروعـة، ومدنهـا كثـيرة ولكـن أكبرهـا بلـرم. وحيـث تسـيل ميـاه العيـون توجـد أراض كثـيرة تغلـب عليهـا السـباخ وآجـام فيهـا قصـب فارسـى وبحائـر ومقـان صالحـة. وفي خـلال أراضيهـا بقـاع قـد غلـب عليهـا الـبردي المعمـول منـه الطوامـير وأكـثره يفتـل حبـالا لمـراسي المراكـب

وصقليـة جزيـرة خصيبـة أرضهـا غنيـة مواردهـا. فهنـاك التجـارة البحريـة ومـا يصـل منهـا إلى السـلطان ولـه هديـة سـنوية عـلى أهـل كلبريـة. وأهـل صقليـة قليلـة مؤنهـم ونـزرة نفقاتهـم كثـيرة غلاتهـم ومـع ذلـك فقـل فيهـم رجـل ملـك بـدرة عـين. ذلـك لأن ثـروة الجزيـرة موزعـة عـلى سـكانها. وأكـبر فلاتهـا القمـح والصـوف والشـعر والخمـر وثيـاب الكتـان. وهـذه لا نظـير

لها جـودة ورخصـا. أمـا جميـع مـا تقـع إليـه الـضرورات وتدفـع الحاجـة إليـه مـن سـائر الطلبـات مجلـوب إلى بلدهـم. ومحمـول إلى جزيرتهـم.

وبلـرم هـي المدينـة الكـبرى في الجزيـرة وعليهـا سـور عظيـم مـن حجـارة شـامخ منيـع يسـكنها التجـار وفيهـا المسـجد الجامـع الأكـبر وقـد صـلى فيـه في يـوم جمعـه قرابـة سـبعة آلاف مصـل. وللمدينـة هـذه تسـعة أبـواب. وشـكل المدينـة مسـتطيل وسـوقها مثلهـا مسـتطيل يمتـد مـن شرقهـا إلى غربهـا يعـرف بالسـماط مفـروش بالحجـارة عامـر مـن أوّلـه إلى آخـره بـضروب التجـارة. عـلى أنـه بمـرور الزمـن نمـت حـول بلـرم أربـع حـارات كبـيرة، حتـى كأن كل واحـدة منهـا مدينـة بنفسـها وهـذه الحـارات الأربـع هـي الخالصـة وحـارة الصقالبـة وحـارة المسـجد والحـارة الجديـدة.

أمـا الخالصـة فيسـكنها السـلطان وأتباعـه وفيهـا حمامـان ولا أسـواق فيهـا ولا فنـادق وفيهـا مسـجد جامـع صغـير مقتصـد بهـا جيـش السـلطان ودار صناعـة للبحـر وللديـوان. فـكأن الخالصـة كانـت القـصر السـلطاني والضاحيـة الادارية لمدينـة بلـرم التـي هـي عاصمـة الجزيـرة.

أمـا حـارة الصقالبـة فيهـا مـرسى البحـر فكأنهـا مينـاء للمدينـة. والحارتـان الباقيتـان هـما حـارة المسـجد والحـارة الجديـدة. الأخـيرة بهـا أسـواق البلـد الكبـيرة فهنـاك سـوق الزياتـين بأجمعهـم والدقاقـين والصيارفـة والحداديـن والصياقلـة والقمـح والطـراز والسـمك أسـواقها هنـاك أيضـا. وإنـك واجـد باعـة البقـل وأصحـاب الفاكهـة والريحانيـين وطائفـة مـن العطاريـن. وقـد يوجـد مـن حوانيـت القصابـين وحدهـا قرابـة مئتـي حانـوت. عـلى أن المدينـة كثـيرة الأسـواق الصالحـة بالإضافـة إلى مـا ذكـر.

وتمتـاز بلـرم وضواحيهـا بكـثرة المسـاجد. ففيهـا نحـو ثلاثمائـة مسـجد. وقـد تـرى عـشرة مسـاجد في أقـل مـن رميـة السـهم. ويعلـل ابـن حوقـل ذلـك برغبـة السـكان في أن يكـون لـكل منهـم مسـجد مقصـور عليـه لا يشركـه فيـه غـير أهلـه وغاشـيته. وقـد تتلاصـق داران لأخويـن ويكـون لـكل دار مسـجدها الخـاص.

ويشـيد ابـن حوقـل بكـثرة الرباطـات في بلـرم نفسـها وصقليـة؛ لكنـه لا يكتـم اسـتغلال بعـض المرتزقـة لهـذه الرباطـات بحيـث يتخذونهـا وسـيلة للاسـتجداء. وهـذا شـأن النـاس في كل مـكان.

ومـما لاحظـه ابـن حوقـل عـلى أهـل بلـرم أنـه يكـثر فيهـم المعلمـون وتكـثر في بلدتهـم المكاتـب. فثمـة قرابـة ثلاثمائـة معلـم. وقـد لفـت ذلـك نظـر الرحالـة فاسـتقصى أخبارهـم وعـرف أنهـم إنمـا يكـثرون لأنهـم يفـرون مـن الغـزو ويرغبـون عـن الجهـاد. لكـن لمـا انتبـه أصحـاب الشـأن إلى ذلـك ألغـوا مـا كان للمعلمـين مـن امتيـاز. وكان المسـجد الزهـري بالسـماط أكـبر مكاتـب المدينـة وكان المعلـم فيـه محمـد بـن عيـسى بـن مطـر وهـو ممـن رحـل وشرق في سـبيل التعلـم وكتـب الحديـث.

وقـد أخـذ ابـن حوقـل عـلى فقـراء بلـرم مآخـذ كثـيرة ذكرهـا عـلى مـا قـال في كتـاب سـماه محاسـن جزيـرة صقليـة. هـذا وقـد ظهـر بصقليـة عـدد كبـير مـن مشـاهير الرجـال الذيـن لمعـت أسـماؤهم في سـماء العلـم والأدب والفنـون. وفي مقدمتهـم أسـد بـن الفـرات فاتـح صقليـة للأغالبـة والقـاضي ميمـون بـن عمـر الإدريـسي الجغـرافي العـالم وقـد روى أن صقليـة أخرجـت مائـة وسـبعين شـاعرا وهنـاك مـن نبـغ بالهندسـة والنجـوم مثـل ابـن سـابق

وابـن عبـد المنعـم ومـن اشـتهر بالطـب كابـن إبراهيـم صاحـب المنجـح في التـداوى ومـن عـرف بالفلسـفة كأبي عبـد اللـه الصقـلي. وهنـاك عـدد كبـير منهـم معروفـون باسـم المـدن التـي ظهـروا فيهـا مثـل الشـافي والسرقوسـس والمـازري والطرابنسـتي.

ولعـل خـير مـا نختـم بـه حديثنـا عـن أيـام العــــرب بصقليـة هـو ابـن حمديـس الشـاعر. ولـد سـنة ٤٤٧هــ (١٠٥٥م) في سرقوسـة. وكان يـرى في صبـاه مضايقـة النورمـان للعـرب في جزيـرتي صقليـة ومالطـة وكان ذلـك يحـز في نفسـه؛ فلـما أن للعـرب أن يخـرج سـلطانهم عـن الجزيـرة وغلبهـم عليهـا النورمـان خـرج ابـن حمديـس مـن صقليـة مـع الذيـن نزحـوا عنهـا، فقصـد المعتمـد بـن عبـاد صاحـب أشـبيلية فاسـتقر عنـده، ورافقـه فيـما بعـد في سـجنه بمراكـش ولا بـن حمديـس شـعر كثـير مجمـوع في ديـوان مطبـوع فمـن قولـه مثـلا يصـف الأسـطول:

والأساطيل في الزّواخر يرمي

بلـد الرّوم غزوها بالدَّمار

يابسـات العيدان تثمر بالغيد

إذا أورقت بيض الشفار

راعفـات القنا تلون فيها

عذبـات كمثل مصحف قاري

ومن شـعره قوله في الغزل:

ملني من لا أملّه

وأذاب القلب دله

رشأ ينفر خوفًا

كلّما ماشاه ظلّه

يا عليل الطّرف جسـمي

نظرة منك تعله

يا غزالًا حرم اللـ

ه دمي وهو يحله

إنَّما الحسن محل

لك أو أنت محلّه

بعضه في أوجه النَّـ

اس وفي وجه كله

وبعـد أن جـلا ابن حمديس عـن صقلية بمدة طويلة تذكرها، فقال:

ذكرت صقلية والأسى

يهيج للنفس تذكارها

فـإن كنت أخرجت من جنة

فإنّي أحدّث أخبارها

ولـولا ملوحة ماء البكاء

حسبت دموعي أنهارها

ضحكـت ابن عشرين من صبوة

بكيت ابن ستّين أوزارها

ولابـن حمديـس الحقّ في أن يذكر وطنه، فأيّ النّاس لا يذكر؟!

٣ - بـلاط روجر الصقلي

في أواخـر القـرن الحـادي عـشر للميـلاد والخامـس للهجـرة احتـل روجر الأول صقليـة وانتزعهـا مـن أيـدي العـرب، بعـد حـروب دامـت نحـو الثلاثـين سـنة. وقـضى بعـد ذلـك نحـو عـشر سـنوات مـن حياتـه في إدارة الجزيـرة كان فيهـا كثـير مـن جنـوده مـن العـرب واحتفـظ أثناءهـا في بلاطـه بعـدد مـن الفلاسـفة العـرب وسـمح للمسـلمين أن يحافظـوا عـلى شـعائرهم الدينيـة. بـل إنـه احتفـظ بعـدد كبـير مـن العـرب في المناصـب العاليـة.

وهـذه الخطـة التـي انتهجهـا رو جـر الفاتـح سـار عليهـا ابنـه روجـر الثـاني لمـا ولى شـؤون الجزيـرة. فقـد طـال حكمـه بحيـث امتـد نصـف قـرن تقريبـا، لكنـه كان في طفولتـه لمـا ورث عـرش أبيـه. فلـما بلـغ أشـده وتـولى شـؤون الدولـة عمليـا اهتـم بضـم جنـوب إيطاليـا إلى دوقيتـه ثـم تـوج ملـكا وأنشـأ مملكـة صقليـة. وكان أوّل مـا فعلـه لتنظيـم أمـور الدولـة هـو أنـه منـع النبـلاء في أنحـاء مملكتـه مـن شـن الحـروب ضـد بعضهـم البعـض وأعلـن أن السـبل يجـب أن تظـل آمنـة مطمئنـة واحتفـظ لنفسـه بالنظـر

نهائيا في القضايا الجنائية، والخلاصة فإنه أوجد ما يمكن أن يسمى حكومة مركزية قوية.

وكان من نتائج هذا الحكم القوى وتوحيد صقلية مع جنوب إيطاليا أن أصبحت مملكة روجر وخلفائه من بعده غنية. فقد كانت موانئها - في إيطاليا وفي صقلية - مثل سالرنو وبلرمو مراكز للسفن الحاملة غلات أوربا لتتبادل بها مع منتوجات الشرق. كانت سفن البنادقة والجنويين والبيزيين تلجأ إلى الموانئ الصقلية في غدوها ورواحها. وكانت تجارة أفريقيا إلى أوروبا تمر بها ومثلها كانت التجارة الإسبانية إلى المشرق. وكان ملك صقلية يفرض على كل هذه المتاجر الضرائب والجمارك التي كان التجار يدفعونها راضين، لتمتلئ بها خزانة الملك، فينفقها هو بدوره على تجميل عاصمته وفي سبيل فخامة بلاطه.

على أنه يترتب علينا أن نذكر أن استغلال موارد الثروة في الجزيرة نفسها سار على قدم وساق أيام روجر وخلفائه، بحيث لم تقل الموارد الداخلية عن الموارد الخارجية من التجارة. فقد عدن الحديد حول مسينا واستخرج الكبريت حول جبل إثنا. ومثل ذلك يقال عن الملح والفخار البلرمي كان آنئذ شهيرا وكان يزخرف بنقوش عربية. واشتهرت البلاد بصنع الحلى من الذهب والفضة بحيث كانت أوربا كلها تبتاع قصورها مما تنتجه صقلية. أما في صنع الأواني الزجاجية فقد تفوّق الصناع الصقليون على كل من اشتغل بهذه الصناعة في الغرب، بما في ذلك صناع البندقية

وبحكم الحرية التي أطلقت لجميع السكان أيام حكم روجر وخلفائه فقد استمر العرب في أعمالهم التي كانوا قد بزوا فيها غيرهم، مثل العناية بالبردي واستغلاله في صنع الورق والحبال. ويرجح أن إدخال تربية الحرير إلى صقلية يرجع الفضل فيه إليهم.

ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نشير إلى مسألة على غاية الأهمية في تاريخ صقلية في هذه الفترة فأيام روجر الثاني كانت أيام الحملات الصليبية، وقد جردت أوروبا حملتين قبل منتصف القرن الثاني عشر، أي قبل وفاته. لكن روجر رفض أن يشترك في حملات الشرق أو في الهجوم على القيروان. فنحن نعرف أنه لما فكر بلدوين ملك القدس في أن يجرد حملة تنموم باحتلال القيروان ليفصل عرب الغرب عن عرب المشرق كتب إلى روجر يستعديه. لكن روجر أجاب بأن حملة كهذه لم تكن في مصلحة مملكته. فإذا ما احتل الأوربيون شمال افريقيا استولوا على تجارته. وقطعوها عن صقلية، وإذا ما فشلت محاولتهم عادوا إلى صقلية ليقيموا فيها. وفي كلتا الحالتين تكون مصالح صقلية التجارية معرضة للخطر.

لكن سياسة روجر الخارجية كانت ترمى إلى الهجوم على بيزنطية. ومع أنه لم يصل إلى القسطنطينية نفسها فقد قام بهجوم عنيف على بلاد اليونان كان من جرائه أنه تقريبا دمر مدينتي كورنت وطيبة

والصفة البارزة للإدارة الصقلية في عهد روجر الثاني وخلفائه وليم الأوّل والثاني وفردرك الثاني هي أنها كانت فيها عناصر عربية وأخرى يونانية

بيزنطية وثالثة نورمانية. فألقاب القائمين بشؤون الدولة وعادات البلاط مأخوذة من العناصر الثلاثة. كان المجلس الملكي محكمة استئناف عليا لكن كان هناك مجلس خاص يرجع إليه في الناحية الإدارية التنفيذية وكان في مقدمة أعضاء المجلس الخاص موظف لقبه أمير الأمراء، والتسمية واضحة الأصل العربي، وكان هذا مسؤولا عن القضاء وعن الشؤون البحرية. ولما كان جورج الأنطاكي يشغل هذه الوظيفة فإنه كان يقوم بعمل كبير الوزراء. وبعده كان يأتي المستشار وهو المسؤول عن الشؤون العسكرية. وتجد أنواعا متفاوتة من أصحاب الوظائف بينهم القضاة. وكل موظف كان

على رأس ديوان وله حدود معلومة. وكلمة ديوان مأخوذة من العرب.

ولعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن النظام المالي ونظام الأرض اللذين كانا متبعين في صقلية أيام روجر من أصل عربي وبيزنطي. فإنه احتفظ بما كان قد عمل به العرب من نظام الأرضين، من حيث المساحة وإقطاع الأرض. فالقيود الرسمية التي كانت قد بقيت من أيام العرب نسج على منوالها. وبعض قيوده كانت مكتوبة بالعربية. ومثل هذا يقال بشأن الخزينة. فقد كانت عربية أصلا، وكان بعض كبار موظفيها من العرب.

وحري بالذكر بهذه المناسبة أن إدارة الخزينة في انكلترا وفرنسا في العصور الوسطى شبيه بما عرف في صقلية النورمانية. ومعنى هذا أن الإدارتين مدينتان للعرب عن طريق صقلية.

والأوامـر التـي كان يصدرهـا روجـر في أنحـاء مملكتـه كان يراعـى فيهـا أن تكتـب بالعربيـة، بالإضافـة إلى اليونانيـة واللاتينيـة، كي تصـل إلى المعنيـين بهـا مـن العـرب. وعندنـا أمـر صـدر أيـام كان روجـر بعـد طفـلا، أصدرتـه أمـه الوصيـة عليـه، وقـد كان مكتوبـا بالعربيـة واليونانيـة. بـل إن متحـف صقليـة فيـه قطعـة نقـد ضربـت في أيـام روجـر الثـاني سـنة ١١٣٨ تحمـل نقشـا عربيـا وتاريخـا كتـب بأرقـام عربيـة.

كان روجـر في كل مظاهـر حياتـه، مثـل فـردك الثـاني فيـما بعـد، تغلبـه عليـه العـادات العربيـة. فثيابـه كانـت مـن الثيـاب الفضفاضـة وأرديتـه كانـت عليهـا نقـوش عربيـة، وقـد ذكـرت قبـلا أن أحـد هـذه الأرديـة لا يـزال محفوظـا في متحـف إحـدى مـدن أوروبـا الكـبرى والبنايـات التـي أقامهـا، وفي مقدمتهـا كنيسـته الكـبرى في بلرمـو، كانـت مزخرفـة بالنقـوش العربيـة الكوفيـة.

ويـرى المشـتغلون بتاريـخ فـن البنـاء العـربي ودراسـة أثـره في الفنـون الأوروبيـة وتأثيرهـا فيـه أن الفنانـين الذيـن عملـوا في بنـاء هـذه الكنيسـة المعروفـة باسـم (كابـلا بلاتينـا) وغيرهـا مـن الأبنيـة مثـل كاتدرائيـة مونريـال ومارتورانـا والقـلاع التـي أنشـئت في القـرن الثـاني عـشر الميـلادي (السـادس للهجـرة) - هـؤلاء الفنانـون كانـوا صقليـين فيهـم العـرب وغيرهـم، ولكـن النـماذج التـي قلدوهـا كان فيهـا كثـير مـن أصـل عـربي، فجامـع الحكـم في قرطبـة هـو أصـل الكابـلا مـن حيـث تركيـز القبـة الكبـيرة عـلى زوايـا متعـدّدة. ويعتقـد هـؤلاء أنـه لمـا بنـى جـورج الأنطـاكي سـانتا ماريـا اتبـع نفـس الطريقـة التـي اتبعهـا بنـاة الكابـلا. ولعـل صنـاع صقليـة هـم الذيـن

علمـوا هــذه الطريقــة لصنــاع ســالرنو وعــن هــؤلاء انتقلــت إلى أنحــاء مختلفــة مــن أوروبــا.

أمــا البــلاط نفســه، ورجــال البــلاط، فقــد مثلــوا الحيــاة المختلطــة أحســن تمثيــل. فقــد كان في بــلاط روجــر فضــلا عــن الموظفــين المختلفــي الأجنــاس والمذاهــب، علــماء وشــعراء كذلــك متباينــو الأجنــاس والمذاهــب. فالعــرب والــروم والإيطاليــون والنورمــان عــلى اختــلاف ثيابهــم وعاداتهــم وتبايــن آرائهــم ونظرتهــم وتباعــد أفكارهــم وجــدوا في بــلاط روجــر أمنــا وســلاما، فتحدثــوا وتباحثــوا ونظمــوا الشــعر وكتبــوا الرســائل وعملــوا في الترجمــة العلميــة وهكــذا دواليــك.

فقــد كان في بلاطــه الإدريــسي الجغــرافي وعبــد الرحمــن الشــاعر ونيلــوس اليونــاني وأوجــين البلرمــى، وهــذا فضــلا عــن مؤرخــين مــن اللاتــين وبنائــين بيزنطيــين

والبــلاط الصقــلي مســؤول عــن المشــاركة في نقــل الكثــير مــن آثــار الحضــارة العربيــة إلى أوروبــا. فالأمــير أوجــين كان يعــرف العربيــة واللاتينيــة، كمعرفتــه لليونانيــة، لغتــه الأصليــة وقــد تــم عــلى يديــه نقــل كتــاب البصريــات المنســوب إلى بطليمــوس مــن العربيــة إلى اللاتينيــة. كــما أنــه ســاهم في نقــل كتــاب كليلــة ودمنــة إلى اللغــة نفســها.

وليــس مــن شــك في أن زهــرة العلــماء الذيــن أقامــوا في بــلاط روجــر الصقــلي الجغــرافي العــربي الكبــير الشريــف الإدريــسي. وهــو أبــو عبــد اللــه محمــد ابــن محمــد بــن عبــد اللــه بــن إدريــس مــن ســلالة العلويــين. ولــد بمدينــة ســبتة في أواخــر القــرن الخامــس للهجــرة (الحــادي عــشر للميــلاد). فلــما

شب ورغب في طلب العلم انتقل إلى قرطبة، وكانت جامعتها آنئذ مهبطا لطلاب العلم من جميع آفاق المغرب فتثقف فيها وأحاط بعلوم عصره، لكنه عنى بالجغرافية والرحلة عناية خاصة، فاطلع على ما كتبه السابقون أمثال ابن حوقل والمقدسي واليعقوبي والبكري. وأثار ذلك في نفسه حب الأسفار فطاف في أنحاء البحر المتوسط الغربية، حيث كان للعرب بعد سلطان. ثم نزل على روجر الثاني صاحب صقلية فأحسن وفادته وقربه وأجله واحترمه لما رأى من سعة علمه واطلاعه ومعرفته، وأغراه في البقاء عنده طويلا فقبل. ونزل عند رغبة روجر فكتب له كتابا في الجغرافية اسمه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ويعرف أيضا بكتاب روجر.

ومن الطريف أن نشير هنا إلى أن الإدريسي وروجر كانا صديقين حميمين. فقد أعجب كل منهما بالآخر كثيرا. فالإدريسي وجد في روجر رجلا يقظا محبا للعلم والمعرفة واسع الاطلاع في أبحاث الرياضيات والفلسفة والتاريخ محيطا بالكثير من علوم العرب عارفا بلغتهم. ووجد روجر في الإدريسي بغيته. فقد كان يريد أن يحصل على معلومات دقيقة عن بلاده وجيرانه والبلاد التي تربطها بمملكته علاقات تجارية أو التي يفكر بالسير إليها فوجد أن الإدريسي هو الرجل الذي باستطاعته أن يقوم بذلك. وقد وصف الإدريسي روجر بقوله (إنه يستطيع أن يفعل وهو نائم ما يعجز عنه الكثيرون وهم يقظون).

أراد روجر أن يتعرف إلى الدنيا بكل ما فيها، فاطلع على ما كتبه جغرافيو القدماء والعرب فلم يجد فيها بغيته، فاستدعى العارفين

وسمع منهم. وقد وصف الإدريسي في مقدمة كتابه الطريقة التي تمت بها عملية تحضير المواد اللازمة لكتابه قال (إن الملك روجر المعتز بالله المقتدر بقدرته ملك صقلية وإيطالية وانكرده وقلورية لما اتسع سلطانه أراد أن يعرف كيفية بلاده ويعلم أشكالها وحدودها ومساكنها برا وبحرا. فطلب الكتب التي ألفت بالجغرافية والأقاليم فلم يجد ذلك فيها مشروحا مفصلا. فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فلم يجد عندهم أكثر مما في الكتب. فبعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين فيها فسألهم عنها وباحثهم فيها. فما اتفق عليه رأيهم وصح عنده نقلهم أبقاه وما اختلفوا فيه أرجاه. أقام في ذلك خمس عشرة سنة. فلما تم كل شيء أمر أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعمائة رطل في كل رطل منها مائة واثنا عشر درهما. ثم أمر الفعلة أن ينقشوا عليها صور الأقاليم السبعة ببلاده وأطوالها وأقطارها وسبلها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاريها ونوابغ أنهارها وغامرها وعامرها وما بين كل بلد وغيره من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات والمراسي ولا يغادروا فيه شيئا).

ولما تم صنع الدائرة العظيمة انتقل العمل إلى يد الإدريسي فألف الكتاب المسمى نزهة المشتاق. وقد كان مطابقا لما في أشكال الدائرة وصورها. واحتوى وصف أحوال البلاد والأرضين في خلقها وبنائها وأماكنها وبحارها وجبالها ومسافتها وعملها وأجناس نباتها. ثم انتقل إلى وصف ما تستعمل به غلاتها والصناعات التي تتقن فيها والتجارات التي تحمل منها والعجائب التي تذكر عنهم. ويشمل الكتاب فضلا عن

ذلـك ذكـر أحـوال أهلهـا وهيئاتهـم ومللهـم ومذاهبهـم وزيهـم وملابسـهم ولغاتهـم.

ويقـول الإدريـسي أن روجـر هـو الـذي اقـترح اسـم الكتـاب وأن ذلـك كان في شـوال سـنة ٥٤٨ ثـم يضيـف (فامتثـل الإدريـسي فيـه الأوامـر ورسـم الرسـم فبـدأ بصـورة الأرض المسـماة جغرافيـا).

عـلى أن للإدريـسي كتابـا آخـر في الجغرافيـة أطـول مـن الأول اسـمه (روضـة الأنـس ونزهـة النفـس) أو (كتـاب المالـك والمسـالك).

والإدريـسي في رأي كثـير مـن المشـتغلين بتاريـخ العلـوم أكـبر جغـرافي في العصـور الوسـطى. وإذا نازعـه أحـد في هـذا اللقـب فهـو ياقـوت صاحـب معجـم البلـدان. ويـرى ملـر أن الإدريـسي يكـون مدرسـة جغرافيـة بنفسـه.

وقـد ظـل كتـاب الإدريـسي عمـدة أوروبـا في الجغرافيـة وخاصـة فيـما يتعلـق بالبـلاد الشرقيـة مـدة طويلـة.

والأوروبيـون يقـدرون نزهـة المشـتاق وصاحبـه كثـيرا، وهنـاك مـن تمنـى لـو يطبـع طبعـة تامـة ويترجـم. ولعـل الطبـع المتقـن يتـم في يـوم مـن الأيـام عـلى يـد العـرب وعلمائهـم وهيئاتهـم، فنحـن أولى مـن الغربيـين بإحيـاء تـراث هـذا السـلف الصالـح.

وعـلى كل فقـد طبعـت أجـزاء مختلفـة مـن الكتـاب في مناسـبات متعـدّدة فوصـف الإدريـسي للشـام وصقليـة والأندلـس وأفريقيـا مطبـوع في كتـب تتنـاول تاريـخ هـذه الأصقـاع. وقـد ترجـم ترجمـة فيهـا بعـض الاضطـراب إلى اللاتينيـة في أواخـر القـرن السـادس عـشر. ومـما يسرنـا أن نذكـر أن

مترجميه كانا عربيين من لبنان هما جبرائيل الصهيوني وحنا الحصروني.

أما خرط الكتاب وعددها إحدى وسبعون فأكثرها مطبوع وأما النسخ الخطية الموجودة من نزهة المشتاق فهي سبع اثنتان في اكسفورد بإنكلترا واثنتان في باريس وواحدة في استانبول وواحدة في لننغراد وواحدة في القاهرة.

وأود في ختام هذا الحديث أن أشير إلى عالم آخر ظهر في صقلية في هذه الفترة، وإن كان لم يتصل ببلاط روجر اتصالا مباشرا وهو حجة الدين الصقلي. ولد بصقلية ونشأ بمكة وعاد إلى صقلية ثم تنقل في البلاد واستقر أخيرا بحماة وتوفي بها. أما أثناء إقامته بصقلية فكان ملتحقا بأحد القواد وصنف له سنة ٥٥٤ للهجرة كتاب سلوان المطاع في عدوان الاتباع. وله كتب أخرى كثيرة في الفقه والتفسير واللغة.

هذه صورة لما كان عليه بلاط روجر وما كان عليه الملك من احترام العلماء العرب وعنايته بهم، وبذا كان أحد العاملين على نشر علوم العرب في أوروبا وركا من أركان نهضتها.

٤ - ابن جبير في البحر المتوسط

عند ما نستعرض الرحالين الذين جابوا أقطار العالم الواسعة في العصور المختلفة نجد أن ابن جبير في طليعتهم. فقد زار أنحاء العالم العربي، والشرقية منها على الخصوص ثلاث مرات. فنال كلا من مصر والحجاز ونجد والعراق وسوريا وصقلية وإسبانيا وأفريقية من جهده نصيب. والرحلة التي بين أيدينا إنما هي وصف رحلته الأولى التي قام بها سنة

٥٧٨ هـ (١١٨٣ م). فهي سجل للبلاد والحوادث في أواخر القرن السادس هجري (الثاني عشر ميلادية). والذي يعنينا منها في هذا الحديث هو الجزء المتعلق بالبحر المتوسط، ذلك أن ابن جبير قطع هذا البحر، في هذه السفرة مرتين: الأولى من سبتة إلى الإسكندرية. والثانية من عكاء إلى اسبانيا. ففي المرة الأولى خرج من سبتة ومر بجزر يابسة وميورقة ومنورقة وسردينية وصقلية وكريت، وفي الثانية خرج من عكاء ومر بجزر الأرخبيل في بحر إيجة وكريت وصقلية وانتهى به السفر إلى الأندلس فنزل في ميناء قرطاجنة، وأقام مدة طويلة في صقلية.

وقد دوّن ابن جبير ما رآه وما سمعه وما اختبره في رحلته، فحصلنا نحن على هذه الصور الحية. فهذا هو الرحالة يقضى ثلاثين يوما في قطع المسافة بين سبتة والاسكندرية ويسافر على مركب للجنويين وتعتبر هذه المدة طبيعية في تلك الأوقات. ولكنه لا يغفل عن ذكر نقطة هامة وهي أن المسافة من سبتة إلى منورقة كانت ثمانمائة ميل قطعتها السفينة في اثني عشر يوما. أما في طريق العودة فقد قطعت السفينة وكانت جنوية أيضا خمسمائة ميل في يومين وليلتين. وابن جبير يذكر هذا وهو مستغرب من سرعة المركب.

ونستطيع أن نتابع ابن جبير في رحلته فترقبه وهو ينتظر الريح الطيبة هنا وهناك، فهو يقضى أربعة أيام في إحدى جزر الأرخبيل بانتظار الريح الملائمة. لكن أطول مدة قضاها في انتظار الريح كانت خمسة وسبعين يوما في أطرانيش من أعمال جزيرة صقلية.

والصـور التـي يتركهـا ابـن جبـير لوصـف البحـر والمـوج حيـة طريفـة. فلـما كانـت السـفينة في طريقهـا مـن جـزر الأرخبيـل إلى الغـرب طلعـت عليهـا ريـح غربيـة فغـيرت اتجـاه السـفينة فكتـب ابـن جبـير يصفهـا، ثـم انقلبـت الريـح غربيـة وأنشـأت سـحابة فيهـا رعـد قاصـف وزجهـا ريـح عاصـف وتقدمهـا بـرق خاطـف فأرسـلت حاصبـا مـن الـبرد صبتـه علينـا في المركـب شـآبيب متداركـة فارتاعـت لـه النفـوس، ثـم أسرع انقشـاعها وانجـلى عـن الأنفـس ارتياعهـا وبتنـا ليلـة الجمعـة مبيـت وحشـة وطالعنـا اليـأس مـن مكمنـه. فلـما أسـفر الصبـح وطلـع النهـار أبصرنـا بـر صقليـة... لكـن لم تلبـث حتـى ضربـت في وجوهنـا ريـح أنكصتنـا عـلى الأعقـاب وحالـت بـين الأبصـار والارتقـاب، ومـا زالـت تعصـف حتـى كادت تنسـف وتقصـف، فحطـت الـشرع عـن صواريهـا، واستسـلمت النفـوس لباريهـا وتـركا بـين السـفينة ومجريهـا وتتابعـت علينـا عـوارض ديـم حصلنـا منهـا ومـن الليـل والبحـر عـلى ثـلاث ظلـم وعبـاب المـوج تتـوالى صدماتـه وتطفـر الألبـاب رجفاتـه، فنبـذت نفوسـنا كل أمنيـة وتأهبـت للقـاء المنيـة وقطعنـا هـذه الليلـة البهـماء في مصادمـة أهـوال ومكابـدة أوجـال ومقاسـاة أحـوال يـا لهـا مـن أحـوال. ثـم أصبحنـا يـوم السـبت ليـوم عصيـب أخـذ مـن هـول ليلتـه بأوفـر نصيـب والأمـواج والريـاح تترامـى بنـا حيـث شـاءت وقـد استسـلمنا للقضـاء وتمسـكنا بأسـباب الرجـاء، ثـم تداركنـا صنـع اللـه تعـالى مـع المسـاء ففـترت الريـح ولان مـتن البحـر واصفـر وجـه الجـوّ وأصبحنـا يـوم الأحـد وقـد بـدل لنـا مـن الخـوف الأمـان وتطلعـت الوجـوه كأنهـا انتـشرت مـن الأكفـان

وهــذا المركــب الــذي عــاد بــه ابــن جبــير مــن عــكاء إلى الأندلــس كان كبــيرا، فقــد وصفــه بقولــه (والنــاس مــن هــذا المركــب بمنــة اللــه تعــالى في مدينــة جامعــة لمرافــق. فــكل مــا يحتــاج شراؤه يوجــد مــن خبــز ومــاء ومــن جميــع الفواكــه والأدم كالرمــان والســفرجل والبطيــخ الســندي والكمــثرى والشــاه بلــوط والجــوز والحمــص والباقلانيــا والبصــل والثــوم والتــين والجــبن والحــوت وغــير ذلــك مــما يطــول ذكــره. عاينــا جميــع ذلــك يبــاع). ولكــن هــذا المركــب الغنــى نفســه نفــد منــه الــزاد لطــول المــدة التــي قضاهــا في شرقــي البحــر المتوســط. فقــد روى رحالتنــا أن الــركاب كانــوا يقتــصرون عــلى مقــدار رطــل مــن الخبــز اليابــس يتقســمه أربعــة منهــم ويبلونــه بيســير مــن المــاء فيتبلغــون بــه. ولمــا نــزل بعــض البلغريــين ترفــق بقيــة الــركاب بمــا باعــوا مــن الــزاد حتــى انتهــى ســعره إلى خبــزة بدرهــم، أي أن الرغيــف بلــغ ثمنــه نيفــا وأربعــين مــلا أو فلســا. ولمــا كان المركــب في جــزر الأرخبيــل نــزل أهــل الجزيــرة وبايعــوا أهــل المركــب في الخبــز واللحــم والزيــت ومــا كان عندهــم مــن الأدم. ولم يكــن خبزهــم بــرا خالصــا إنمــا كان خليطــا بالشــعير وكان يــضرب للســواد فتهافــت النــاس عليــه عــلى غلائــه ولم يكــن بالرخيــص في ســومه.

ومــع أن ابــن جبــير مــر بكريــت وغيرهــا مــن الجــزر فــان صقليــة هــي التــي نالهــا ومــع أكــبر حــظ مــن وقتــه، فقــد قــضى فيهــا مــا يزيــد عــن الثلاثــة الأشــهر. نــزل اليهــا في مســينا وزار بلــرم وغــادر الجزيــرة مــن اطــرا بنــش. ويصــف ابــن جبــير كيفيــة دخــول المســافرين مســينا بعــد انكســار المركــب فيقــول (وهــذا المضيــق «أي مضيــق مســينا «ينحــصر فيــه البحــر إلى مقــدار

ستة أميال وأضيق موضع فيه ثلاثة أميال. والبحر به ينصب انصباب السيل العرم ويغلى غليان المرجل لشدّة انحصاره وانضغاطه. وشقة صعب على المركب. فاستمر مركبنا في سيره والريح الجنوبية تسوقه سوقا عنيفا فلما كان مع نصف ليلة الأحد وقد شارفنا مع: مدينة مسينا من الجزيرة المذكورة، دهمتنا زعقات البحريين بأن المركب أمالته الريح بقوتها إلى أحد البرين. فأمر رئيسهم بحط الشرع للحين فلم ينحط شراع الصاري وعالجوه فلم يقدروا عليه لشدة ذهاب الريح به، فلما أعياهم مزقه الريس بالسكين قطعا قطعا طمعا في توقيفه. وفي أثناء هذه المحاولة سح المركب بكلكله على البر وقامت الصيحة الهائلة فيه فجاءت الطامة الكبرى والصدعة التي لم نطق لها جبرا. وتطاورت الريح والأمواج صفع المركب وألقى الريس مرسى من مراسيه طمعا في تمسكه فلم يغن شيئا... فلما تحققنا أنها هي قمنا فشددنا للموت حيازيمنا وأمضينا على الصبر الجميل عزائمنا وأقمنا نرتقب الصباح أو الحين المتاح... وفي أثناء مكابدة هذه الأهوال أسفر الصباح فجاء نصر الله والفتح وحققنا النظر فاذا بمدينة مسينا أمامنا على أقل من ميل ثم تمكن الشروق فجاءتنا الزواريق مغيثة ووقعت الصيحة في المدينة لخرج ملك صقلية غليام (وليم) بنفسه في جملة من رجاله مطلعا لتلك الحال. و بادرنا إلى النزول في الزواريق... ومن العجب على ما أخبرنا به أن هذا الملك الرومي المذكور أبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب وليس لهم شيء يؤدونه في نزولهم لأن أصحاب الزواريق أغلوا على الناس في تخليصهم فلما علم بقصتهم أمر لهم بمائة قطعة من سكته ينزلون بها).

وأعجب ابـن جبـير بصقليـة أيمـا إعجـاب، فقـد كانـت الجزيـرة إلى قبـل قـرن واحـد تابعـة للعـرب، وكان العـرب لا يزالـون يقطنـون بهـا وكان ملكهـا وليـم قـد أثـر في ابـن جبـير لأنـه عـدل بـين السـكان، فوصـف الرحالـة كل شيء في الجزيـرة وقـع تحـت عينيـه. خصبهـا وموانئهـا ومرافقهـا وأسـطولها وأحـوال المسـلمين فيهـا وعيـد الميـلاد - كل أولئـك شـغلت ابـن جبـير ونالـت مـن مقدرتـه عـلى تسـجيل تأثـره لحظهـا، فهـو يقـول في خصبهـا) وجبالهـا كلهـا بسـاتين مثمـرة بالتفـاح والشـاه بلـوط والبنـدق والأجـاص وغيرهـا مـن الفواكـه). ويقـول في موضـع آخـر أنـه أثنـاء ارتحالـه مـن بلـرم إلى اطـرا بنش سـلك عـلى قـوى متصلـة وضيـاع متجـاورة وأبـصر محـارث ومـزارع لم يـر مثـل تربتهـا طيبـا وكرمـا واتسـاعا، وهـو هنـا يراهـا أهـلا للمقابلـة بقرطبـة وربضهـا. والمينـاءان اللـذان أثـر في ابـن جبـير هـما مسـينا واطرابنـش، فقـال عـن الأولى (مقصـد جـواري البحـر مـن جميـع الأقطـار كثـيرة الأرفـاق برخـاء الأسـعار... أرزاقهـا واسـعة بإرغـاد العيـش كفيلـة. لا تـزال بهـا ليلـك ونهـارك في أمـان... ومرسـاها أعجـب مـراسي البـلاد البحريـة لأن المراكـب الكبـار تدنو فيـه مـن البحـر حتـى تـكاد تمسـه، وتنصـب منهـا إلى الـبر خشـية ينـصرف عليهـا فالحـمال يصعـد بحملـه اليهـا ولا يحتـاج لزواريـق في وسـقها ولا في تفريغهـا... فتراهـا (أي السـفن) مصطفـة مـع الـبرك اصطفـاف الجيـاد في مرابطهـا واسـطبلاتها وذلـك لا فـراط عمـق البحـر فيهـا... وفي هـذه المدينـة دار صنعـة (البحـر) تحتـوى مـن الأسـاطيل عـلى مـا لا يحـصى عـدد مراكبـه) عـلى أن ابـن جبـير يـورد في مـكان آخـر خـبرا عـن أسـطول كان وليـم يجهـزه أثنـاء اقامـة الرحالـة في الجزيـرة وعندهـا يخـبر بـأن الأسـطول الـذي يريـد هـذه الطاغيـة تعمـيره عـدد أجفانـه ثلاثمائـة بـين طرائـد ومراكـب

ويستصحب معه مائة سفينة تحمل الطعام. ولم يستوثق ابن جبير من قصد وليم من تحضير هذا الأسطول وكل ما نلحظه هو أنه يرجو ألا يوفق إذا كان المقصود به دارا من ديار العرب والإسلام.

ويعنى ابن جبير عناية خاصة بذكر شؤون العرب والمسلمين المقيمين بصقلية، فهو يدوّن كل ما يبلغه عنهم، فهو يقول عن مسلمي مسينا أنهم مع أهل المدينة على أملاكهم وضياعهم قد حسنوا السيرة في استعمالهم واصطناعهم ضربوا عليهم أتاوة في فصلين من العام. ثم ينتقل إلى بلرم فيقول عنها أنه فيها سكنى الحضريين من المسلمين ولهم فيها المساجد والأسواق المختلفة. ويشير إلى وليم ملك صقلية، الذي يسميه غليام، فيقول عنه (وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين... وهو كثير الثقة بهم. وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى أن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين والقائد على جماعته السود مسلم. ورجاله من المسلمين يلوح عليهم رونق مملكته لأنهم متسعون في الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة. وغليام نفسه ليس في ملوك النصارى أشرف في الملك ولا أنعم ولا أرق منه وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملوك وإظهار زينته بملوك المسلمين وملكه عظيم جدا. و بلاط وليم فيه (الأطباء والمنجمون وهو كثير الاعتناء بهم شديد الحرص عليهم حتى أنه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه).

ولما وصل ابن جبير بلرم أعجبته حضارتها فوصفها بعبارة أخاذة (هي بهذه الجزائر أم الحضارة والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة. فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ومراد عيش يانع أخضر عتيقة أنيقة مشرقة مؤنقة، تتطلع بمرأى فتان... فسيحة السكك والشوارع تروق الأبصار بحسن منظرها البارع... وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان يعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها... ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويختلفون في وقيد في شهر رمضان المبارك. وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن).

وبينا ابن جبير في طريقه من بلرم إلى اطرا بنش مر ببلدة اسمها «علقمة» وقضى فيها ليلة وهي، على ما قال كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وسكان هذه الضياع التي في هذه الطريق كلها مسلمون).

وكان ابن جبير في أطرا بنش لما انتهى رمضان فعيد فيها عيد الفطر المبارك، وصلى في أحد مساجدها صلاة الغرباء لأنه لم يخرج مع الباقين إلى المسجد الجامع فيصلي صلاة العيد. أما الباقون فقد خرجوا إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات. على أن ابن جبير يذكر في مواضع أخرى، قصصا عن خصومات كانت تقوم

بـين العـرب والنورمـان وكانـت فيهـا اليـد العليـا للفئـة الثانيـة بحكـم غلبـة سـلطانهم.

وقـد حـضر ابـن جبـير احتفـال أهـل بلـرم بعيـد الميـلاد فكتـب في وصفـه قائـلا (ومـن أعجـب مـا شـاهدناه في بلـرم كنيسـة تعـرف بكنيسـة الأنطـاكي أبصرناهـا يـوم عيـد الميـلاد وهـو يـوم لهـم عظيـم وقـد احتفلـوا لـه رجـالا ونسـاء. فأبصرنـا مـن بنيـان الكنيسـة مـرأى يعجـز الوصـف عنـه ويقـع القطـع بأنـه أعجـب مصانـع الدنيـا المزخرفـة. جدرهـا الداخلـة ذهـب كلهـا وفيهـا مـن ألـواح الرخـام الملـون مـا لم يـر مثلـه، وقـد رصعـت كلهـا بفصوص الذهــب وكلــت بأشــجار الفصــوص الخــضر ونظــم أعلاهــا بالشمســيات المذهبــات مــن الزجــاج فتخطــف الأبصــار بســاطع شــعاعها وتحــدث في النفـوس فتنـة نعـوذ باللـه منهـا. وأعلمنـا أن بانيهـا كان وزيـرا لحـد هـذا الملـك وقـد أنفـق فيهـا قناطـير مـن الذهـب. ولهـذه الكنيسـة صومعـة قـد قامـت عـلى أعمـدة سـوار مـن الرخـام ملونـة وعلـت عـلى أخـرى سـوار كلهـا فتعـرف بصومعـة السـواري وهـي مـن أعجـب مـا يبـصر مـن البنيـان.

وزى النصرانيـات في هــذه المدينـة زي نسـاء المسـلمين، فصيحـات الألسـن ملتحفـات، متنقبـات خرجـن في هـذا العيـد المذكـور وقـد لبسـن ثيـاب الحريـر المذهـب والتحفـن اللحـف الرائقـة وانتقـين بالنقـب الملونـة وانتعلـن الأخفـاف المذهبـة وبـرزن لكنائسـهن حامـلات جميـع زينـة نسـاء المسـلمين مـن التحـلي والتخضـب والتعطـر).

هـذه أيهـا القـراء الكـرام، نتـف مـما دونـه هـذا الرحالـة الكبـير في هـذه الرحلـة، ونحـن نـرى حتـى مـن هـذه المختـارات القليلـة الصعوبـات التـي

تغلـب عليهـا والمشـاق التـي تحملهـا في سـبيل رحلتـه وحجـه. ومـع ذلـك فـان ابـن جبـير رحـل مرتـين أخريـين إلى المـشرق: الأولى لمـا بلغـه الخـبر المبهـج باحتـلال صـلاح الديـن لبيـت المقـدس بعـد معركـة حطـين. والثانيـة بعـد أن توفيـت زوجـه عاتكـة أم المجـد فحـزن عليهـا ونـوى الحـج، وبعـد أداء الفريضـة عـاد إلى الاسـكندرية واسـتقر فيهـا وقـرأ وحـدث حتـى تـوفي سـنة ٦١٤ هــ (١٢١٧ للميـلاد). وإن كنـا نأسـف لـشيء فالـذي نأسـف عليـه هـو أن ابـن جبـير لم يـدوّن أخبـار رحلتيـه وكـم كنـا نربـح لـو أنـه فعـل.

٥ - بين صقلية وسـورية

بعـد روجـر بمائـة سـنة جلـس عـلى عـرش صقليـة فردريـك الثـاني (١٢١٥ - ١٢٢٥) الـذي كان في الوقـت نفسـه إمبراطـورا للإمبراطوريـة الرومانيـة المقدسـة. ثـم تـزوّج وارثـة عـرش المملكـة اللاتينيـة السـورية فصـار نظريـا عـلى الأقـل، ملـك القـدس. وقـد قـاد فردريـك حملـة صليبيـة إلى الـشرق أيـام الملـك الكامـل.

كان فردريـك يتـأسى الملـوك الشرقيـين في ثيابـه وبلاطـه، وقـد سـار في صقليـة عـلى غـرار روجـر الثـاني صاحـب الادريـسي فاعتنـى بـأن يكـون في حاشـيته العلـماء والفلاسـفة والعـرب مـن سـورية وبغـداد. واحتفـظ بعلاقـات سياسـية وتجاريـة مـع الملـك الكامـل، الـذي كان معـاصرا لـه في مـصر وسـوريا. فبعـث إليـه هـذا بهديـة سـنية كان فيهـا زرافـة هـي أول زرافـة وصلـت أوروبـا في العصـور الوسـطى. كـما أن الملـك الأشرف صاحـب دمشـق بعـث إلى فردريـك بمجموعـة فلكيـة تبـين الشـمس والقمـر ودورانهـما. وأرسـل فردريـك إلى الأشرف هديـة فيهـا طـاووس أبيـض.

ولما عاد فردريك من سورية اصطحب معه بزازين وعهد إليهم بتربية البزاة في قصره، وعهد إلى تادوري الأنطاكي بترجمة كتاب عن البزاة وتربيتها من العربية. وعلى أساس هذا الكتاب وغيره كتب فردريك نفسه عن هذا الموضوع. وإلى تادوري نفسه يرجع الفضل في تلخيص سر الأسرار، وهو كتاب عربي في أصول حفظ الصحة. وقد كان قبل تادوري هذا ميشيل الأيقوسي مقيما في بلاط فردريك. وهذا كان قد طلب العلم في أسبانيا وقام بنقل خلاصات من كتب أرسطو في علم الأحياء مع شروح ابن سينا.

فشخصية فردريك يجب أن تعد بين العوامل الرئيسية التي مهدت الطريق للنهضة الأوروبية. فالشعر الإيطالي والأدب والموسيقى بدأ ازدهارها تحت تأثير العرب، الذين يعود إليهم الفضل في حمل الشعراء والمغنين على استعمال اللغة الوطنية بدل اللغة اللاتينية. على أن فضل فردريك الأكبر على الحضارة العلمية في أوروبا يظهر بشكل خاص في انشائه جامعة نابولي سنة ١٢٢٤، وقد أودع فيها مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية. وكانت مؤلفات أرسطو وابن رشد أساس التعليم فيها، ومن هذه الجامعة أرسلت نسخ من هذه المؤلفات إلى جامعتي بولونا وباريس. ومن المهم أن نذكر أن توما الأكويني هو من أكبر علماء اللاهوت في أوروبا في العصور الوسطى كان من طلبة جامعة نابولى.

هـذه اللمحـة العابـرة ترينـا بصـورة عامـة، فردريـك ملـك صقليـة، وتهيـئ لنـا السـبيل لفهـم العلاقـة الوثيقـة التي كانـت لـه بالقـدس ومـا اليهـا مـن بلادنـا.

كان أول اتصـال لـه بهـذه البـلاد أنـه تـزوج وريثـة المملكـة اللاتينيـة، كانـت الوريثـة إيزابيـلا وكانـت تقيـم في عـكاء، فبعـث فردريـك برسـله لإحضـار عروسـه. وكان وفـده هـذا فيـه أربـع عـشرة سـفينة تحـت إمـرة هـنري أمـير مالطـة، وكان يرافـق الأسـقف يعقـوب البـاتي، وفي شـهر آب ١٢٢٥ ألبسـت العـروس، وكانـت في الرابعـة عـشرة مـن سـنها، خاتـم الـزواج في كنيسـة الصليـب المقـدس بعـكاء ثـم توجـت إمبراطـورة في صـور. وبعـد أسـابيع ودعـت إيزابيـلا سـوريا إلى صقليـة. فلـما وصلـت برنديـزي لقيهـا فردريـك وهنـاك عقـد الاكليـل. وكان هـذا الـزواج سياسـيا في أصلـه، وقـد توفيـت الزوجـة بعـد بضـع سـنين، لكنهـا كانـت قـد خلفـت طفـلا صـار هـو وريـث عـرش المملكـة اللاتينيـة، ونصـب فردريـك نفسـه حاميـا لـه ووصيـا عليـه:

كان فردريـك قـد وعـد البابـا، لمـا تـوج إمبراطـورا، أن يقـود حملـة صليبيـة ضـد سـوريا. لكـن حروبـه ومشـاغله الأوروبيـة حالـت دونـه ودون القيـام بمـا يريـد. ولمـا فـرغ مـن جميـع مشـاغله، واعتـزم القيـام بالحملـة فعـلا.

كان البابـا قـد فـرغ صـبره وحـرم فردريـك ومنعـه مـن ذلـك. لكـن الامبراطـور لم يبـال وخـرج إلى المشرق.

وقبـل أن نعـرض إلى هـذه الحملـة وما كان مـن شـأن الملـك الكامـل فيهـا، نريـد أن ننتقـل إلى سـوريا ومـصر. لـنرى مـا كان فيهـا، مـما يمكـن أن يلقـى شـيئا مـن الضـوء عـلى التاريـخ السـياسي لهـذه الفـترة العصيبـة. كان الملـك الكامـل صاحـب مـصر وكان المعظـم عيـسى أخـوه صاحـب دمشـق، وكان بـين الأخويـن بعـض النفـور، وهـم المعظـم بالاسـتنجاد بملـك خـوارزم جـلال الديـن ضـد أخيـه الكامـل. والظاهـر أن هـذا ارتـاع لذلـك فكتـب إلى فردريك يفاوضـه في أمـر المجـيء إلى سـوريا. ويـروى العينـي أن الكامـل وعـده أن يعطيـه أماكـن مقدسـة معينـة أن جـاء لنجدتـه. ففهـم فردريـك مـن ذلـك أن الملـك الكامـل كان ينـوى أن يعيـد اليـه كل الجـزء الـذي احتلـه صـلاح الديـن مـن أيـدي الصليبيـين. فـرد عـلى الملـك الكامـل ردّا لطيفـا وبعـث اليـه برسـول يحمـل هديـة سـنية وتحفـا غريبـة. ولقـى الرسـول حفـاوة عـلى يـدي الكامـل، فأقيمـت لـه الزينـات وأنـزل في دار الوزيـر. ولما رحـل جهـز الكامـل لـه هديـة رائعـة لفردريـك فيهـا مـن تحـف الهنـد واليمـن والعـراق والشـام ومـصر والعجـم مـا قيمتـه أضعـاف هديتـه. وعـين الكامـل جـمال الديـن بـن منقـذ الشـيرازي للسـير بهـذه الهديـة.

فلـما اعتـزم فردريـك القيـام بالحملـة الصليبيـة لم يبـال بحرمـان البابـا لأنـه جـاء وهـو مطمـئن إلى الحصـول عـلى نتيجـة مـا. فوصـل عـكا في خريـف ١٢٢٧ شـوّال ٦٢٤)، فوافـق ذلـك مـوت المعظـم وزوال الخطـر الـذي كان يتوقعـه الملـك الكامـل. فتغـيرت وجهـة نظـره كثـيرا. وهنـا دارت بـين الصديقـين مفاوضـات ديبلوماسـية طويلـة، وكان الملـك الكامـل، قسـما كبـيرا مـن الوقـت، في تـل العجـول، قـرب غـزة، وكان فردريـك في عـكا فبعـث

برسـوله إلى الكامـل يذكـره بمـا كان مـن مفاوضـة سـابقة، وتلـكأ الكامـل قليـلا. فانـصرف الامبراطـور إلى تعمـير صيـدا وتحصينهـا، وكانـت قـد خربـت مـن أيـام صـلاح الديـن، وكانـت مناصفـة بـين العـرب والصليبيـين، وتـردّد الأمـير فخـر الديـن بـن شـيخ الشـيوخ والشريـف شـمس الديـن بـين الملكـين. وانتقـل فردريـك إلى يافـا وعمـر حصونهـا وكانـت خرابـا، واعتـبر الكامـل هـذا نقضـا للمفاوضـات. لكنـه لم يكـن يريـد أن يحـارب فردريـك رغـم أن قـوات هـذا لم تكـن كبـيرة. وقـد روى أن فردريـك بعـث إلى الكامـل يطلـب اليــه أن يعطيــه القــدس كي لا يفقــد كل قيمتــه في عيــون ملــوك أوروبــا وأهلهـا والبابـا لأنهـم كلهـم كانـوا يحسـدونه.

وكانـت نتيجـة هـذه المفاوضـات الطويلـة أن وقـع الاتفـاق بـين الكامـل وملـك الفرنـج عـلى أن يأخـذ الفرنـج القـدس مـن العـرب ويبقوهـا عـلى مـا هـي عليـه مـن الخـراب ولا يجـدّدوا سـوريها. أمـا قـرى القـدس فتظـل بأيــدي الملــك الكامــل. وأمــا الحــرم بمــا حــواه مــن الصخــرة والمســجد الأقـصى، فيكـون بأيـدي المسـلمين ويتـولاه قـوام منهـم، ولا يدخلـه الفرنـج إلا للزيـارة. أمـا السـاحل فقـد ظـل عـلى مـا اتفـق عليـه صـلاح الديـن وريـكاردوس. وعقـدت الهدنـة وكانـت مدتهـا عـشر سـنين ونحـوا مـن سـتة أشـهر. وحلـف الملـكان عـلى مـا تقـرر.

أمـا النـاس فقـد عـن عليهـم ذلـك في القـدس وغيرهـا، فأهـل القـدس اشـتدّ بكاؤهـم وعظـم صراخهـم وعويلهـم وحـضر المؤذنـون والأئمـة مـن القـدس إلى مخيـم الكامـل وأذنـوا عـلى بابـه في غـير وقـت الأذان. وفي دمشـق شـنع النـاصر داود عـلى عمـه الكامـل فنفـرت قلـوب الرعيـة وجلـس الحافـظ

شـمس الديـن بـن سـبط الجـوزي بجامـع دمشـق وذكـر فضائـل بيـت المقـدس وحـزن النـاس عـلى مـا حـدث، وبشـع القـول في هـذا الفعـل وأنشـد قصيـدة أبياتهـا ثلاثمائـة بيـت قـال فيهـا:

عـلى قبّة المعراج والصّخرة التي

تفاخـر ما في الأرض من صخرات

مـدارس آيات خلت من تلاوة

ومنـزل وحي مقفر العرصات

ومـما يجـدر ذكـره أن الملـك الكامـل نفسـه حـاول أن يـبرر موقفـه فقـال «إنـا لم نسـمح للفرنـج إلا بكنائـس ومنـازل خـراب والمسـجد عـلى حالـه وشـعار الاسـلام قائـم ووالى المسـلمين متحكـم في الأعـمال والضيـاع»

وأراد الإمبراطـور أن يدخـل القـدس. فسـير الملـك الكامـل معـه شـمس الديـن قـاضي نابلـس فسـار معـه اليهـا حيـث قـام بـدور تسـليم المدينـة رسـميا وسـار معـه إلى المسـجد ثـم طـاف معـه المـزارات. وأعجـب الامبراطـور بالمسـجد الأقـصى وقبـة الصخـرة، ورأى هنـاك أفرنجيـا يريـد الدخـول فانتهـره وأنكـر مجيئـه وقـال «إنمـا نحـن مماليـك هـذا السـلطان الملـك الكامـل وقـد تصـدق علينـا وعليكـم بهـذه الكنائـس عـلى سـبيل الانعـام منـه فـلا يتعـدى أحـد منكـم طـوره «ولمـا دخـل وقـت الظهـر وأذن المؤذنـون قـام جميـع مـن كانـوا معـه مـن الفراشـين والغلـمان ومعلمـه وكان مـن صقليـة يقـرأ عليـه المنطـق فصلـوا وكانـوا مسـلمين.

ونـزل الامبراطـور، أثنـاء إقامتـه بالقـدس، في دار قريبـة مـن الحـرم الشريـف. وأمـر القـاضي شـمس الديـن المؤذنـين ألا يؤذنـوا تلـك الليلـة فلـم يؤذنـوا البتـة، فلـما أصبـح قـال الملـك للقـاضي لم يـؤذن المؤذنـون عـلى المنائـر؟

فقـال لـه القـاضي إنـه منعهـم لإراحـة الملـك. فقـال لـه الامبراطـور (أخطـأت فيـما فعلـت واللـه إنـه كان أكـبر غـرضي في المبيـت بالقـدس أن أسـمع الأذان والتسـبيح في الليـل).

وأثنـاء إقامتـه في القـدس تـوج فردريـك ملـكا في كنيسـة القيامـة، لكـن حفلـة التتويـج كانـت مدنيـة بسـبب حرمـان البابـا لـه.

ثـم عـاد إلى عـكا، بعـد أن قـضى في القـدس ثلاثـة أيـام. وكانـت عـكاء تغـلى بـروح الكـره لـه، فقـضى فيهـا شـهرا ثـم غادرهـا غـير مأسـوف عليـه. وقـد أدرك أن أهـل البلـدة لا يحبونـه فتركهـا تحـت جنـح الظـلام، قبيـل بـزوغ الفجـر ولم يرافقـه إلا قلـة مـن البارونـات. لكنـه لما اجتـاز حـي الجزاريـن في طريقـه إلى الميـناء شـعر بـه أهـل ذلـك الحـي، وكانـوا قـد بكـروا لأعمالهـم، فقذفـوا أحشـاء ذبائحهـم عـلى أتباعـه.

أمـا علاقـة فردريـك بالملـك الكامـل فقـد ظلـت ودّيـة. وكان الامبراطـور عـلى روايـة المقريـزي، متبحـرا بالرياضيـات والهندسـة والحسـاب وبعـث إلى الكامـل بعـدة مسـائل مشـكلة في الهندسـة والحكمـة والرياضـة فعرضهـا الكامـل عـلى الشـيخ علـم الديـن فقيـصر الحنفـي المعـروف بتعاسـيف وغـيره فكتـب جوابهـا عـلى أن أهـل قضـاء القـدس ونابلـس لم يلبثـوا حتـى عملـوا عـلى اسـترداد القـدس بالقـوة مـن أيـدي الافرنـج، وقـد كاد ذلـك أن يتـم لهـم لـولا أن جـاءت نجـدة قويـة مـن عـكاء

لكـن القـدس لم تظـل مـدة طويلـة بأيـدي الإفرنـج. فـإن قـوة المالـك الجديـدة كانـت عـلى وشـك الظهـور في الـشرق العـربي، فلـما ظهـرت في أواسـط القـرن؛ وفي السـنة التـي مـات فيهـا فردريـك، لم تنتظـر القـدس طويـلا حتـى عـادت إلى أيـدي أصحابهـا. ثـم لم تلبـث هـذه القـوة نفسـها حتـى أخرجـت الصليبيـين مـن سـوريا كلهـا، وكان ذلـك بعـد وفـاة فردريـك بنحـو أربعـين سـنة.

وكان الملـك الظاهـر بيـبرس البندقـداري مـن كبـار الرجـال الذيـن عملـوا عـلى إخـراج الصليبيـين مـن سـوريا. وقـد كان الملـك الظاهـر الـذي حكـم في النصـف الثـاني مـن القـرن الثالـث عـشر شـديد العنايـة في توثيـق الصـلات بينـه وبـين ملـوك أوروبـا وأمرائهـا. وممـن اتصـل بهـم منفـرد ملـك صقليـة فتبـادل معـه الرسـل والهدايـا. وأرسـل الظاهـر إلى منفـرد وفـدا مـزوّدا بالتحـف وأرسـل لـه عـددا مـن الـزراف وجماعـة مـن التتـار الذيـن أسروا في معركـة عـين جالـوت بخيولهـم التتاريـة وعدتهـم. ولمـا وصـل الوفـد إلى ملـك صقليـة تلقاهـم بالترحـاب وأعجـب بالهديـة وخاصـة بالـزراف والتحـف، وكان رئيـس الوفـد الظاهـري هـو ابـن واصـل قـاضي قضـاة حـماة.

وبعـد مـدة بعـث السـلطان هديـة مـع أحـد رسـله وبذلـك توثقـت عـرى الصداقـة بـين البلديـن.

ثـم اسـتمرت العلاقـات في عهـد خليفـة منفـرد شـارل أنجـو، فتبـادل الملـكان الرسـل والهدايـا والكتـب. ويظهـر أن الملـك الظاهـر أصبـح ذا نفـوذ في صقليـة. وهـذا الأمـر واضـح مـن كتـاب بعـث بـه أحـد رجـال الملـك شـارل إلى الملـك الظاهـر وقـد جـاء فيـه مـا معنـاه أن ملكـه شـارل أمـره بـأن

يكـون أمـر الملـك الظاهـر نافـذا في صقليـة وغيرهـا وأن يكـون الكاتـب نائبـا للملكـين.

ومـما لا ريـب فيـه أن الغـرض مـن هـذا الكتـاب وأمثالـه هـو تمهيـد الطريـق لعقـد معاهـدات تجاريـة بـين القاهـرة وصقليـة. وهـذه هـي النزعـة التـي كانـت تغلـب عـلى العلاقـات السياسـية في القـرن الثالـث عـشر ومـا بعـده بـين أوربـا والـشرق.

سورية كما عرفتها

•••

١- طبرية

من الأمور التي تلفت النظر في العالم المتمدن عناية الجماعات فيه بالتعرف إلى بلادها تعرفا دقيقا. فالفرد والحكومة يتعاونان تعاونا وثيقا في سبيل رسم صورة صحيحة للبلاد يعطاها الناشئ في صغره، فإذا شب أخذ في التنقل في بلاده، مستطلعا خفاياها، متعرفا إلى أماكن الجمال فيها، فيقوى اتصاله الشخصي بها، ويحبها، ومتى تم ذلك شعر المرء بواجبه نحو بلاده وقومه، فلا يمتنع عن التضحية إذا دعا الداعي، ولا يفرط في أمورها متى جد الجد. وقد سهلت وسائل الاتصال الحديثة التنقل، فصار من الميسور على أي شخص أراد ذلك أن يزور القسم الأكبر من بلاده. وكثرت الجمعيات والأندية التي تنظم الأسفار والرحلات، والتي تقيم في المراكز الرئيسية أماكن يلجأ إليها الشباب في تنقلهم ورحيلهم لقاء أجر ضئيل جدا. ففي إنكلترا مثلا يوجد ما يعرف باسم منازل الشباب youth hostels التي يقضي فيها العضو ليلة لقاء بضعة قروش، ويتناول طعاما خفيفا، ولكنه مغذ، بسعر رخيص، لكن عليه أن يقوم بتنظيف المكان الذي أقام فيه قبل رحيله في الصباح. وهذا أمر لا يستغرق من الجهد والوقت إلا الشيء القليل.

وفى أوربا تصل الطرق على اختلاف أنواعها إلى أكثر القرى، بله المدن، وهذا بالطبع ييسر التنقل، ولعل الدراجة العادية (البسكليت) أكثر الوسائل استعمالا عند الشباب والشابات في غرب أوروبا. وما أكثر ما

تشاهد جماعات كبيرة تنتقل من شرق فرنسا إلى غربها مثلا على هذه الدراجات.

ونحن إذا نظرنا إلى أنفسنا، وجدنا أننا مقصرون تقصيرا كبيرا نحو بلادنا. وقد شمل التقصير الأفراد والجماعات. فما أقل ما نعرف عن دارنا. ولست أريد أن ألوم أحدا، رغم كثرة من يقع اللوم عليهم، ولكني أود أن ألفت نظر قرائي الكرام إلى هذه الناحية من حياتنا، فبلادنا جميلة، شهدت لها الأعداء أم لم تشهد وبلادنا تستحق منا أن نبذل في سبيلها جهدا سيما وأن هذا الجهد يعود علينا بالفائدة والسرور. وهذا التعرّف إلى بلادنا العربية، الذي أدعو إليه اليوم، أمر خبرته بنفسي ولمست أثره في كياني الروحي والعقلي، فإن تجوّلي فيها حبب إلى بلادي وقومي، وأفهمني معنى الوطنية أكثر من كل ما سمعت من مدرسي، وقرأت في الكتب.

وذلك أنَّني تجولت في سوريا على الأقدام، فوصلت إلى بقاع لا تعرف السيارة، ولم تسمع بالقطار، وشهدت أن هناك الطبيعة في جمالها الرائع وسمعت خرير السماء عند منابعه النائية، واستنشقت هواء الجبال الشماء النقي، وراقبت الشمس تشرق فوق الصحراء السورية وتغرب على شواطئ البحر المتوسط وشاركت قومي مواسمهم وأفراحهم وأتراحهم في عقر دورهم، فاختلطت بهم نفسي وشعرت أنني جزء من كل، وأن ذلك الجزء حري بهم أن يفني في سبيل الكل إذا اقتضت المصلحة ذلك.

ولا شـك أنـه مـن السـهل عـلى كل امـرئ أن يصـل إلى دمشـق وحلـب وبـيروت وأنطاكيـة ومصايـف لبنـان، ومـن تضطـره أعمالـه أو صحتـه إلى الاكتفـاء بالسـفر السـهل فليفعـل ذلـك، لكـن مـن يسـتطيع أن يمـشى في بـلاده فليمـش مـا وجـد إلى ذلـك سـبيلا. والمـشي أو ركـوب الدابـة إذا شـاء، هـو الـذي يوصلـه إلى قمـة جبـل الجرمـق وجبـل الشـيخ وجبـل صـين وجبـل الشـعرا وظهـر القضيـب، والمـشي هـو الـذي ينقلـه إلى منابـع الأردن ومنابـع نهـر إبراهيـم وميـاه العاقـورة ونبـع اللـبن والعسـل وجـسر الحجـر، والمـشي هـو الـذي يحملـه إلى ديـر مـار سـابا والنبـي يونـس وسـبلان.

ولأنتقـل السـاعة مـن التعميـم إلى التخصيـص فأتحـدث عـن منطقـة صغـيرة في سـوريا، لكنهـا عـلى صغرهـا، تحـوي مـن مغـاني الجـوال وذكريـات التاريـخ مـا يسـتحق أن تشـد إليـه الرحـال.

في شـمال فلسـطين مجموعـة مـن الميـاه تشـغل جـزءا مـن غـور الأردن تقـل مسـاحته عـن الثلاثمائـة الثلاثمائـة مـن الكيلومـترات المربعـة، وينخفـض سـطح المـاء فيهـا نحـو مئتـين مـن الأمتـار عـن سـطح البحـر. وتحيـط بهـذه الميـاه جبـال ترتفـع في أكـثر الأحيـان ارتفاعـا فجائيـا، وفى أقلهـا تدريجـا، إلى مئـات الأمتـار. هـذه هـي بحـيرة طبريـة. وهـي مثـل مـن الأمثلـة الكثـيرة عـلى أماكـن الجـمال وبقاعـه في بلادنـا. والحـق أنـه لا يجـوز أن يخـرج أحـد أبنـاء بلادنـا إلى الخـارج قبـل أن يـزور هـذه المنطقـة. ذلـك لأنهـا تضـع أمامـه مقياسـا رفيعـا للجـمال يسـهل عليـه الحكـم عـلى مـا يـرى في أجـزاء كثـيرة مـن العـالم، والمقيـاس الرفيـع هـذا يرجـع إلى تنـوع الصـور الجميلـة التـي تنطبـع في ذاكرتـك للأماكـن. فأنـت تجلـس في صبـاح يـوم

أيـام الربيـع لتراقـب الشـمس تجـد السـير للطلـوع علينـا. فـإذا مـا بـدت لـك تباشـيرها رأيـت غيمـة تعترضهـا، وينتقـل بـك الخيـال إلى مشـاهدة خصومـة عنيفـة بـين الشـمس والغيمـة، فترتفـع الواحـدة وترتفـع الأخـرى، وتـوشي الشـمس أطـراف الغيمـة بخيـوط فضيـة، ثـم بخيـوط ذهبيـة، فتعجـب الغيمـة بجمالهـا، وتقيـه لـدلالا فيغلبهـا النـور الوضـاح، وتزهـو الشـمس في الأفـق. فـإذا جئـت في صبـاح آخـر لـترى مثـل ذلـك الـشروق الجميـل، ولتسـتمتع مـرة ثانيـة بهـذه الخصومـة تشـنها جيـوش النـور عـلى فلـول الظـلام وأعوانـه شـهدت عجبـا. هـذه الغيمـة اسـتعانت بأخـوات لهـا، عزيـزات عليهـا، وتقـف الغيـوم في طريـق الشـمس، فـإذا ظهـرت هـذه رأت عجبـا مـن القـوة والنفـوذ، فتلـح في حقهـا، وتجمـع قوتهـا، وتهاجـم، وتشـتد الخصومـة ويجـرد السـلاح، ويعنـف القتـال، وتسـيل الدمـاء، وكل ذلـك صـور تتعاقـب أمامـك وتملـؤك سرورا ومتعـة، وتثـير في نفسـك كوامنهـا وتهيجـك للقتـال والجهـاد فـإذا انتهـت المعركـة بتغلـب النـور أيضـا، رأيـت الشـمس رفيقـة بالغيـوم المنهزمـة والمضرجـة بدمائهـا، فهـي تجمـع لهـا الـورود تنثرهـا عليهـا، ثـم تلفهـا كلهـا بنورهـا، وتنقلهـا معهـا إلى حيـث ينقـل الأبـرار والصالحـون مـن أبنـاء الآلهـة.

وإن لم تكـن مـن عشـاق الـشروق، فأنـت واجـد في قـارب يمخـر بـك ميـاه البحـيرة، يشـق بحيزومـه ماءهـا في سـاعة مـن سـاعة الصبـاح، أو سـاعة مـن سـاعة المسـاء، مـا يذهـب عنـك التعـب، أو مـا يعطيـك رياضـة جسـمية إذا أرحـت المـلاح عملـه وتناولـت مجاديفـه وحركتهـا بـدلا منـه. وأنـت إذ تنتقـل مـن مـكان إلى آخـر في البحـيرة، توجـه وجهـك نحـو جبـل الشـيخ

الملتحـف بردائـه الأبيـض، فترضـاه لـك قبلـة تتولاهـا، تسـتر شـد بـر شـده وتهتـدي بهديـه، وتعجـب بعظمتـه وتقـوى بقوتـه، وتشـعر بمعنـى رسـوخ العقيـدة، والاطمئنـان إلى الإيمـان.

عـلى أن بحـيرة طبريـة تحـوي في ربوعهـا غـير هـذا الـذي ذكـرت. فقـد اختصـم فيهـا النـور والظـلام غـير مـرة، وانتـصر النـور. شـواطئ البحـيرة شـهدت الكثـير مـن تنقـل السـيد المسـيح ووعظـه وإرشـاده وأعمالـه، ومـن صيـادي السـمك هنـاك أخـذ السـيد المسـيح بعـض رسـله، وبـين أهليهـا عـاش. فالمجـدل، بلـد مريـم المجدليـة، وجبـل البركـة وكفـر ناحـوم (تلحـوم) وبيـت صيـدا، أماكـن تثـير في نفـس المؤمـن ذكريـات حيـة، وتفتـح أمامـه آفاقـا جديـدة في التفكـير الروحـي، وتقـدّم لـه ألوانـا مـن الغـذاء المعنـوي، لا يحصـل عليـه في أماكـن كثـيرة في بلادنـا.

وعـلى مقربـة مـن البحـيرة، في وادي اليرمـوك وضعـت أسـس القوميـة العربيـة لهـذه البـلاد لمـا انتـصر ابـن الجـراح عـلى جيـوش هرقـل وهزمهـا سـنة ١٥ هجريـة (٦٣٦ ميلاديـة)، وعنـد شـعاب حطـين، إلى الغـرب مـن البحـيرة، لـق صـلاح الديـن جيـوش الصليبيـين، وانتـصر عليهـم، وأثبـت رسـالة اليرمـوك في هـذه البـلاد، ونحـن إذا توسـعنا في المنطقـة قليـلا تذكرنـا معركـة عـين جالـوت التـي ردّت جمـوع المغـول عـن سـوريا في القـرن الثالـث عـشر. نعـم هـذه هـي النواحـي الروحيـة والقوميـة التـي تنعشـها في نفوسـنا بحـيرة طبريـة ومـا حولهـا.

عـلى أننـا، ونحـن نسـتعرض هـذه النواحـي مـن بحـيرة طبريـة، ورسـالتها الروحيـة، نـود أن نذكـر النواحـي الأخـرى لهـذه المنطقـة. فثمـة الناحيـة

الصحيـة المتجليـة في حماماتهـا المعدنيـة، وفى الحمـة التـي يسـهل الوصـول إليهـا منهـا، وفي الينابيـع الأخـرى الصغـيرة المنتـشرة في ربوعهـا، وفي المصـح الـذي افتتحتـه إدارة الصحـة العامـة بفلسـطين في الطابغـة. وثمـة الناحيـة الأثريـة التـي يعنـى بهـا المؤرخـون والمنقبـون، والتـي يجدونهـا ممثلـة في دراسـة أنقـاض طبريـة القديمـة وكفـر ناحـوم ومـا إليهـما. وقـد ظهـر مـن نتيجـة هـذه الأبحـاث أن بحـيرة طبريـة كان يحيـط بهـا في أيـام المسـيح بضـع عـشرة مدينـة يبلـغ عـدد سـكانها كلهـا نحـوا مـن ١٥٠٠٠٠ نسـمة. وفي المدينـة نفسـها بقيـة الأبـراج والأسـوار التـي بناهـا ولـد الظاهـر عمـر في القـرن الثامـن عـشر للدفـاع عنهـا

ومـن هنـا نـرى أن التنـوع في جهـات بحـيرة طبريـة هـو العامـل الرئيـسي في حسـبانها بقعـة جميلـة جذابـة، هـذا عـلى أن يحسـن المـرء اختيـار الوقـت لزيارتهـا، وأفضلـه الشـتاء والربيـع. عـلى أننـي عرضـت البحـيرة وجهاتهـا في الصيـف غـير هـرة، ونعمـت بحرهـا، وهـو شرهـا، ونعمـت بمائهـا وهـو الخـير كل الخـير. وأن أنـس لا أنـسى يومـا حـارا مـن أيـام الصيـف صرفتـه مـع جماعـة مـن الصحـب تنقلنـا فيـه في قـارب بـين المدينـة وتلحـوم والطابغـة والمجـدل. فحرقتنـا الشـمس مـا شـاء لهـا أن تحـرق، وغمرنـا المـاء مـا شـاء لـه أن يغمـر، وشـاركنا البحـارة في التجديـف، وسـاعدنا الصياديـن في لم شـباكهم، فأعطونـا مـن السـمك الـذي أفـاء اللـه بـه عليهـم، وأوقدنـا النـيران وشـوينا السـمك واسـتمتعنا بـه. فـكان لنـا كل مـا يكـون لطالـب النزهـة والراغـب في اللهـو الـبريء، والمـرح الـذي يذهـب عـن النفـس أحزانهـا، ويورثهـا ذكريـات عذبـة.

والوصـول إلى بحـيرة طبريـة ميسـور عـلى كل مـن أراد. فهـي تقـع عـلى طريـق العربـات الرئيـسي الـذي يصـل دمشـق وصفـد بحيفـا. وهـي إلى ذلـك عـلى فـرع سـكة الحديـد الحجازيـة الـذي يمتـد مـن درعـا إلى حيفـا. فهـي في متنـاول المقـدسي في أقـل مـن خمـس سـاعات، وفي متنـاول الشـامي في مـدة تزيـد عـلى ذلـك. أمـا أبنـاء المـدن الأخـرى فأمرهـم أهـون وخطبهـم أيـسر. ومتـى وصـل المـرء إلى طبريـة واسـتقر فيهـا اتخذهـا مركـزا لتجوالـه، ونقطـة ابتـداء لأسـفاره. وكل جـزء مـن شـاطئ البحـيرة وضفافهـا حـرى بالزيـارة. فمحـب السـير عـلى الأقـدام يمتـع نفسـه بتسـلق وادي الحـمام إلى قلعـة ابـن معـن، وهـي مجموعـة مـن المـآوي المنحوتـة في الصخـر والكهـوف الطبيعيـة عـلى عـدوات الـوادي، يتسـلق إليهـا المـرء في شيء كثـير مـن الصعوبـة، وشيء كثـير مـن المتعـة، فـإذا وصلهـا أطـل منهـا عـلى البحـيرة الهادئـة الصافيـة وخلفهـا جبـال الجـولان البركانيـة، فـرأى منظـرا ينطبـع أثـره في النفـس ويعجـز الانسـان عـن وصفـه، وإذا اسـتمر في سـيره سـاعة أخـرى وصـل إلى خربـة إربـل أو أربـد، حيـث يعـثر عـلى أنقـاض قـصر هـو أحـد القصـور الصغـيرة التـي بناهـا الأمويـون لاعتـزال الحيـاة الصاخبـة في دمشـق والاسـتمتاع بحيـاة خاصـة هادئـة. وإن سـاعة أخـرى لتنقـل السـائر إلى سـهل حطـين، حيـث جـرت الموقعـة الحاسـمة، والى قريـة حطـين حيـث يوجـد مقـام النبـي شـعيب. فـإذا تسـلق قـرون حطـين، وألقـى بنظـرة إلى البحـيرة والغـور الـذي تشـغل بعضـه، تمثلـت أمامـه حقبـات التاريـخ منـذ أن انتقـل الإنسـان مـن الهمجيـة إلى الحضـارة إلى عصرنـا الحـاضر.

أمـا الذيـن يحبـون التجديـف فانهـم واجـدون في يـوم أو أكـثر متعـة لا أحسـب أن أماكـن كثـيرة في العـالم تجـود بمثلهـا. أنهـم واجـدون لـذة في

الانتقـال عـلى شـواطئ البحـيرة كلهـا في قـارب، يحملـون فيـه زادهـم، وقـد يحملـون معهـم خيمـة، إذا شـاءوا، ليقضـوا ليلـة في الجهـة الشـمالية الشرقيـة مـن البحـيرة، وهـم إذ يصلـون إلى فيـق، في الجهـة المقابلـة لطبريـة تمامـا، يـرون هنـاك آثـار الطريـق الرومـاني القديـم الـذي كان يمتـد مـن مـرج ابـن عامـر، مـارا بجنـوب البحـيرة ومنهـا إلى دمشـق بطريـق فيـق. وكان يتشـعب مـن هـذا الطريـق فـرع يحمـل المسـافرين إلى جـدرو أو جـدارا التـي كانـت تقـوم حـول الحمـة الحاليـة، ذات الحمامـات المشـهورة. لقـد كانـت جـدرو في العـصر اليونـاني الرومـاني كبـيرة ذات مـسرح ومسـبق وملعـب، فتمثلـت فيهـا الحضـارة الرومانيـة بأجـلى مظاهرهـا، ونبـغ منهـا شـعراء وأدبـاء. والطريـق الحاليـة مـن سـمخ إلى الحمـة تتبـع آثـار هـذه السـكة الرومانيـة، محاذيـة نهـر اليرمـوك إلى درجـة كبـيرة.

ومـن وصـل إلى بيسـان، وهـي عـلى مسـافة يسـيرة مـن جنـوب البحـيرة، رأى مـا فيهـا مـن خصـب ورخـاء وأشرف عـلى غـور أبي عبيـدة، حيـث يقـوم قـبر أبي عبيـدة ابـن الجـراح، بطـل اليرمـوك

وقـد كانـت الأراضي المحيطـة ببحـيرة طبريـة دائمـا مركـزا رئيسـيا لإنتـاج نباتـات المنطقـة الحـارة. ولا غرابـة بذلـك، فهـي تنخفـض نحـو مائتـي مـتر عـن سـطح البحـر، والحـرّ فيهـا موفـور والمـاء كثـير. وقـد روى جغرافيـو العـرب، عـلى اختـلاف ألوانهـم، الكثـير مـن أخبـار المنطقـة. فبانيـاس ونـوى إلى الشـمال حـول الحولـة، كانتـا هريـا لدمشـق في الأرز والقطـن، وطبريـة كانـت تكـثر فيهـا، عـلى روايـة نـاصري خـسرو، البيـوت المعـدة لطـلاب الـسرور واللهـو الآتـين إليهـا مـن أماكـن كثـيرة. ويـروى الرحالـة نفسـه أن

حـصر الصـلاة التـي كانـت تصنـع في طبريـة كانـت جيـدة متقنـة فتبـاع واحدتهـا بخمسـة دنانـير، أي مـا يزيـد عـلى الجنيهـين بعملـة اليـوم.

أمـا بيسـان فـيروى المقـدسي أن مـزارع الأرز فيهـا كانـت تكفـي سـكان جنـدي الأردن وفلسـطين، وينقـل القلقشـندي أنهـا كثـيرة الخصـب واسـعة الـرزق.

هـذه هـي منطقـة طبريـة، وهـي عـلى مـا خبرتهـا بنفسي، واحـدة مـن البقـاع الرئيسـية في بلادنـا التـي تسـتحق أن يتعـرف إليهـا كل واحـد منـا. فليقـم كل منـا بواجبـه في التعـرّف إلى البـلاد العربيـة وليبـدأ بطبريـة وبحيرتهـا. فإنهـا بدايـة طيبـة.

٢ - إلى جبل الشّيخ

أمنيـة جاشـت في نفـسي منـذ أن كنـت يافعـا - هـي أن أصـل إلى قمـة جبـل الشـيخ. فقـد رأيـت الجبـل الكبـير، رابضـا عـلى أطـراف السـهول الواسـعة لأول مـرة، إذ كنـت مسـافرا مـن دمشـق إلى حيفـا، فألهـاني منظـره عـن الأراضي الفسـيحة التـي يجتازهـا المسـافر، وشـغلتني رؤيتـه عـن كل مـا عـداه، فمـلأ نفـسي رهبـة وشـاعت فيهـا خشـية الـشيء العظيـم الأبي، ورغبـت في أن أرقـاه. وكنـت أينـما سرت في مرتفعـات هـذه البـلاد، يبـدو لي جبـل الشـيخ يدعـوني لارتقائـه، وكأنـه يتحـداني. وكل مـرة كنـت أسـمع فيهـا دعوتـه، كنـت ألبـي نـداءه وأعـده بالذهـاب، حتـى تـم لي ذلـك مرتـين، فتسـلقت جبـل الشـيخ مـن جهتـين مختلفتـين، وبشـكلين متباينـين، وعرفـت لـذة الوصـول إلى القمـة، وأدركـت معنـى الاسـتمتاع بالأفـق الواسـع يـشرف

منـه المـرء عـلى الأمـور إشرافـا كليـا، فتغيـب الجزئيـات والصغائـر أمـام الكليـات والعظائـم.

كان اليـوم أحـد أيـام النصـف الأول مـن شـهر آب (أغسـطس)، وكان الحـر شـديدا، سـيما وأن الليلـة السـابقة قضيناهـا في الخالصـة شـمالي بحـيرة الحولـة في غـور الأردن. وكانـت الشـمس قـد مـلأت الأفـق، لمـا اتخذنـا طريقنـا - أنـا وصديقـي - مـن الخالصـة إلى جباتـا الزيـت. كانـت طريقنـا تمـر في بقعـة مـن أجمـل بقـاع بلادنـا، إذ كان علينـا أن نجتـاز المنطقـة التـي تقطعهـا روافـد الأردن. وكان تـل القـاضي أجمـل هـذه الينابيـع وأولهـا في طريقنـا. فقـد وصلنـا إليـه قبيـل الظهـر، فأشرفنـا عـلى تلـة، لعـل طولهـا لا يتجـاوز الثلاثـين مـن الأمتـار، ولا تـكاد ترتفـع عشريـن مـترا، تكسـوها الأشـجار والأنجـم البريـة، وينبثـق مـن غربهـا نبـع مـاء قـوى، يشـق طريقـه مـن أحشـاء الأرض ويـبري الجنـادل في سـيره، ويمـلأ الجـو صوتـا موسـيقيا، ويمـلأ النفـس لـذة وسرورا. ويـأبى الرعـاة إلا أن يجعلـوا لهـذا الشـجر الجميـل هالـة مـن القداسـة، فهـم يحملونـك عـلى أن تـرى عـشر شـجرات منفـردة عـن غيرهـا، وإذ تقتنـع بذلـك يتقـدم أحدهـم فـيروى لـك، في كثـير مـن الإيمـان وكثـير مـن اليقـين، أن عـشرة مـن الصحابـة الكـرام مـروا بهـذا المـكان، فربطـوا خيولهـم في أوتـاد غرسـوها خاصـة لذلـك، فـاذا الأوتـاد تنبـت شـجرا كريمـا، وإذا الشـجرات العـشر تبقـى إلى يـوم النـاس هـذا.

وإن سـاعة وبعـض السـاعة مـن المـشي لتنقلنـا إلى بانيـاس، فنجتـاز في طريقنـا أرضـا خصبـة جميلـة، مكسـوة بالأشـجار، ونعـبر النهـر عـلى بقيـة صالحـة مـن جـسر رومـاني، فنصـل إلى غـار كبـير - بعـض أجزائـه حمـراء.

ومـن صـدر الغـار يخـرج نهـر كامـل العـدّة والصـورة. وإذ تقـف داخـل الغـار: فـترى هـذه الـولادة العجيبـة، وتمتـع نفسـك بهـذا الجـمال الفـذ، وتسـتروح معنـى هـذا الانبعـاث، تفهـم الـسر في أن الأقدمـين قدّسـوا هـذا المـكان وباركـوه وعـزوا إليـه قـوة خارقـة، فعبـد السـاميون القدمـاء فيـه آلهـة الماء الجاريـة تحـت الأرض، وكرسـه اليونـان للإلـه بـان وإلهـات السـحر الجميلـة. ومـن «بـان «اشـتقت المدينـة والمنطقـة اسـمها، واحتفظـت بـه، رغـم أن كل حاكـم أقـام هنـاك حـاول أن يغـير المدينـة ويسـميها باسـمه. لكـن الأيـام حفظـت اسـم الإلـه الجميـل، واسـتغنت عـن أسـماء الحـكام، ولم يكتـف «بـان «بطبـع المـكان بطابـع الاسـم، لكـن أثـره تعـدّى ذلـك إلى النقـود التـي سـكت هنـاك، فظهـرت صورتـه عليهـا، يحمـل نايـه يغنـى الأغنيـة التـي تبقـى بعـد أن تفنـى الحيـاة.

وبانيـاس اليـوم قريـة، قـد لا يتجـاوز عـدد سـكانها الألـف، لكنهـا كانـت في أيـام الرومـان والعـرب مدينـة كبـيرة، تتركـز فيهـا الحيـاة التجاريـة والزراعيـة والإداريـة للمنطقـة كلهـا. وقـد أعجبـت ابـن جبـير إذ مـر بهـا في طريقـه مـن دمشـق إلى عـكاء فقـال فيهـا «هـذه المدينـة ثغـر بـلاد المسـلمين) وهـي صغـيرة) ولهـا قلعـة يسـتدير بهـا تحـت السـور نهـر، ويفـضي إلى أحـد أبـواب المدينـة ولـه مصـب تحـت أرجائهـا... ولهـا محـرث واسـع في بطحـاء متصلـة يـشرف عليهـا حصـن للإفرنـج يسـمى هونـين:

عـلى أن القلعـة الرئيسـية التـي تحمـى المنطقـة منـذ أقـدم الأزمنـة لم تكـن قلعـة بانيـاس نفسـها، ولكنهـا قلعـة الصبيبـة التـي تقـع عـلى مسـير نحـو سـاعة إلى الـشرق مـن بانيـاس. هـذه القلعـة، عـلى مـا تظهـر مـما تبقـى

منهـا قائمـا إلى الآن، أكثرهـا مـن نتـاج العـصر الصليبـي، وعليهـا نقـش «يرجـع إلى أيـام الملـك العـادل. وتقـع القلعـة عـلى مرتفـع مـن الأرض يمكـن الواقـف عـلى أعلاهـا مـن رؤيـة قلعـة الشـقيف (أرنـون) وهونـين غربـا، وسـهل الحولـة وقـرا، غربـا في جنـوب وجباتـا الزيـت شرقـا. وقـد أطلقـت الأسـطورة المحليـة، منـذ زمـن قديـم، عـلى القلعـة اسـم قلعـة نمـرود.. ذلـك لأن ضخامـة الحجـارة، وعظـم البنـاء، وارتفـاع الأبـراج، وحصانـة الأسـوار - كل أولئـك أقنـع النـاس منـذ أجيـال أن هـذه القلعـة مـن بنـاء الجبابـرة القدمـاء لا مـن عمـل الإنسـان، فنسـبوها إلى بطـل الجبابـرة نمـرود.

أليـس في هـذه الأماكـن متعـة تهيـئ المـوء السـائر فيهـا لقبـول ضيافـة المسـاء في جباتـا الزيـت، إذ يصلهـا والشـمس قـد جمعـت آخـر خيـوط لهـا في الأفـق؟ ونقـضي بعـض المسـاء في تحـدّث عـن رحلـة الغـد. نعـم إلى قمـة جبـل الشـيخ الواقعـة جباتـا عـلى طرفـه الجنـوبي. أن حلـم الصبـي عـلى وشـك أن يتحقـق. ويتقـدّم القـوم المجتمعـون محاولـين إقناعنـا بالعـدول. فالطريـق صعـب المرتقـى والمسـافة طويلـة، والمـاء نـزر، ولا سـبيل إلى الحصـول عـلى دليـل يرافقنـا. ويـرى مضيفنـا أننـا نسـمع كلامـه وكلام رجالـه، دون أن نقبـل نصحهـم، ويتأكـد مـن أننـا لا بـد صاعـدان. فهيـئ لنـا كل مـا نحتـاج، فثمـة دليـلان بـدل الواحـد، وكل منهـما يـأتي ببغلتـه معـه، عـلى سـبيل الاحتيـاط. والحيطـة هـذه ظهـرت بعـد سـاعات إذ امتطـى كل مـن الدليلـين دابتـه وسـارا يرشـدانا إلى الطريـق. وهـذا مضيفنـا الكريـم يعـد لنـا زادا كثـيرا، ومـاء نحملـه في تنكتـين، فقـد لا نجـد عنـد القمـة ثلجـا

نذيبـه، لأن ذوبـان الثلـج بـدأ مبكـرا تلـك السـنة، ولعلـه زال مبكـرا تلـك السـنة، ولعلـه زال كلـه عـن الجبـل، وهـذا مـا لقينـاه فعـلا.

كانـت السـاعة الرابعـة صباحـا لمـا خرجنـا مـن جباتـا. وأن أنـس لا أنـس مختـار القريـة، وقـد رآنـا نخـرج منهـا، إذ لحـق بنـا يحـاول في آخـر لحظـة أن يثنينـا عـن عزمنـا. لقـد أقسـم بوجـود الخطـر، ولمـا يئـس منـا، بعـد أن سـايرنا مسـافة طويلـة، أشـهد الفلاحـين علينـا أنـه بـراء مـن دمنـا، إذا مسـنا ضر، فقـد أنذرنـا ولم نلتفـت لـه، وتركنـا صاخبـا.

سرنـا بـين كـروم العنـب أولا، لكـن هـذه لم تلبـث أن انقطعـت. واسـتعضنا عـن رفقـة الكـرم بالحمـص الأخـضر، حتـى وصلنـا «مـرج أبـو عبـد اللـه »، وهـو آخـر الجـزء الـذي يـزرع ولم نـر بعـد ذلـك إلا بقيـة أعشـاب ترعاهـا الماشـية، التـي تصطـاف هنـاك مـع رعاتهـا، وترتـوى مـن نبعـة «معنـون «البـاردة، عـلى أن الأعشـاب نفسـها أخـذت تتناقـص شـيئا فشـيئا وتحـل محلهـا نباتـات شـائكة ذات رائحـة زكيـة.

بعـد عـشر سـاعات مـن السـير وجدنـا أنفسـنا عـلى قمـة جبـل الشـيخ، عـلى قـصر عنـتر أو شـيبوب، وعـلى أنقـاض الهيـكل القديـم المكـرس لبعـل حرمـون. وإن كان الهيـكل القديـم ومـن العبـادة الإلهيـة، وقـصر شـيبوب ومـن البطولـة الفـذة، فعـلى قمـة جبـل الشـيخ أثـر صغـير هـو رمـز الأمثـال العربيـة. فهنـاك رأينـا قطعـة رخـام منقـوش عليهـا ذكـرى زيـارة المغفـور لـه فيصـل الأول لقمـة جبـل الشـيخ أيـام كان ملـكا لسـوريا.

ولجبـل الشـيخ ثـلاث قمـم - قـصر عنـتر في الجنـوب وأخـرى في الشـمال، وهـما متسـاويتان في الارتفـاع البالـغ ٢٧٥٣ مـترا، أمـا الثالثـة فتقـع في

الغـرب، وتنخفـض عنهـما قليـلا. وامتـداد جبـل الشـيخ العـام مـن الشـمال الشرقـي إلى الجنـوب الغـربي، وطولـه يتجـاوز الثلاثـين مـن الكيلـو مـترات.

أمـا المـرة الثانيـة فقـد كان صعـودي جبـل الشـيخ مـن راشـيا، مـن الغـرب، بدأنـا السـير في العـاشرة مسـاء، وأمامنـا الدليـل ومعـه بغلتـه تحمـل زادنـا ودثارنـا، فقـد أنبئنـا أن الـبرد يكـون في الصباح.شـديدا. كانـت الليلـة هادئـة، وكان القمـر بـدرا أو يـكاد، وكانـت النفـس مطمئنـة، وكانـت السـفرة مهيـأة، وأراد اللـه أن يتـم نعمتـه علينـا فـكان دليلنـا رخيـم الصـوت. ولم نكـد نلتحـف الـوادي، ونطمـئن إلى أننـا في الطريـق الصحيـح، حتـى أخـذت صاحبنـا فـــورة مـن الطـرب، فانطلـق يغنـى غنـاءه الجبـلي القـوى العـذب، وأخـذ الـوادي يـردّد صـدى غنائـه، فيبعـث في نفوسـنا رهبـة الجبـل العظيـم، وسرور الطبيعـة، وأمـل الليـل البهيـم. فعتـب صاحبنـا مـا شـاء لـه الهـوى، (وميجـن) مـا شـاءت لـه الذكـرى، ودلعـن) مـا هاجـه غرامـه، وهـو في كل ذلـك جـذلان طـرب، ونحـن معـه جـذلان طربـان.

إنهـا قرابـة خمـس سـاعات، فـإذا الدليـل يصيـح بأننـا عـلى وشـك أن نصـل وإذا بالطبيعـة تقـدم لنـا كهفـا يـأوي إليـه صديقـي والدليـل، فيعطيـان جسـدهما حقـه مـن الراحـة، وأبى أنـا عـلى نفـسي ذلـك. لقـد خشـيت إن أنـا اسـتلقيت أيضـا أن تأخذنـا كلنـا سـنة مـن النـوم، فـلا نصحـو إلا وقـد أضعنـا الفرصـة، لقـد كنـت ضنينـا بـأن أضيـع هـذا الجهـد دون أن أرى هـذا المنظـر الجميـل الـذي تتعاقـب عليـه السـنون، فـلا تبـلى جدتـه، ولا تزيـل أثـره. أبيـت عـلى نفـسي أن أعطـى جسـدي حقـه، وقمـت بـدور الحـارس، فلـما حسـبت أنهـما اكتفيـا، أيقظتهـما، وتابعنـا السـير. ولم نـسر إلا نصـف

ساعة فإذا بنا على قصر عنتر، وإذا بي أقف هناك للمرة الثانية. ولكن هذه المرة في آخر الليل، وكانت المرة الأولى في وضح النهار.

ولست أشك، بعد أن وقفت على قمة أكثر الجبال المرتفعة في سوريا، أن ما يراه المرء من قمة جبل الشيخ أوسع من كل ما يرى من أي جبل آخر. وتنوع المناظر التي تجتليها العين من قمته لا يتيسر في مكان آخر. فأنت إذ تقف على قمة الجبل - على أنقاض قصر عنتر أو هيكل بعل حرمون - وتمد ببصرك حولك، تستجلي عينك آفاقا مترامية، وأبعادا شاسعة: ففي الغرب يخيل إليك أن البحر، بين جبل الكرمل وصور، يرتمى عند موطئ قدميك، وترى وادي نهر القاسمية يمتد أمامك كأنه يرشد نظرك إلى مغاني الجمال الفاتن. وهذا الوادي نفسه يريك حدا فاصلا بين لبنان الجنوبي وجبال الجليل، التي تحمى الحولة وطبرية وسهليهما من المكروه، فإذا صوبت نظرك في اتجاه الشمال رأيت الجبل الشرقي، وجبال النصيرية، أما في الشمال الشرقي فأنت تطل على دمشق وغوطتها التي تضم كل البقاع الخضراء على سيف البادية. وممة اللجاة ذات الصخور النارية، وحوران وسهوله الخصبة. وفى الجنوب الشرق الجولان وفوهاته البركانية. أليس في هذا الاتساع والعلو ما يحملك على احترام شيخ الجبال وسيدها، والاطمئنان إلى العزيمة التي تخلفها في نفسك الإقامة فوقه ساعات، قلت أو كثرت.

على أن كل هذا الذي ذكرت لا يعدو جزءا صغيرا من الحقيقة كما تلمس هناك، والتي لا سبيل لي إلى وصفها. بل أن هناك منظرا آخر ينقل ناظره إلى جنات من الخيال ويحمله على أجنحة من الإعجاب لا

يستطيع أن يدركها إلا من حمل نفسه مؤونة تسلق جبل الشيخ

كان الليل لا يزال يرخى سدوله الكثيفة على قمة الجبل لما وصلناه في المرة الثانية. وكان القمر رفيقا بنا في سيرنا، لكنه ازداد بنا رفقا لما وصلنا، إذ تركا لما نحن قادمون عليه واختفى في الغرب وعلى فمه ابتسامة من يعرف ما يخي القدر لهذه الجماعة الصغيرة من متعة ولذة. واختفى دون إنذار أو تحذير، حتى كدنا نتعثر في سيرنا في الجزء الأخير من القمة العنترية. وما استقر بنا المقام حتى تدثرنا بالسميك من أحرمتنا واتجهنا نحو الشرق نرتقب الجمال والضياء

ولم يطل انتظارنا. بدت تباشير النور في أشعة فضية باهية، تبين لنا فيها الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أغدقت هذه الأشعة من نورها على الأفق العريض البعيد، فبدا كله مفضضا، ثم استحالت فضته ذهبا يخالطه مزيج من الألوان الناشئة عن انعكاس الأشعة على السماء الزرقاء والرمال المنتشرة في عرض الأفق. ولم تلبث الشمس نفسها أن تجاوزت الخط الفاصل بين الأرض والسماء، فبدا كل شيء موشى بنورها ملتحفا بضيائها. وشعرت آنئذ أن الحياة انبعثت في كل ما يرى، من جديد، فظباء الفلاة أخذت تتلفت نحو مصدر الحياة السماوي، ورمال الصحراء أخذت ترقص طربا وحبورا، وأزاهير غوطة دمشق وأشجارها نفضت عنها رداء الليل البهيم، ووجهت وجهها نحو الشمس وحنت رؤوسها إجلالا لها. ملا قلبي بعض هذه الحياة التي انتشرت في كل شيء، فملات فراغه، وأشاعت فيه امتلاء روحيا. ووقفت في مكاني مشدوها لا أتحرك ولا أتلفت، حتى كأنني أصبحت جزءا من

جبل الشيخ. وعندها سرت في نفسي شرارة من عزيمته وثباته، فرأيتني أحس بقوة ونشاط عجيبين. وطال استمتاعي بالمنظر الخلاب، تتبدل فيه الألوان دقيقة بعد دقيقة، وتتوالى فيه الصور مع تبدل الألوان، حتى صاح صديقي «انظر». فتلفت إلى حيث أشار فرأيت ظل جبل الشيخ مبسوطا على سهل البقاع والجبال الواقعة إلى الغرب منه، ثم رأيت هذا الظل المديد يتقلص تباعا لارتفاع الشمس في الشرق.

وهكذا تمت أمنيتي مرتين، فعرفت جبل الشيخ. وانحدرت منه مرة في الليل وأخرى في النهار. فالمرة الأولى كان نزولنا في وادي جنعم الحجري الملتوي، وطال سيرنا فصرفنا أربع ساعات هبوطا حتى وصلنا شبعة. وكانت الساعة الأخيرة من سيرنا بين بساتين شبعة، لكن الظلام كان حالكا فلم نتبين منها شيئا. وأي لذة شعرنا بها، وأي سرور شملنا، لما أوينا إلى فراشنا تلك الليلة بعد صعود استمر عشر ساعات، وهبوط استمر أربع ساعات وكانت غايتنا في السير قمة جبل الشيخ.

أما هبوط النهار فكان عودا إلى راشيا. وأطبق دليلنا فما يحدث ولا يغنى. ومن غنى في الليلة المقمرة يصمت في النهار، ومن رأى شروق الشمس من قمة جبل على بادية الشام يطبق جفنيه لتنطبع هذه الصورة في ذهنه. وهذه سنوات تمر على ذلك اليوم، والصورة لا تزال ثابتة في خيالي كأنها وليدة صباحي هذا.

ونحن في انتقالنا من شبعة إلى حاصبيا نجتاز وادي التيم من شرقه إلى غربه، ونعبر نهر الحاصباني وهو ثالث فروع نهر الأردن الكبيرة، ونمر بقرية الهبارية، القرية التي استغرب أهلها زينا، وكنا نرتدي السراويل

القصيرة، وسألونا إن كنا جنودا فارين أو بائعي حكمة (أي عقاقير). وأهل الهبارية فخورون بسبيل الماء الذي أنشئ ببلدهم. فقد نقشوا عليه «وجعلنا من الماء كل شيء حي. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى «حبذا أهالي الهبارية وحبذا سعيهم المأثور ونباتهم المشكور. بذلوا في سبيل بغيتهم النفائس فباءوا بنجاح باه باهر أجرى عليهم ماء سلسبيلا وشرابا طهورا فاشرب أيها الوارد وادع بالخير للنزيه الهمام زكي قدري بك الذي بفضل همته الشماء تسنى جر هذا الماء لهذا البلد الطيب فأحيا الزرع والضرع. وهذا من بعض آثاره الكريمة حياه الله وبياه سنة ١٣٣١.

وأنت لو انحدرت إلى الشرق من جبل الشيخ لهبطت إلى الطريق الموصلة بين دمشق وبيت جن الشامية، وهي الطريق التي اجتازها ابن جبير.

هذا، أيها القارئ الكريم، جبل الشيخ. وأن زيارته لأمر حرى بأن يقوم بها كل عربي ليرى كيف يثبت الشيخ على عوادي الدهر، لعلنا نتعلم منه درسا في الحياة.

٣ – من صنين إلى الأرز

نحن على قمَّة جبل صنين.

كذا قد وصلنا نبع صنين بعيد الظهر، وكنا قد سرنا اليه من ضهور الشوير، في طريق وعر لكنه جميل، بين أشجار تتكاثف حينا وتتباعد حينا آخر، وبين ينابيع متعدّدة، وينابيع لبنان كثيرة كريمة، وكان الجوع قد نال منا، وكان الجمال قد نلنا منه، فجئنا النبع القوى العذب،

نستمتع بخرير مائه، ونستجلى محاسن وادي بسكنتا ونلتهم طيبات ما رزقنا الله عند صاحب المنزل القائم فوق العين. وما أن نلنا هذا كله حتى كان النشاط قد عاد إلينا، فرنت أعيننا إلى صنين، وعقدنا النية على التسلق. فقال قائل الوقت متأخر، فلن تصلا إلا والشمس قد آذنت بالمغيب. وأعجبتنا الفكرة التي قصد منها تحذيرنا، فزادتنا شوقا إلى الصعود. فأشار صاحب المنزل إلى الطريق. لكننا كنا قد اعتزمنا ألا نسير في طريق ملتوية طويلة سهلة يسيرة، ورأينا أن نجابه الجبل رأسا فنصعد فيه باستقامة. وبلغ الجبل أن اثنين من البشر تحدياه، فضحك في نفسه وتذكر أنه قد قيل في أشباهه.

رسا أصله تحت الثرى وسما به

إلى النجم فرع لا ينال طويل

وقد فات الجبل أن الأرض التي تحمل مثله قد أنبتت جبلا من البشر فيه «شباب تسامى للعلى وكهول».

وأخذنا نصعد فيه، فتبطنا الوادي، وأدرك الجبل الأشم أن عزمنا قد صح فأخذ يقذفنا بأسلحته الواحد تلو الآخر. فحجارته تتدحرج تحت أقدامنا فنتعثر، وصخوره تغرينا بالدوس عليها ثم تروغ فتزلق أقدامنا وأشواكه تلتف على أرجلنا فتدميها. وقضينا ساعة ونصف الساعة ونحن في هذه المشادة، وكلما حسبنا أننا على وشك الوصول إلى القمة رأينا الجبل يتسامى كأنه يسابقنا. ولكن أدرك الجبل أخيرا أن زائريه لن يتراجعا فكف عن تحديه وهدأت ثائرته واستعاض عن لذع أشواكه برائحتها الزكية، وهش لنا. ووصلنا إلى القمة.

وكان صنين شريفا في خصومته. فما أن رآنا قد بلغنا غايتنا حتى انبسطت أساريره، وضمنا إلى صدره وحنا علينا وغمرنا بهدوئه وجلاله، وملأ نفسينا شعورا بأننا جزء منه فشعرنا بالشمم والإباء يجرى في عروقنا سر عظمته، ثم طفق الجبل يحدثنا حديث الند للند، فقص علينا قصته في عذوبة ورقة لكنها عذوبة فيها قوة ورقة فيها عزم، وهو يهيب بنا أن ندرك. ثم أخذ صوته يخفت حتى صار همسا نكاد لا نتبينه، وأصحنا السمع فإذا بالجبل يشير إلينا أن نصمت ونفتح أعيننا، لأن وقت العبادة قد حان.

وخشعنا، واتجهنا إلى حيث أشار، فرأينا الشمس تنحدر بتؤدة ورفق نحو البحر، ورأينا نورها يضعف شيئا فشيئا، فيبهت لونها، ويستحيل احمرارها شحوبا واصفرارا، وأنها لتمس الماء، فتشعر أن ساعة هلاكها قد دنت، فتعود إليها رغبتها في الحياة وتحاول للمرة الأخيرة أن ترتفع ولكن الجهد الذي تبذله كبير لا تستطيع أن تتحمله فتخر صريعة وقد تخرجت بدمائها، وتنتشر هذه في الأفق، وترأف غيوم المغرب بالدماء المراقة لتلمها وتنصبغ بها، فيحمر الأفق الغربي كله إذ آلمه أن يؤول أمر ربة النور إلى مثل هذا. ويسود الكون صمت تحلو معه العبادة، فيردد صنين صلاته، وتنقلها الأودية منه، وتحمل الينابيع صداها إلى البحر. ويقف الزائران مشدوهين - فالجمال أكثر من أن يحيط به وصف، والألم أكبر من أن يحد، والهدوء لا يشوبه شيء، فيفزعان إلى الصلاة، وهما على مقربة من السماء. واذ هما ينظران حولهما، بعد أن ثابا إلى رشدهما، لا يريان شيئا، فقد ألقى الظلام سدوله الكثيفة على كل شيء، فاستوى الجبل والوادي. ويبدآن النزول في هذا السكون

الشـامل، ودليلهـما عصـا انطـوت عليهـا اليـد تتلمـس لهـما الطريـق. ولكـن صنـين كان رفيقـا بهـما في هـذا الـدور، فـما خاصـم ولا رمـى بحجارتـه، بـل إنــه جنبهـما الكثـير مـن العـثرات. ويقضيـان سـاعة وبعـض السـاعة، وإذا بنـور النـزل يبـدو، وإذا بالكلـب «يعـوى فيتمثـل صديقـي «عـوى الكلـب فاستأنسـت بالكلـب إذ عـوى "، وإنهـا لدقائـق قليلـة فـإذا نحـن عنـد الجماعـة الطيبـة، التـي أقلقهـا تأخرنـا فأخـذت تعـد العـدة للخـروج إلى الجبـل تسـأله عنـا وتحاسـبه عـما فعـل بنـا. وتخـرج مـن القـوم تحيـة بالسـلامة ممزوجـة بالعتـب الرقيـق.

وهكـذا أتيـح لي أن أرى ولادة الشـمس مـن قمـة جبـل الشـيخ وهلاكهـا مـن قمـة صنـين.

وكان جسـمنا بحاجـة إلى الراحـة، ولكـن مـن يسـتطيع أن يـترك صـوت الماء المتدفـق مـن الصفـا وأحاديـث أهـل لبنـان العذبـة، ويـأوي إلى فراشـه. لقـد أكسـبتنا هـذه نشـاطا مـن جديـد فجلسـنا إليهـم نتحـدث حتـى مـر مـن الليـل شـطر كبـير، وتفـرق السـمار فتفرقنـا معهـم، وأوينـا إلى الفـراش، لننعـم بالراحـة، ونحلـم.

ودعانـا الفجـر إليـه فهوعنـا إلى الماء نحـاول أن نغسـل منـه أيدينـا ووجهنـا فـما اسـتطعنا إلى ذلـك سـبيلا، لقـد كان بـاردا. فاكتفينـا بمـا نلنـا. وحملنـا زادا كان قـد أعـد لنـا، وسرنـا - وذكاء بعـد لم تجمـع كل قوتهـا – نهبـط واديـا ونصعـد جبـلا، فمررنـا بنبـع اللـبن ونبـع العسـل، واجتزنـا جـسر الحجـر وهـو جـسر طبيعـي نحتـت منـه المياه عـلى تـوالى الأيـام أجـزاءه

السفلى وتركته معلقا كما لو أن مهندسا وضع تصميمه ويدا صناعا بنته، وهو أحد عجائب الطبيعة الكبرى في لبنان.

ومررنا بقوم يحصدون ويزرعون ويعملون في الأرض، لكن الأرض هناك ضنينة، ذلك لأننا كنا نساير أعلى أجزاء السلسلة الكلسية حيث تسقط المياه وتتسرب إلى طبقات التربة السفلى، فلا ينتفع بها ولا يستفاد منها، إلا حيث تتجمع فتنبع في صدر واد، دان أو قصى

وأشرفنا بعد خمس ساعات على المكان الذي استأثر بمياه الجهة كلها ذلك أننا انتهينا بعد اجتياز جبل معتدل الارتفاع إلى منابع نهر ابراهيم فرأينا عجبا من الأمر. ماء يتفجر من صدر كهف اعتلى كتف الوادي، ويعجز الكهف عن حمله فينحدر في شلال صغير إلى بركة يتجمع فيها حينا إلى أن تجمع قوته ويعود إلى السير، لكن كتف الجبل التالي يعجز عن حمله فيهبط ثانية. ويتوالى هذا التجمع والهبوط في سلسلة من الشلالات، وتغذيها ينابيع أخرى على جانبي النهر، وتغذى المياه بدورها عدوات الوادي وجنباته، فتكتسى بثوب من الخميلة أخضر، وتقع العين على هذا الجمال المتناسب المتسق من مياه تتعثر في سيرها، وأشجار الجوز الوارفة الظل وشجيرات منوعات مزهرة كالدفلة وغيرها، وكلها تتحدث بنعم الخالق.

وأوينا إلى ظل شجرة نستريح ونمتع أنفسنا بهذا الذي نرى، وقال صاحبي: «هذا النهر هو نهر إبراهيم، وهو شديد الانحدار إلى الساحل، وقوته المسائية كبيرة وقد كان ولا يزال يدير الطواحين في طريقه. ولو أن

الكهرباء ولدت منه لكانت قوتها كافية لإنارة الجهة كلها وإدارة عدد كبير من الآلات. أما إبراهيم فاسم أحد الأمراء الذين حكموا هذه البلاد قبل مدة».

وقبلت ما قال صاحبي، فقد كان أعرف مني بجغرافية البلاد وتاريخها، لكن شيئا من الريبة خالجني حول الاسم. فالنهر أقدم من أمير كان يحكم تلك الجهة، فما هي قصة هذا النهر.

ولم يطل تساؤلي، فلم نكد ندخل الكهف الأول لنرى انبثاق الماء من الصخرة حتى سمعت صوتا يسر في أذني «أن أصغ إلى قصتي ففيها متعة لك، وحاولت أن أتبين مصدر هذا الهمس فلم أتمكن لكن الصوت استمر قائلا «أنا قديمة العهد في هذه البقعة... وقد أعجبت بي الإلهة القديمة عشتاروت فأوت إلى صدري أحنو عليها وأرضعها، وتفيأت ظلال هذا الوادي، تنعم بخيراته خالية البال، حتى بدا لها يوما شاب وسيم الطلعة، جميل الخلقة، فأسر لبها، وملك عليها قلبها، فأغرمت به؛ وأغرم هو بها، وملأ الحب نفسيهما من كؤوسه، وعاشا في غبطة وهناءة. وكان اسم هذا الحبيب تموز، ولم يعرف أحد من أين جاء، ولكنه كان يتحلى بصفات اقتنعت عشتاروت أنه من الآلهة. وكان تموز يغيب عن حبيبته أياما بلياليها يجوب فيها الآفاق فيوزع على البشر من بذور حبه ما شاء، فتنبت هذه في قلوبهم حبا قويا، يعصف بهم حينا، ويملأهم اطمئنانا حينا آخر، وإذا عاد تموز إلى عشتاروت أحست هذه بأنفاسه تعطر الجو فاستقبلته وفى قلبها أغنية وفى نفسها سرور.

«وطوف مرة بالآفاق كعادته، وعاد، لكنه لم يكد يطل على الوادي، حيث تقيم حبيبته، حتى استشعر في وجهها وجلا وفي نفسها اضطرابا، فأقبل عليها يسائلها، فحدثته أن وحشا قويا اعتدى على الحي، وأخذ يعيث في الوادي فسادا، وأنه طاردها مرة وكاد ينال منها لولا أن عصمتها الأشجار منه. فطار صواب تموز، وتقلد سلاحه وأخذ يطوف في الوادي صاخبا منذرا، حتى وجد الوحش وقد أسند ظهره إلى صخرة قوية، وتدرع للقتال. واقترب تموز منه، ونشبت بين الاثنين معركة صال فيها كل وجال، ونال من صاحبه ما شاء له القدر أن ينال. وثار ثائر الوحش فنبت له قرنان من شدّة غضبه، فضرب تموز بأحدهما فبقر بطنه، وخلاه صريعا يتضرج بدمه، وفر هو كمن أصيب بالصرع، ولم يقف له أحد على أثر. وبلغت أنات تموز مسامع عشتاروت فأقبلت على الحبيب تضمد جراحه، وحملته إلى الماء تغسلها فيه، لكن الدم الذي نزف كان كثيرا، فلم يقو تموز على مغالبة الموت الذي حمله إليه.

«وندبت عشتاروت حبيبها، واتخذت موعد وفاته يوما تحيي فيه ذكراه. وسمعت النساء بما أصاب عشتاروت فحزن على تموز، وشاركنها أساها، وندينه معها، وأقمن يوما في السنة يحيين فيه ذكراه، حتى بلغ ذلك مسامع أحد الأنبياء فنهى فتيات بيت المقدس عن البكاء على تموز.

«وسالت دماؤه في النهر، فصبغته ولا يزال الماء إلى يوم الناس هذا تجرى فيه بقية من دماء تموز.

«وتبـدل السـكان القدمـاء بسـكان جديديـن، وعاشـت بينهـم ذكـرى عشـتاروت وتمـوز. لكنهـم غـيروا الاسـم بحيـث تتناسـب مـع لغتهـم فقالـوا عنهـما أفروديـت وأدونيـس»

.«وأنـت يـا صـاح إن سرت مـع هـذه الميـاه التـي تنبـع مـن هـذا المـكان سـاعة وبعـض السـاعة وصلـت إلى أنقـاض هيـكل أدونيـس حيـث كان القـوم يحيـون ذكـرى الـصراع بـين الخـير والـشر، بـين الحيـاة والمـوت، بـين المـودة والهـلاك «. وصمـت الصـوت.

وعاودتنـي ذكـرى مـكان آخـر تنبثـق فيـه الميـاه مـن الصخـر الأصـم، وقـد أقـام النـاس فيـه هيـكلا لإلـه آخـر، نعـم في بانيـاس، حيـث عبـد «بـان وقلـت في نفـسي، مـا أقـدم الحيـاة في بلادنـا هـذه، ومـا أبعـد مـدى الفكـر فيهـا، ان هـذا يرجـع إلى الوقـت الـذي كان فيـه النـاس يوزعـون الآلهـة عـلى كل مـكان ويفرقـون بـين خالـق وخالـق. نعـم لقـد كان هـذا قبـل أن يأتيهـم مـن قـال «تحـب الـرب إلهـك مـن كل قلبـك ومـن كل نفسـك ومـن كل فكـرك "، وقـد كان هـذا قبـل مـن جاءهـم برسـالة ربـه إذ قـال «وَمِـنْ آيَاتِـهِ خَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِـلَافُ أَلْسِـنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُـمْ إِنَّ فِي ذَٰلِـكَ لَآيَـاتٍ لِّلْعَالِمِـينَ «.

فلـما جاءهـم الرسـل بالبينـات عـزف النـاس عـن تمـوز وعشـتاروت وأفروديـت وأدونيـس، وبقيـت أخبارهـم أسـاطير يتنـدر بهـا النـاس، وتهمـس بهـا الأصـوات الخفيـة في الكهـوف النائيـة

وانتهـى بنـا التطـواف ذلـك اليـوم بالعاقـورة، فقضينـا فيهـا ليلـة ماتعـة حقـا، وسرنـا مـع شروق الشـمس في اليـوم التـالي، فمررنـا بعـرب اللقلـوق،

وأقسمت نوخة بنت حسين ألا تبارح طنبها قبل أن نأكل: نذوق العيش والملح.

وتنقلنا من مكان إلى آخر حتى مررنا بوادي الدوير، وكان القوم يحصدون والشمس تلفح وجوههم. وقد انتهى أحدهم من عمله مبكرا، فانتبذ من دون الناس مكانا قصيا وأوى إلى ظل شجرة تقيه حر الشمس اللافح، وكأن الجو أطربه فأخذ يغني:

لأطلع لراس الجبل

وأشرف على الوادي

وأقول يا أهل الجبل

نسم هوا بلادي

أيمتى يسيل النهر

يتجسر الوادي

لحط صدري جسر

لتعبر البنية

وردد الوادي غناءه، وحمله إلى آذان البنية

وتسلقنا جبل بريصات، وأشرفنا على الوادي، وشعرنا بنسيم المساء يحمل إلينا عبيرا كان جديدا علينا.

أشرفنا من قمة الجبل على وادي قاديشا الذي يرتكز رأسه عند أقدام الأرز الخالد. وقد علا الأرز إلى السماء الزرقاء يطمع في عطفها، فانحنت

عليه تقبله، وانهمرت دموع الفرح من عينيها، فأشفق الأرز وجبله على هذه الدموع أن تهدر مجمعها حبة حبة وأودعها قلبه، فلما ضاق صدره عنها، انبثقت ينبوع ماء صاف مقدّس، كان له في يوم من الأيام إلهه، الذي زال مع غيره من الآلهة القديمة، واستبدله الناس اليوم بآلات تولد الكهرباء.

إنهما يومان قضيناهما بين صنين والأرز. يومان مليئان بكل ما يؤمله المرء، وما تطمع فيه النفس وما ترتاح إليه العين من مغاني الجمال ولطف الاسطورة، ومعنى العبادة، وقيمة الخشوع. إنه جهد حقا، ولكن الله لا يضيع أجر من يبذل مثل هذا الجهد

٤ - حصن الأكراد

نحن في القطار، وقد غادرنا طرابلس في الساعة السادسة من صباح يوم تبينا فيه حره اللافح من ساعاته الأولى، ولكن المسافر الذي استمتع بما كنا قد استمتعنا به، والذي يأمل ما كنا نؤمل لا يذكر حرا لافها، ولا يعنى بوهج الشمس، وإنما ينصرف إلى ما حوله، فتلتهم عينه الصور التهاما، وتحاول أن تحتفظ بها ذخيرة للمستقبل وعدة لوقت لا يتاح لها فيه أن ترى مثل هذا الذي يمتد أمامنا مسافات طويلة.

وكانت طريقنا تجتاز سهل البقيعة وهو الوادي العريض الذي يفصل جبال لبنان الشمالية عن جبال النصيرية. يفصل الجبال بعضها عن بعض ليربط السهل الساحلي بالسهل الداخلي، وليربط موانئ البحر المتوسط بموانئ البحر الرملي الممتد إلى الشرق.

كان القطار يخترق السهل ويداور ما فيه من تلال ويروغ من وجه المرتفعات، شأنه في ذلك شأن جيوش القدماء التي كان الملوك يبعثون بها من طرابلس لتحتل حمص. وكنا، ونحن نراقب البلاد التي نمر بها، نسمع في وقت واحد أصواتا متباينة الأصل مختلفة القوّة متشعبة القصد. فصوت القاطرة تخنقه حينا ضجة تتصاعد من الأرض، فيها وقع أقدام الخيول وجرس أعنتها وصليل السيوف وأصوات المركبات، وتمتزج بهذه أصوات الباعة وقوافل التجار تنقل البضائع على جانبي الطريق. وكأن هذه كلها تحدثنا عن الناس الذين اجتازوا الطريق قبلنا جماعات ووحدانا، وكلهم له في سيره غرض يخفيه حينا ويظهره حينا، وكأنما هم عند قول الشاعر:

كل من في الوجود يطلب صيدا

غير أن الشباك مختلفات

وفجأة وقف القطار. وكانت المفاجأة لي، أنا الذي كنت آنئذ فريسة هذه الأصوات والصور، التي أخذت تنقلني من عالم إلى عالم نقلا سريعا لم يتح لي أن أتابعه، ونزلنا، وكانت قرية تل كلخ نقطة انتقالنا في ذلك اليوم. فتركنا الركوب وعدنا إلى السير، ونحمد الله على أن لنا أقداما تمكننا من السير إلى هذه البقاع النائية.

وانحرفنا شمالا، وأخذنا نجوس خلال الأماكن في طرق (قادومية) تنقلنا من الباروحة إلى السنديانة الغربية، وحر النهار يشتد بنا، وسيرنا يتجه في صعود، حتى وقفنا أمام حصن الأكراد. ووقفنا نتأمل هذه القلعة الضخمة الفخمة التي مرت عليها ستمائة من السنين أو يزيد منذ أن

تخلى عنها آخر فارس كلف بحراستها، ولا تزال مع ذلك تملى على الناظر إليها إرادتها، وتفرض عليها سلطانها، وتحتم عليه أن يقف وقفة إعجاب وخشوع. وكأنها تشقق عليه أن يؤخذ بالضخامة والعظم فتذكره أنها جميلة مع ذلك، فيتلفت إلى ذلك ويرى هذين السورين المتداخلين الخارجي منهما أقل ارتفاعا من الداخلي تخرج منهما نتوءات ترتفع إلى الجو فتكون أبراجا وحصونا تسهل على أهلها الدفاع عنها، وتتناوب الاستدارة والتربيع هذه الأبراج فتجعل منها منظرا تقف العين عليه فتعجب بالمهندس الذي أقام قلعة يأوي إليها. المحارب ولم يغفل مع ذلك عن ادخال عنصر التناسب فيها فيجعلها جميلة. وهذه الرنوك في أعلاها، والستائر التي تقف سدا في وجه من يحاول أن يخترق الجدران ليستطلع خفايا هذه القلعة.

وندخل القلعة ونطوف في أرجائها، فننتقل من سرداب إلى سرداب. ونقاد من قاعة إلى قاعة، وتطالعنا في أنحاء البناء المختلفة روائح هي مزيج من قذارة بعض سكانها الحاليين ومن أريخ تاريخها المجيد العاطر. فبعض سكانها أبقار وأغنام وماعز، ذلك لأن القلعة يقطنها نحو ثلاثمائة من البشر، ويحتفظون فيها بمواشيهم التي هي مصدر قوتهم ورزقهم.

وإننا لننتقل من جزء آخر نستجلى ما خلفه بناتها وسكانها الأقدمون، فاذا بنا في قاعة فخمة واسعة عالية الجدران قاتمة اللون مما علق بها من الهباء والدخان، وبينا نحن على هذه الحال إذ بي أرى الجدار ينشق برفق وهدوء، ويخرج منه رجل مجلل بالسواد من قمة رأسه

إلى أخمص قدميه، وعلى جانبه سيفه. وأكاد أصرخ فزعا ولكن إشارة منه تطمئنني، فيزول من نفسي الروع الذي كاد يهزمها، ويشير إلى الرجل الأسود، أو الفارس الأسود فقد تبينت الساعة أنه فارس أن اتبعني، فأتبعه وأنا مسير لا مخير، ويسير بي من دهليز إلى دهليز حتى يصل إلى ساحة واسعة، تنتهي بأحد هذه الأبراج التي كنت قد رأيتها من الخارج. وإذ يطمئن إلى يبدأ بالكلام. ولم أفهم كلامه، فإنه كان رطانة لا عهد لي بها، لكنه يعينني على فهمه بالإشارات الكثيرة، وأدرك أنه يروى لي قصة، فأجهد نفسي وأحاول تتبع حركاته وسكناته، واستخلص منه الكثير من الذي قال. لقد كان أحد فرسان هذه القلعة، وكان من فرقة رجال المستشفى الصليبية، وهذا الصليب الذي يكسو جزءا من ردائه الأسود علامة على ما يقول. كان أصل فرقته، على ما حدثني جماعة دينية أنشئت في هذه البلاد ومركزها القدس وغايتها مساعدة الحجاج الأوربيين، والمرضى والفقراء منهم على الخصوص، ليقوموا بفريضة الحج إلى الأرض المقدسة. وكانوا مطمئنين إلى حياتهم في البلاد في حماية أهلها العرب الكرماء، لا يكدر عليهم صفو عيشهم مكدر، ولا يطمعون هم بغير خدمة المحتاجين والمعوزين من أبناء بلادهم. ثم قال: ودار في خلد أهل بلادي الأوربيين أن يأتوا إلى هذه البلاد جماعات كبيرة محاربة، فجاءوا واحتلوا الأرض المقدسة وما جاورها، وبنوا القلاع للدفاع عن أنفسهم ضد أهل البلاد، واحتاجوا إلى من يعمر هذه القلاع والحصون، فوكلوا أمرها لنا، فانتقلنا من رجال دين نعنى بالبائس إلى رجال دين وسيف نقاتل ونحارب ونجالد ونحمل السيوف ونثخن في خصومنا الجراح دون أن نضمدها، وها نحن

يـا سـيدي نجمـع بـين النقيضـين. فـلا يطلـع الفجـر حتـى نكـون قـد صلينـا مرتـين، ولا تـشرق الشـمس حتـى نكـون قـد أخذنـا أجسـامنا بالتماريـن الشـاقة، ولا ينتصـف النهـار حتـى نكـون قـد بحثنـا شـؤوننا وفصلنـا قضايانـا وعاقبنـا المذنـب منـا بالحرمـان أو الخلـد. فـاذا جلسـنا لنـأكل صمتنـا كلنـا وانفـرد منـا واحـد يقـرأ لنـا آيـات مـن الانجيـل. فـاذا كان العـصر امتطينـا خيولنـا ولعبنـا عـلى ظهورهـا بسـلاحنا خشـية أن يصـدأ وتصـدأ معـه الأيـدي التـي تحملـه، ودرنـا خـلال المنطقـة نسـتطلع خـبر الخصـوم. فـان كان ثمـة منهـم أحـد التقينـا واقتتلنـا ودارت الدائـرة عـلى أحـد الفريقـين فـكان نهـب وسـبى للفريـق المنتـصر. ومتـى هلكـت الشـمس صلينـا وأوينـا إلى مخادعنـا بعـد أن أقمنـا العسـس عـلى الأبـراج يحرسـها ويتسـقط الأخبـار فيوقظنـا إن ألم بنـا طـارق.

وهمـت بسـؤال الفـارس الأسـود عـما آل إليـه أمـره وأمـر أصحابـه فلـم أجـده، وخلـت أننـي كنـت أحلـم، ولكنـى لمحـت غبـارا يعلـو فجـأة أمامـي فيغـبر منـه الأفـق، وسـمعت جلجلـة وصليـلا، ثـم انقشـع الغبـار وظهـرت أمامـي صـورة لم أعهدهـا في تلـك الجهـة لمـا وصلتهـا. لقـد كانـت الأرض جبـالا ووهـادا وأوديـة وسـهولا، لكنهـا الآن تتحـرك وتتنقـل. لقـد غطـت الأرض جيـوش قادمـة تقصـد القلعـة، فأحاطـت بهـا مـن كل جانـب، ولم تلبـث أن خرجـت منهـا صيحـة زعزعـت كل مـا حـولي، لقـد كانـت الضجـة في لغـة فهمتهـا، لقـد كانـت (اللـه أكـبر، اللـه أكـبر) فانبسـطت أسـاريري، وفزعـت إلى صديقـي أفتـش عنـه لأحمـل إليـه الصـورة التـي شـاهدت ولأحملـه عـلى القـدوم إلى حيـث أنـا، فلـم أسـتطع إلى الاهتـداء إليـه سـبيلا.

وتلفت حولي، فإذا بي أمام فارس يحمل قوسا ويتزين بسيف جميل ويرتدي جبة واسعة وتعلو رأسه عمامة، وإذا به يحدثني بلغتي، فأفهم كلماته وإشاراته دون عناء أو جهد، فينبئني أن هذا الجيش الذي رأيته يغطى السهل والجبل كان جيش الملك الظاهر، وقد اعتزم الملك أن يحتل به القلعة، وكان قد ضرب عليها حصارا قبل أيام فقطع السبل على قاصديها، فاضطر أهلها أي سكانها من فرسان الإفرنج، إلى التسليم. وقد أخلوها، فعادت إلى أهل البلاد وأصحابها.

وصمت الفارس برهة ثم أشار إلى أن أتبعه لأرى ماذا حدث في هذه الفترة. فتبعت، وأنا لا ألوى على شيء، وسرت مفتح العين والأذن، أملا أن أدرك هذا الذي أرى، فإذا القاعة الكبيرة قد غصت بالفرسان الذين كانوا على شاكلة رفيقي هذا، وإذا بهم يتناشدون الأشعار العربية، ويروون الأحاديث، وإذا بهم يخشعون فجأة لأن قارئا بدأ يرتل القرآن، ويدعوهم إلى الصلاة فيلبون. فإذا فرغوا من صلاتهم، وقد امتلأت قلوبهم خشية لذكر الله، انصرفوا إلى طعامهم ينالون منه، ثم عمدوا إلى خيولهم يمتطونها وقد تقلدوا أسلحتهم وشدّوا أزر بعضهم بعضا. وما أن وصلوا السهل حتى تفرقوا جماعات في أنحائه الواسعة

قال الفارس وقد علت وجهه ابتسامة الظفر والسرور. إن القوم بعد أن نالوا حظهم من العبادة خرجوا إلى الصيد والصيد يا أخي، رياضة الفارس وسلوته ومجال تمرينه، وهذه الأرض التي تمتد أميالا إلى الغرب، غنية بالصيد على اختلاف أنواعه، ففيها الغزلان والثعالب والأرانب والمحجل والدراج وطير الماء، تحتمى كلها في الأزوار فيتابعها

الفرسـان بقسـيهم ونشـابهم وبزاتهـم وصقورهـم وكلابهـم فينالـون منهـا وتنـال منهـم، فيصطادونهـا وتنهكهـم، ولكـن هـذا الجهـد الـذي يلقونـه هـو الـذي يصـون لهـم مقدرتهـم عـلى حمـل السـلاح والـضرب بـه متـى جـد الجـد. فنحـن في حـرب، ونحـن أمـام خصـم اعتـدى علينـا واسـتقر في دورنـا ونعتـزم اسـتعادة أرضنـا منـه واسـترداد بلادنـا. ومـا نتمكـن مـن ذلـك إلا إذا كنـا في كل سـاعة عـلى أتـم الأهبـة والاسـتعداد. فـاذا عـاد هـؤلاء الفرسـان مـن رياضتهـم أو حربهـم أو لعـب الصوالـح والأكـر، عنـوا بخيولهـم وهـي لهـم كالإخـوان، ثـم اجتمـع بعضهـم إلى بعـض فتذكـروا الشـعر ورووه وتطارحـوا الحديـث وقلبـوا أفانينـه وسـمعوا القـرآن واتعظـوا بـه واهتـدوا بهديـه، فـكان لهـم غـذاء روحيـا، فيتـم اللـه نعمتـه عليهـم.

وكان الجماعـة قـد هيـأوا لنـا خبـزا مصنوعـا مـن الـذرة البيضـاء وبيضـا مقليـا فأكلنـا منـه مـا شـاء لنـا الجـوع أن نـأكل. وأراد القـوم اكرامنـا فقدمـوا لنـا شـيئا مصنوعـا مـن اللـبن الرائـب المجفـف المكسـو بطبقـة مـن السـعتر وكأنـه قـد مـرت عليـه سـنون وهـو مخـزون، فكرهنـا رائحتـه، ولم نذقـه، وحـز في نفوسـهم أن نرفـض إكرامهـم إيانـا) بالقريـش)، ولكننـا لم نسـتطع إلى إرضائهـم سـبيلا

وخرجنـا مـن القلعـة - قلعـة الحصـن - وسرنـا إلى بـرج صافيتـا. خرجـت وأنـا أتلفـت مـا اسـتطعت إلى التلفـت سـبيلا، آمـلا أن تنطبـع صـورة القلعـة في ذاكـرتي كـما انطبعـت قصـة هذيـن الفارسـين. الفـارس الـذي انكـسر وانهـزم، والفـارس الـذي انتـصر وأقـام، وخلفـه في حصنـه وبرجـه أحفـاده وأحفادهـم مـن بعدهـم، ولكنهـم ليسـوا منـه إلا في الاسـم. واسـتغربت

ذلـك، ولكنـى بعـد زمـن طويـل – أن ذلـك الفـارس كان يؤمـن أدركـت بعـد حـين بحقـه فدفعـه إيمانـه إلى السـير إلى الأمـام، وأن أحفـاده فقـدوا إيمانهـم بحقهـم، فضـاع حقهـم، ووصلـوا إلى مـا هـم عليـه. وقلعـة الحصـن تمثـل الأريـح الـذي يخـرج مـن بطـون التاريـخ فيعطـر الجـو، والرائحـة التـي تنبعـث مـن سراديـب القلعـة اليـوم فيضيـق بهـا الصـدر وتضيـق بهـا النفـس.

وسرنـا إلى بـرج صافيتـا. ومررنـا بديـر القديـس جريـس. ديـر بنـاه البيزنطيون ولا يـزال قائمـا إلى الآن، لكنـه مثـل القلعـة عـربي الهـوى والفـؤاد، ففيـه مدرسـة لتخريـج رجـال الديـن لكنهـا مدرسـة عربيـة أنشـأها الدكتـور أيـوب تحـت رعايـة المغفـور لـه البطريـرك غريغوريـوس حـداد.

ووصلنـا إلى بـرج صافيتـا. إنـه بـرج آخـر مـن هـذه القـلاع العديـدة، المختلفـة ضخامـة وقـوة، المنتـشرة في هـذه المنطقـة الخطـرة مـن البـلاد. بناهـا الحـكام للدفـاع عـن البـلاد ضـد خصومهـم مـن جيرانهـم، فلـما زال الخصـم الخارجـي اتخذهـا أصحـاب النفـوذ مراكـز للـضرب عـلى أيـدي مـن تحدثـه نفسـه بالثـورة أو العصيـان ضـد رغباتهـم.

وكان مسـاء صافيتـا حافـلا بمجموعـة مـن الاختبـارات، الحسـن منهـا والـسيء، ولكنهـا اختبـارات توحـي إلى المـرء الكثـير مـن الخـير، وتبعـث في نفسـه رغبـة في أن يفتـش عـن سـبيل للإصـلاح.

وأويـت إلى فـراشي، وأمامـي صـورة قلعـة الحصـن ومـا رأيـت فيهـا ومـا سـمعت، ولا تـزال الصـورة أمامـي ولا أزال كلـما أذكرهـا أردد قـول الشـاعر:

والحـق والإيمان إن صبا على

برد ففيه كتيبة خرسـاء

وآمـل أن يـأتي اليـوم الـذي أرى فيـه أبنـاء قومـي يؤمنـون بحقهـم ليكـون منهـم خـير لأنفسـهم ولبلادهـم وقومهـم.

٥ - في بلاد المعري

خلفنـا حلـب وراءنـا. وكان اليـوم حـارا، والأرض جافـة والطريـق صيفيـة، والسـيارة مضطربـة عصيبـة، ولم تـك تنهـب الأرض نهبـا، بـل كانـت تسـير سـيرا عاديـا. فـإن السـيارات، في تلـك الأيـام، وقـد بعـد بسـفرتنا تلـك العهـد، لم تكـن تسـتطيع أكـثر مـن طـي تلـك السـهول طيـا عاديـا. ومـا كان أكـثر تعريجهـا عـلى أحيـاء النـاس. فثمـة حاجـة إلى المـاء، وثمـة حاجـة إلى إراحتهـا فقـد اشـتدت الحـرارة فيهـا، وثمـة حاجـة إلى إصـلاح مجـرى الزيـت.

وكل أولئـك أمـور تثـير الأعصـاب وتجعـل السـفر أمـرا صعبـا. لكـن لمـاذا تثـور أعصابنـا ولمـاذا نكـره السـفر؟ ألم تكـن المـدة التـي قضيناهـا في حلـب، عـلى قصرهـا، كافيـة لتزويدنـا بمـا نفكـر بـه فننسى غبـار الطريـق وشـتائم السـائق وصخـب بقيـة المسـافرين؟ أليسـت قلعـة حلـب بضخامتهـا واسـتيلائها عـلى مركـز البلـد وإشرافهـا عـلى شـؤونه أمـرا يذكـره المـرء مـدة طويلـة،؟ أليـس في هـذه المدينـة مـا يذكـر المـرء بأيامهـا الماضيـة لمـا كانـت مركـزا رئيسـيا للاتجـار الداخـلي؟ ألم يقـل عنهـا ابـن جبـير إن أسـواقها كانـت مليئـة بالتجـارات والصناعـات، بحيـث تخـرج مـن سـماط صنعـة إلى سـماط

صنعـة أخـرى، وكل ذلـك مرتـب منظـم؟ بـل أليسـت حلـب مقـر سـيف الدولـة وعاصمـة إمارتـه؟ وسـيف الدولـة هـذا صاحـب المتنبـي، ومـن يتذكـر حلـب ولا يربـط اسـمها بهذيـن الرجلـين الفذيـن - صاحـب السـيف ومالـك عنـان الشـعر؟

وتنقلـت بي أفـكاري ونحـن نجتـاز هـذه البقـاع، فحامـت حـول هـذه الطـرق ومـن اجتازهـا قبـلي مـن الأمـم والأفـراد، وتذكـرت الجيـوش التـي جـاءت وحاربـت وهدمـت ودمـرت، والنـاس الذيـن عمـروا وزرعـوا وأحيـوا الأرض وقارنـت التدمـير بالتعمـير والقتـل بالإحيـاء، ومـرت بـرأسي أخبـار الأمـم التـي سـكنت هـذه الجهـات منـذ أن عمـر النـاس الأرض التـي أورثهـم اللـه، وتـردّدت في نفـسي الأسـاطير التـي خلقهـا النـاس ليفـسروا أسـماء البـلاد والمـدن، قالـوا حلـب مـن حلـب إبراهيـم لنعاجـه فيهـا؛ وقالـوا غـير ذلـك. وانفتحـت أمـام ناظـري هـذه الآفـاق الواسـعة مـن التاريـخ الـذي أوجـدني وأوجـد البـلاد التـي أجازهـا، فرأيتنـي أقـع في ذاكـرتي التاريخيـة عـلى أمـم وشـعوب ذات لغـات مختلفـة، تعمـر هـذه الرقعـة مـن العـالم، فتنـشر لغتها، وتنـشر ثقافتهـا، وتنـشر علمهـا، وتنـشر شرعهـا، وتنشـئ المـدن لتجعـل منهـا مراكـز لنـشر كل هـذا. ولكـن علمهـا وحضارتهـا ولغتهـا تقتـصر عـلى المدينـة ولا تنفـذ إلى أعـماق القلـوب خارجهـا. حتـى تـأتي جماعـة أخـرى لهـا مـن إيمانهـا دافـع، ولهـا مـن يقينهـا باعـث، ولهـا مـن اقتناعهـا وازع ولهـا مـن خلقهـا رادع، فتنـشر عنصرهـا العـربي، وتنـشر لغتهـا العربيـة وينتـشر إيمانهـا في الربـوع كلهـا، وتلحـق بـه اللغـة أو تجاريـه، فتصبـح لـدى كل النـاس، أميرهـم وغنيهـم وفقيرهـم وتاجرهـم وصانعهـم وراعيهـم وزارعهـم، وتصبـح في جميـع المنـازل: المدينـة والقريـة والقـصر والكـوخ والقلعـة تصبـح لهـذه

كلها لغة واحدة، يتاجر فيها الناس ويتعلمون ويصلون ويخشعون ويحبون. وعندها تتوحد الحياة التي كانت متشعبة التفكير، ويصقل الفكر الذي كان متباين الغايات مشعث الأهداف. ويخرج من هذا كله هذا الرجل الذي يسميه الناس المتنبي، والذي ينشد بيتا من الشعر في مصر فتردّده دجلة ويتغرب لا مستعظما غير نفسه، ولا قابلاً إلا لخالقه حكما، فيؤمن على قوله أولئك الذين يرون نفوسهم لا تطيق اللحم والعظما، فيحقرون الدنيا ويزيدون في كرائهها قدما.

وأنا في هذه الأفكار إذا بالسيارة تقف أمام بيوت عدة، لا هي بالقليلة فتكون قرية ولا هي بالكثيرة فتكون مدينة، ولكنها أمر بين الأمرين. وحسبت أن السيارة أوقفت لتعالج. لكني لم ألبث أن أدركت خطي لما ذكر الركب أنها المعرة - معرة النعمان. فعدت إلى دنيا الناس، وعجبت لهذه الحياة، التي تنقلك من عالم الفكر مع المتنبي، فتجد نفسك في عالم الناس ولكن في بلدة المعرى.

وكدنا لا نعرف أنفسنا. فقد كان الغبار قد تراكم على وجوهنا فصبغها بلون التربة الحمراء. ولم يكن من الميسور إزالتها ألبتة، فاكتفينا بإزالة القليل منها على النحو الذي تيسر لنا، وسرنا نحاول التعرف على الجو الذي عاش فيه أبو العلاء. فكان أوّل ما طالعنا منه قبر نور الدين الشهيد، في مكان يعرف باسم مدرسة أبي العلاء. والمدرسة هذه كتاب في مكان قديم متهدم. ونور الدين الذي أحيا من دنيا العرب والإسلام يوم أن تصدعت ما أحياء ينظر الناس إلى قبره فلا يعرفون

أقبر شخص عادى هو أم قبر هذا الذي هيا الصلاح الدين أن يضرب الصليبيين.

وكان بي شوق إلى قبر المعرى. فقد أعجبني من قبل ذلك الذي تساوى عنده صوت النعي وصوت البشير، فذهبنا لزيارة «مولانا أبو العلا «مولانا؟ نعم لقد أصبح المعرى في بلده ولياً من أولياء الله، يعلو مثواه خشب بقماش أخضر، وتعلو مكان الرأس منه عمة، ويتقرب الناس إلى الله بقراءة الفاتحة في مقامه، ويربط قطع من القماش البالي على باب المكان الصغير وطاقاته. وكان رهن المحبسين في حياته أبى إلا أن يكون له بعد وفاته محبس ثالث، فاقتصر قبره على هذه الغرفة الصغيرة المظلمة. وقد تلطف أحد الناس فكتب على ورقة علقت على جدار الغرفة بيتين من الشعر هما:

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة

نقية صاغها المولى من النطف

عزت فلم تعرف الأيام قيمتها

فأرجعها رحمة منه إلى الصدف

هذه حالة قبر أبي العلاء. وإن الأمر لمؤسف حقا. وقد تذكرت هذه الحالة مرات لما زرت قبور عظماء الأمم الأخرى من غير أمتي. فرأيتهم قد جعلوا قبر الواحد منهم ومثواه مكانا يعبر عن حياته. فثمة متحف صغير يحوي آثاره أو مكتبة تحوي نسخا مختلفة من الكتب التي ألفها أو غير ذلك من آثاره في حياته

خرجت من قبر أبي العلاء ناقما ساخطا وقضيت ساعات في المعرة بعد ذلك وأنا ناقم ساخط، وتناولنا بعض الطعام في شبه مطعم أبى أن يبذ قبر المعري في نوره ونظافته، حتى أنه لولا جوع شديد لما جلس المرء فيه ولا أكل.

وكنت أفكر بالمعرى، لما عدنا إلى السيارة لنستأنف السير إلى حماة. وجلسنا فيها، وعادت إلى شنشتها، تسير حينا وتقف حينا وتصرخ مرة وتعوى مرة، وكأن الجهد والسخط قد نالا منى، فلم ألبث أن أخذتني سنة من النوم، نقلتني من عالم القيود إلى عالم الحرية، ومن دنيا الواقع إلى دنيا الأحلام، فرأيت رجلا شيخا صغير الجسم قاعدا على سجادة لبد، وهو مجدر الوجه نحيف الجسم، وإنه ليتحدث إلى الناس فيعلمهم اللغة وآدابها، فإذا انصرفوا من عنده وانفضوا من حوله، انصرف هو إلى عدسة وتينه، يأكل منها ما تيسر له، وعاد إلى كتبه يقرأ له قبها، و إلى تفكيره وبحثه، فإذا وقع على المعنى الجيد في نفسه وصاغه شعرا أو نثرا أملاه على من كان عنده، ليكون من بعده ذخرا لنا، نحن الذين نقرأ شعر أبي العلاء فنجد فيه غذاء روحيا ومتعة فكرية ولذة نفسية. وسمعت هذا الشيخ يردّد هذين البيتين من الشعر:

أَراني في الثَلاثَةِ مِن سُجوني

فَلا تَسأَل عَنِ الخَبَرِ النَبيثِ

لِفَقدِيَ ناظِري وَلُزومِ بَيتي

وَكَونِ النَفسِ في الجَسَدِ الخَبيثِ

وسـمعت المعـرى يقـص عـلى مـن كان حولـه أخبـار تنقلـه في طلـب العلـم فـما كانـت المعـرة عـلى ثراهـا وجاههـا، وعـلى مـا كان في بيـت الرجـل وآلـه مـن علـم وفضـل، لتكفـي أبـا العـلاء أو تشـبع مـا فيـه مـن ميـل للعلـم. فذهـب إلى طرابلـس، وسـافر إلى اللاذقيـة وانتقـل إلى بغـداد، وهـذه كانـت عواصـم الفكـر في أيـام صاحبنـا في القـرن الرابـع للهجـرة والقـرن التاسـع للميـلاد. وأقـام المعـري في بغـداد سـنة وبعـض السـنة ثـم رحـل عنهـا إذ أنـه لقـى بعـض الـشر مـن أصحـاب النفـوذ فيهـا، وكان سـبب الخصومـة بينهـم وبينـه تعصبـه للمتنبـي ونقمتهـم عليـه واشـتدّ شـوقه إلى أمـه وهـو ببغـداد، وشـعر بفقـره، فـودع بغـداد وأهلهـا، ورحـل رغـم أن أهـل بغـداد حاولـوا أن يثنـوه عـن عزمـه، وحاولـوا أن يغـروه بالبقـاء لمـا عرفـوا مـن علمـه وأدبـه.

وكأني سـمعت المعري يذكر شـوقه إلى بلده فيقول:

وكـم هَمّ نِضْوٌ أن يَطيرَ مع الصَّبا

إلى الشـأمِ لولا حَبْسُهُ بعِقال

فيـا بَرْق ليس الكَرْخُ داري وإنما

رَمـاني إليه الدهرُ مُنْذُ لَيال

فهـل فيكَ من ماء المَعَرّةِ قَطْرَةٌ

تُغيثُ بها ظَمآنَ ليسَ بسـال

هـذا وماء المعـرة ماء آبار وماء بغداد ماء دجلة العذب.

وصان المعري في بغداد ماء وجهه فأشار إلى ذلك في تشوقه إلى الشام فقال:

أُنَبِّئُكمْ أنّي على العَهْدِ سالمٌ

ووَجهِيَ لَمّا يُبْتَذَلْ بسُؤال

وأنّي تيَمّمْتُ العِراقَ لغَيرِ ما

تيَمّمَهُ غَيْلانُ عِندَ بِلال

فأصبَحْتُ محموداً بفَضْليَ وَحْدَه

على بُعْدِ أنصاري وقِلّةِ مالي

ثم يروى هذا الشيخ الصغير الجالس على اللبد أبياتا أخرى يخاطب فيها أهل وطنه:

تمَنّيْتُ أنّ الخَمْرَ حلّتْ لنَشْوَةٍ

تُجَهّلُني كيفَ اطمَأنّتْ بيَ الحال

فأَذْهَلُ أنّي بالعِراقِ على شَفا

رزِيَّ الأماني لا أنِيسٌ ولا مال

وماءُ بلادي كان أنْجَعَ مَشْرَباً

ولو أنّ ماءَ الكَرْخِ صَهْباءُ جِرْيال

فيا وَطَني إنْ فاتَني بكَ سابِقٌ

من الدهرِ فلْيَنْعِمْ لساكِنِك البال

لكن موجة من الأسى تمر بذلك الوجه الحزين، إذ يروى لي، وقد خلت أنه يروي لي وحدي أن الشوق إلى بغداد عاوده فقال:

يا لَهفَ نَفسي عَلى أَنّي رَجَعتُ إِلى

هَذي البِلادِ وَلَم أَهلِك بِبَغداذا

إِذا رَأَيتُ أُموراً لا تُوافِقُني

قُلتُ الإِيابُ إِلى الأَوطانِ أَدّى ذا

ولما ودع أهل بغداد قال لمودعيه:

أُوَدّعُكُمْ يا أهلَ بَغدادَ والحَشَا

على زَفَراتٍ ما يَنِينَ مِن اللّذْع

وَدَاعَ ضَنًى لم يَستَقِلَّ وإنّما

تحامَلَ من بَعْدِ العِثارِ على ظَلْع

ألا زَوِّدُوني شَرْبَةً ولو أنّني

قَدَرْتُ إذا أفنَيْتُ دِجلةَ بالجَرْع

أظُنّ الليالي وهْيَ خُونٌ غَوَادِرٌ

بِرَدّي إلى بَغدادَ ضَيّقَةَ الذَّرْع

وكان اختِياري أنْ أموتَ لَدَيْكُمُ

حَميداً فما ألْفَيْتُ ذلكَ في الوُسْع

سـمعت هـذا كلـه مـن أبي العـلاء، فقلـت في نفـسي هـذا هـو العـربي يـرى كل بلـد عـربي وطنـا لـه، فـإذا أوذى في نفسـه ونقـم مـرة، فإنمـا النقمـة هـذه أمـر ميسـور لا يلبـث أن يذهـب ويبقـى هـذا الشـعور العـام لوطنـه، وهـذا الوعـي القومـي نحـو أمتـه.

وتلفـت حـولي فرأيـت في زاويـة الغرفـة التـي كنـت فيهـا رجـلا كلـه آذان، يسـمع مـا يقـال ويلتهمـه، فاقتربـت منـه وسـألته إذا كان هـذا الرجـل الـذي يسـمى نفسـه رهـن المحبسـين، فـد نجـح في اعتـزال النـاس وانصرافـه عنهـم. فقـال الرجـل، وهـو يهمـس همسـا خفيفـا كأنـه يخـشى أن يسـمعه المعـرى فيغضـب؟ لا يـا أخـي. وكيـف يسـتطيع مـن لـه شـعره ونـثره، ومـن لـه درايتـه وخبرتـه، أن يعتـزل النـاس، وهـل يتركـه النـاس لـو تركهـم؟ وكيـف يجـوز لهـم أن يتركـوه؟ أليـس مـن حقهـم. أن يفيـدوا مـن علمـه، وأن يـرووا شـعره وأن يتعلمـوا نـثره؟ أليـس مـن واجبـه أن يعلـم أولادهـم وشـبابهم؟ أن أبـا العـلاء حملتـه عـلى العزلـة رقـة في حسـه، ولكـن هـذه الرقـة والشـعور بواجبـه حمـلاه عـلى أن يفعـل هـذا الـذي تـرى. فنحـن في كل يـوم لنـا منـه مدرسـة لطـلاب العلـم ومدرسـة لطـلاب اللـذة العقليـة. فهـو ينبـوع فيـاض نغـترف منـه ولكننـا لا نسـتطيع أن نفنيـه. أنـه لنـا دجلتنـا، لكـما أن لبغـداد دجلـة،

وصمـت محـدثي قليـلا، لكنـه عـاد يقـص عـلى قصـة جـرت للمعـرة وكان أبـو العـلاء مشـاركا فيهـا، قـال جـاءت امـرأة اسـمها جامـع يـوم الجمعـة إلى مسـجد المعـرة فشـكت إلى النـاس أن أناسـا تعرضـوا لهـا وأرادوهـا بمكـروه،

فانتصر الناس لها، وهدموا البيت، وأتلفوا ما فيه، فقال أبو العلاء في ذلك من قصيدة طويلة:

أَتَت جامِعٌ يَومَ العُروبَةِ جامِعاً

تَقُصُّ عَلى الشُهّادِ بِالمِصرِ أَمرَها

فَلَو لَم يَقوموا ناصِرينَ لِصَوتِها

لَخِلتُ سَماءَ اللَهِ تُمطِرُ جَمرَها

فَهَدّوا بِناءً كانَ يَأوي فِناءَهُ

فَواجِرُ أَلقَت لِلفَواحِشِ خُمرَها

لكن صالح بن مرداس صاحب حلب سخط على أهل المعرة ونقم عليهم وكان بنواحي صيدا فوصل المعرة وخيم بظاهرها سنة ٤١٧ هـ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا. ففزع أهل المعرة إلى أبي العلاء وسألوه تلافي الأمر. خرج هذا الشيخ القصير الذي ترى إلى صالح، فلما مثل بين يديه سلم عليه وقال: - الأمير أطال الله بقاءه كالنهار المائع، قاظ وسطه وطاب إبراده أو كالسيف القاطع لان متنه وخشن حداه أخذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين). فقال صالح «لا تثريب عليكم اليوم. قد وهبت لك المعرة وأهلها. وقوض خيامه ورحل». فقال أبو العلاء:

نجى المعرّة من براثن صالحٍ

ربٌّ يفرّج كلَّ أمر معضلِ

مـا كان لي فيها جناح بعوضةٍ

اللـه ألحفهم جناح تفضّلِ

وصمــت محــدثي لحظــة ثــم قــال: هــذا المعــري الــذي يكــره السياســة العامـة، والـذي رفـض دعـوات الحـكام والأمـراء، لم يتخلـف عـن أن يكـون شـفيعا إلى صالـح لمـا دعـاه قومـه وأهلـه. وقـد أشـار فيـما بعـد إلى هـذه الشــفاعة في شــعره، فقــال:

فَلَـمّا مَضى العُمرُ إلّا الأَقَلَّ

وَحُمَّ لِروحي فُراقُ الجَسَد

بُعِثتُ شَـفيعاً إلى صالحٍ

وَذاكَ مِنَ القَومِ رَأيٌ فَسَـد

فَيَسـمَعُ مِنّي سَجعَ الحَمامِ

وَأَسمَعُ مِنهُ زَئيرَ الأَسَد

فَلا يُعجِبَنّي هَذا النِفاقُ

فَكَم نَفَّقَت مِحنَةٌ ما كَسَـد

وأحسســت كأن الأرض قــد زلزلــت بي، ورأيتنــي كأننــي رفعــت مــن مــكاني وقــذف بي مــن حالــق، فصحــوت وأخــذت أتحســس نفــسي، فــإذا بالســيارة قــد وقفــت إحــدى وقفاتهــا بعــد أن صدمــت حجــارة اعترضتهــا بالطريــق، وإذا بالســائق يصخــب ويلعــن. فالتفــت إلى صاحبــي صاحــب الرحلــة، وقــال أيــن كنــت يــا هــذا، فقــد عودتنــي أن تفتــح عينيــك لــترى مــا حولــك،

فأخبرته أنني كنت مع أبي العلاء، فقال ومن أجل ذلك كنت تردد.

صَاحِ هَذِهْ قُبُورُنَا تَمْلأُ الرُّحْـ

ـبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ؟

سِرْ إِنِ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُوَيْدًا

لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ

فابتسمت وسألت أين نحن فقال أنظر إلى يمينك وأمامك تعرف أين أنت، فنظرت حيث أشار فرأيت شيزر على يميني، وحماة تنبسط أمامي. فقلت لصاحبي، هناك ولد أسامة بن منقذ وهنا يرقد ياقوت وأبو الفداء. وهكذا في يوم واحد مررنا بلادًا غنية بالذكرى، غنية بالعظمة الخالدة وانما تحتاج إلى من يتذكر فيعيد بعض هذه العظمة. وأي شيء أحق بالذكرى من سيف الدولة والمتنبي والمعري وابن منقذ وأبي الفداء؟

٦ - في الطريق إلى جرش

ألقى الرفاق نظرة أخيرة على المدرج الروماني الجميل الذي تزدان به عمان واتخذوا مقاعدهم في السيارة الصغيرة التي كانت ترابط عند أقدام التمثال المحطم الرأس، وقال قائلهم: «إلى جرش». وسارت السيارة الصغيرة تطوى الجزء من الطريق بعد الآخر، والأصحاب الثلاثة صامتون إلا من ملاحظة عن مكان أو غير ذلك فلما اطمأنوا إلى أن الطريق خير مما وصف الواصفون ودون ما هول الناس انطلقت ألسنتهم من عقالها وتحدثوا بجمال هذا الوادي الذي بدأوا يقبلون

عليـه - وادي الزرقـاء. ونـشر أحدهـم بـين يديـه كتابـا وتنـاول الثـاني خارطـة أخـذ يتقـرى فيهـا أسـماء الأماكـن التـي كانـوا يجتـازون، بينـما شـغل الثالـث نفســه بقيـادة الســيارة.

وتحدثـوا مليـا وذكـروا فيـما ذكـروه أن ذلـك الجـزء مـن سـوريا المعـروف اليـوم باسـم شرقـي الأردن، كان في القـرن السـابق للمسـيح عرضـة لنهـب الناهـب وسـلب السـالب. فقـد كانـت قبائـل البـدو تشـن عليـه الغـارة تلـو الغـارة، وتحمـل مـا حوتـه مدنـه مـن كنـوز إلى منازلهـا المتنقلـة، وكانـت دولـة الأنبـاط في البـتراء تقـود عليـه الحملـة إثـر الحملـة فتحتلـه أو بعـض أجزائـه، فـاذا انسـحبت منـه عـادت قبائـل البـدو إلى أعمالهـا في أنحائـه. وبذلـك تخربـت تلـك المـدن التـي كان اليونـان قـد أنشـأوها وتعهدوهـا في ربوعـه والتـي كانـت مشرقـة المبـاني، جميلـة الهيـاكل، فأصبحـت وكأنهـا أطـلال تنعـى بناتهـا.

وأشـار الرفـاق في حديثهـم إلى أن هـذه الحـال دامـت حتـى جـاء الرومـان سـوريا، واحتلوهـا؛ وامتـد سـلطانهم إلى سـيف الباديـة، فأعـادوا إلى شرقـي الأردن طمأنينتهـا، وأمنهـا، فعـادت المـدن إلى الازدهـار؛ وذكـر أحدهـم أن الـسر في أن الغالـب عـلى بنـاء هـذه المـدن نزعـة الفـن الرومانيـة، مـع أنهـا أنشـئت لأول مـرة في عهـد اليونـان يرجـع إلى هـذا الـدور الـذي مـرت بـه البـلاد قبـل احتـلال الرومـان لهـا.

عنـي الرومـان بتنظيـم الادارة في سـوريا وبحمايـة البـلاد مـن هجـمات الباديـة؛ وفى سـبيل الوصـول إلى هذيـن الغرضـين أنشـأ الرومـان عـددا مـن القـلاع والحصـون تمتـد مـن جنـوب عـمان إلى درعـا فتدمـر فالفـرات،

وأعـادوا إلى كثير مـن المـدن المهملـة قيمتهـا وعمـروا مبانيهـا، فتقاطـر إليهـا الـناس واتخذوهـا مقـرا لهـم مـن جديـد، فكانـت زيزبـاء وعـمان (فيلادلفيـا) وجـرش وفحـل وبيسـان ودرعـا مـما عمـروه. وأدرك الرومـان أن الجيـش في سـوريا مدتهـم في المحافظـة عـلى البـلاد، وأن سرعـة انتقالـه عامـل مهـم في ذلـك، فبنـوا الطـرق التـي كانـت تصـل بـين هـذه المـدن، وبينهـا وبـين مـدن السـاحل السـوري. فكانـت عـكا (بطلمايـوس) وبـيروت ومـا بينهـما تتصـل مـع بيسـان وفحـل وجـدارا وجـرش ودمشـق اتصـالا مبـاشرا عـلى طـرق مبنيـة مـن قطـع كبـيرة مـن الحجـر كالتـي كان يسـتعملها النـاس في بعـض مـدن سـوريا إلى عهـد قريـب لتبليـط عرصـات الـدور الكبـيرة. وكان ثمـة طريـق يمتـد مـن دمشـق إلى فحـل أو درعـا، ثـم يمـر بجـرش فعـمان جنوبـا. ولمـا احتـل تراجـان في أوائـل القـرن الثـاني للميـلاد، البـتراء وضمهـا إلى الإمبراطوريـة أتـم الطريـق بحيـث أصبحـت تصلهـا، وبذلـك ارتبطـت كل أجـزاء البـلاد بشـبكة مـن الطـرق يـسرت نقـل الجنـود مـن مـكان إلى آخـر.

لكـن الطريـق متـى أنشـئت لا يقتـصر اسـتعمالها عـلى الجيـوش، سـيما إذا كانـت تجتـاز بـلادا جعلتهـا الطبيعيـة طريقـا للتجـارة، فـان موقـع شرق الأردن ويـن الحجـاز جنوبـا وبقيـة سـوريا غربـا وشـمالا، والعـراق شرقـا، جعلهـا بحكـم الطبيعـة مـن أقـدم الأزمنـة طريقـا للقوافـل التـي كانـت تحمـل متاجـر اليمـن والحجـاز ونجـد إلى تيـماء والبـتراء وغـزة ودمشـق. فلـما انتـشر الأمـن والنظـام عـلى أيـدي الرومـان المـدى ثلاثـة قـرون، عـاد إلى المـدن نشـاطها التجـاري وأصبحـت أسـواقا لـكل أنـواع المتاجـر ومركـزا لـكل القوافـل. فازدهـرت حياتهـا الاقتصاديـة، ونمـت ثروتهـا، وزاد سـكانها، وعـادت إليهـا المبـاني المشرقـة، والهيـاكل الجميلـة، ونشـطت مجالسـها

المحليـة لتجميلهـا، وعنـى حكامهـا بتحسـينها، فبقيـت لنـا مـن جـراء هـذه العنايـة وذلـك النشـاط، هـذه الآثـار الخالـدة التـي يشـاهدها المـرء في كل ناحيـة مـن نواحـي البـلاد

فأنـت واجـد في كل مدينـة مـن مدنهـا الكبـيرة مدرجـا يتسـع لأربعـة آلاف أو أكـثر مـن المتفرجـين، كانـوا يجتمعـون فيـه ليشـاهدوا تمثيـل الروايـات التـي كتبهـا أبنـاء البـلاد أو نقلوهـا عـن اليونـان وأنـت مـلاق في كل مدينـة سـاحة نـدوة كان الرومـان يسـمونها «الفـورم «حيـث كان يلبـي أحـرار المدينـة دعـوة رئيسـها لاجتـماع عـام يتمـور فيـه مـن الأمـور هامهـا، وأنـت عاثـر في كل منهـا عـلى بقايـا دار المشـيخة حيـث كان يجتمـع مجلـس المدينـة لإدارتهـا.

ولمـا كانـت هـذه المـدن أو أكثرهـا قـد وجـدت في زمـن اليونـان فقـد تأثـرت بالنزعـة الهندسـية التـي عرفـت بهـا المـدن اليونانيـة الهيلينيـة. وذلـك أن شـوارعها كانـت تتقاطـع عـلى زوايـا قوائـم وتسـير عـلى خطـوط مسـتقيمة، وكانـت الميـاه العذبـة الصالحـة للـشرب تنقـل إليهـا مـن مسـافات بعيـدة. فقـد نقلـت ميـاه الـشرب إلى درعـا مـن مسـافة خمسـة عـشرة كيلومـترا. كـما عنـى المهندسـون بالمجـاري للتخفيـف عـن المدينـة

وقـد رافـق هـذا الاطمئنـان والاثـراء نهضـة فنيـة قوامهـا أهـل البـلاد أنفسـهم فبـدت آثارهـا في تزيـين أرض البيـوت والهيـاكل بالفسيفسـاء الجميلـة التـي تحـوي أشـكالا ورسـوما بديعـة. ولمـا كانـت النصرانيـة قـد أخـذت تنتـشر في تلـك البـلاد في هـذه الأثنـاء، اهتـم النـاس ببنـاء الكنائـس، ورصعـت أرضهـا بالفسيفسـاء التـي شـملت صـور القديسـين ومناظـر مـن

الكتاب المقدس وخارطة لفلسطين وبيت المقدس وفيها كنيسة القيامة، يمكن مشاهدتها إلى الآن في مأدبا وغيرها من مدن شرق الأردن

وكان الرفاق قد شاهدوا الكثير من هذه الآثار التي تحدثوا عنها في مأدبا وعمان، وزاد شوقهم الآن إلى جرش. ولم يقطع حديثهم إلا إشرافهم على وادي الزرقاء العميق. فأخذ سائق السيارة ينحدر في الطريق المؤدى إلى الجسر بحذر، حتى وصله. وهناك وقفوا وتأملوا المنظر الجميل ورأوا الوادي الذي يفصل البلقاء عن عجلون والذي يصب ماءه في الأردن أخيرا.

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب لما بدأت السيارة تصعد في الجهة الأخرى من الوادي إلى سفوح جبال عجلون المكسوة بغابات الصنوبر والبلوط والسرو، فكان هذا يزيد شعورهم بالغبطة والسرور. وغربت الشمس وهم في الطريق فازداد تأثرهم بمداعبة هواء الصيف للأشجار وبأصوات العصافير وهي تأوي إلى الأغصان، وخرير مياه الينابيع التي كانت تباغتهم على جنبات الطريق.

وفجأة رأوا بابا كبيرا كل ما بقي منه ركناه وتاجه، فعرفوا أنهم وصلوا إلى جرش. فمروا به محيين إلى البلدة الحديثة الصغيرة. ونعموا ليلة في جرش بضيافة أخ كريم، أهل بهم ورحب، وفتح لهم بيته وصدره، فاستمتعوا بكرمه وحديثه، ورافقهم في الصباح لزيارة جرش القديمة

دخلوا من الباب، واتجهوا إلى اليسار فتسلقوا المسرح المدرج، وأشرفوا منه على الآثار التي كشفت أيدي المنقبين والباحثين القناع الترابي عن

أكثرها. فانبسطت أمامهم ساحة الندوة البيضية الشكل والتي لا تزال أرضها المبلطة كما كانت عليه قبل ألف وستمائة من السنين، وحول هذه الندوة تقوم الآن نحو سبعين من الأعمدة الكورنثية الجميلة، غير الذي يتهدم بفعل الزلازل على توالى القرون.

وإذا نزل القوم إلى الساحة، واجتازوها انتقلوا إلى الشارع الرئيسي الذي كان يخترق المدينة من جنوبها إلى شمالها، وهو مكوّن من طريق للمركبات عرضه نحو ستة أمتار في الوسط، يحيط به رصيفان مرتفعان للمارة. وعلى جانبي هذا الشارع، كانت تقوم الحوانيت والمتاجر الكبيرة. فضلا عن ساحة الندوة التي كانت سوقا للتجارة.

ويمر السائر في هذا الشارع بحوض منحوت من الصخر الأحمر الجميل، تعلوه مصاب للماء، أغلب الظن أن آلهة الشعراء كانت تسبح فيه إذا ماجن الليل، وهجع الناس إلا أهل الأحلام.

ورأى الرفاق بقايا هيكل أرطميس وهذا الهيكل كان فيه مئتان وستون من الأعمدة الكورنثية، لا يزال قائما منها ثلاثة عشر، وقد كانت الشمس تعبد في هذا الهيكل، كما كانت تعبد في طرابلس وبعلبك وغيرهما. ذلك أن الوثنية في القرن الثالث الميلادي كانت قد نظمت شئونها على أيدي كهنتها الذين تأثروا بعلم الفلك والتنجيم البابليين، ودخلتها أساطير النجوم، فاتجهت نحو اعتبار الشمس قلب الكون النابض، ومصدر النور الخالق العالم، وبذلك عبد أهل سوريا الشمس على أنها أكبر الآلهة. ومن هذه البلاد أخذت عبادة الشمس تنتشر في العالم الروماني، بتأثير هؤلاء الكهنة الذين اهتموا بتفسيرها وشرحها

للنـاس. حتـى أن الإمبراطـور أورليـان رفـع الشـمس التـي لا تغلـب «الى مقـام أسـمى إلـه في الامبراطوريـة.

وزار القـوم مـا تبقـى مـن الكنـاس التـي تحـوي صـورا مـن الفسيفسـاء تمثـل استشـهاد بعـض القديسـين في أيـام الاضطهـاد الدينـي القديـم.

وبينـما هـم يهمـون بالخـروج مـن المدينـة مـن الجهـة الشـمالية لفـت أحدهـم نظرهـم إلى الحـمام والى عـين المـاء الصافيـة التـي تنبـع بقربـه، وتنسـاب إلى وادي جـرش المكسـوة جنباتـه بالغيـاض الوارفـة الظـلال.

وركـب الرفـاق السـيارة، فانطلقـت بهـم تقطـع مـا تبقـى مـن جبـال عجلـون، تنحـدر تدريجـا إلى أربـد. وأنهـم يتحدثـون ثانيـة عـما رأوا في جـرش، بعـد أن تحدثـوا في اليـوم السـابق عـما سـيرون، وإذا بخـط أسـود يظهـر فجـأة عـلى الأفـق البعيـد فيتسـاءلون مـاذا عسـاه أن يكـون؟

إنـه خـط يفصـل جبـال عجلـون الكلسـية عـن هضـاب حـوران والجـولان البركانيـة. أنـه وادي اليرمـوك. ولكنهـم إذ وصلـوا أربـد انحرفـوا غربـا في وادي العـرب، ولم يلتقـوا باليرمـوك إلا حيـث يصـب في الأردن وقـد مـروا عـلى مقربـة مـن فحـل وبيسـان. وهكـذا قضـوا يومـين في الطريـق إلى جـرش ومنهـا.

٧ - في ديار الأنباط

تحـرك بنـا القطـار مـن محطـة عـمان واتجـه نحـو الجنـوب. وكان الركـب مختلطـا، ففيهـم التجـار الذيـن يحملـون مـا جمعـوا مـن حوانيـت دمشـق وعـمان لينقلـوه إلى مـن يحتاجـه مـن أهـل الكـرك ومعـان. وفيهـم بـدو عائـدون إلى مضاربهـم بعـد أن قضـوا لبانتهـم مـن مباهـج عاصمـة الإمـارة

وغيرها. وفيهم جنود راجعون إلى العقبة. وفيهم قلة من طلاب اللذة خارج المدينة حيث تكثر الآثار القديمة، وسار القطار يطوى البيد طيا رفيقا، إذ لم يكن باستطاعته أن ينهبها نهبا. وبدت على التجار الذين يجتازون هذا الطريق مرات في العام الواحد أمارات الملل، أما أنا فكنت أتطلع إلى كل جزء من الأرض أحاول التعرف إليه شبرا شبرا. هذا وأنا أعرف أنني لن أجد فيها تنوعا. فنحن نسير على سيف البادية وليس هناك من مظاهر الحياة إلا هذه الخيام التي تبدو للعيان بين حين وآخر وإلا هذه الأرض القفراء، فقد كان الوقت أواخر الصيف ولا سبيل لحياة نباتية تطالعنا في تلك الجهات. ولكن من اعتاد أن يحب بلاده وإن جارت عليه وأن يحب أهله وإن ضنوا عليه، رأى بلاده عزيزة ورأى أهله كراما. وهذا الركب لا تكاد تمر عليه ساعة وبعض الساعة حتى تربطهم اللغة بعضهم ببعض فيتحدّثون حديث إخوان وخلان ويتشاكون شكوى أصدقاء أعزاء ويروى الواحد قصته فيضحكون حينا ويألمون حينا، حتى أن الدخيل بينهم يحسب أنهم أفراد أسرة واحدة فرقت بينهم الأيام ثم جمعتهم، فاذا المياه تعود إلى مجاريها. وكان أبو شام التاجر الدمشقي المقيم بالكرنك، سلوة الركاب فيما قص عليهم من طرف اختباراته في الاتجار والسفر، حتى أنه لما تركهم في القطراني أسفوا لذلك، وودوا لو أنه يقصد معان ليتم سرورهم به

ويمر القطار بهذه المحطات القائمة في طريقه. وأكثرها يتكون من بيت لناظر المحطة ومكتب له. وفى بعضها بنايتان أو أكثر لمخزن غلات المنطقة المتجمعة فيها تمهيدا لشحنها. هذه زيزياء وبركتها التي بنيت لجمع الماء. فأكثر هذه الأماكن خالية من الينابيع. وسكان المحطات

أنفسـهم يحمـل إليهـم القطـار المـاء مـن عـمان فيودعونـه في صهاريـج بنيـت لذلـك ويسـتعملونه بقصـد إلى أن يحـين الموعـد التـالي لمجـيء القطـار فيـأتي لهـم بكميـة جديـدة مـن المـاء.

ويحدثـك أحـد الـركاب إذ تطـل عـلى زيزيـاء فيقـول إلى يمينـك، إلى الغـرب تقـع مأدبـا وإلى يسـارك، إلى الـشرق، يقـع قـصر المشـتى. وأتذكـر أنـا زيـارة سـابقة لهذيـن المكانـين، فتعـود إلى نفـسي ذكـرى هـذه القطـع الجميلـة مـن الفسيفسـاء التـي هـي مـن مفاخـر الفـن السـوري قبيـل الفتـح العـربي لهـذه البـلاد. أذكـر كيـف دخلنـا بيتـا أو أكـثر في مأدبـا فـكان أهلـه يرفعـون الحصـير الـذي يكسـو الأرض فتظهـر تحتـه هـذه القطـع الفنيـة، بعضهـا يمثـل أبـراج الشـمس الاثنـي عـشر وبعضهـا يظهـر الفصـول والبعـض الآخـر فيـه زهـور وطيـور واضحـة التفاصيـل ظاهـرة الأجـزاء. وأتذكـر زيـارة لقـصر المشـتى. وهـو قـصر يعـود إلى أوائـل الأمويـين وهـو واحـد مـن هـذه القصـور الصحراويـة التـي بناهـا الخلفـاء ليخلصـوا مـن ضوضـاء دمشـق، ويسـتمتعوا بهـواء الصحـراء النقـي. وأنـك لتدخـل مـا تبقـى مـن المشـتى، فتقـف فيـه حائـرا دهشـا: لأن القـوم صنعـوا شـيئا لم يعرفـه الـشرق منـذ أيامهـم. وكانـت هـذه الأماكـن تحـوي مـن لـوازم الرفاهيـة ومقتضيـات العيـش الهنـيء مـا لم يكـن الحصـول عليـه سـهلا في المدينـة، بلـه قـصرا في الصحـراء.

تذكـرت هـذا، وتذكـرت غـيره، وأنـا أقلـب ناظـري في هـذه الأماكـن. ألم يحمـل مـد سـكة الحديـد هنـا بعـض البـدو عـلى تغيـير طـراز معيشـتهم والانتقـال إلى حيـاة مسـتقرة حضريـة؟ وانتقـل تفكـيري إلى عبـد الحميـد،

عبـد الحميـد الثـاني سـلطان تركيـا. صاحـب فكـرة هـذا الخـط لقـد أعيـت السـلطان هـذه الثـورات التـي كانـت كثـيرة الحـدوث في بـلاد العـرب، مـن الحجـاز إلى اليمـن. وعقـد النيـة عـلى التخفيـف مـن حدتهـا إن لم يكـن عـلى القضـاء عليهـا. فـرأى أن يصـل اليمـن بسـوريا بخـط حديـدي يمكنـه مـن السـيطرة عـلى الطريـق وإرسـال الجيـوش متـى احتـاج إلى ذلـك. لكـن نفقـات مثـل هـذا الأمـر كبـيرة. وخزانـة السـلطان لا تتحملهـا، وإذن فلتتعـاون قريحـة السـلطان الوقـادة، وذكاء وزيـره الأول شـوكت باشـا عـلى إيجـاد حـل لهـذه المشـكلة. وتوفـق الرجـلان إلى فكـرة لم يلبثـا أن أبرزاهـا إلى حيـز العمـل.

إن هـذا الخـط سـيجعل أداء فريضـة الحـج أسـهل عـلى المسـلمين متنـاولا، وسـيجعلهم هـذا الخـط بمـا يقـوم عـلى حراسـته مـن الجنـد، في مأمـن مـن اعتـداء القبائـل عـلى قوافـل التجـار، وسـيقصر المـدة اللازمـة للقيـام بالـج. وإذن فليشـترك المسـلمون في بنـاء الخـط. ودعـا عبـد الحميـد العـالم الإسـلامي إلى ذلـك، فلبيـت الدعـوة وتدفقـت التبرعـات، ودفـع موظفـو الدولـة العثمانيـة كلهـم مرتباتهـم الشـهر واحـد لمسـاعدة المـشروع، وأمـر الجيـش بالعمـل فيـه. فـكان في ذلـك كلـه مـا فتـح للفكـرة المجـال فصـارت عمـلا. ودفعـت العمـل همـة عبـد الحميـد التـي لم تكـن تعـرف الملـل أو التعـب فسـار سـيرا سريعـا، ولم يلبـث أن وصـل أول قطـار إلى المدينـة سـنة ١٩٠٨ آتيـا مـن دمشـق. وبذلـك تـم الجـزء الأول مـن خطـة السـلطان الجـريء. ووقـف عنـد هـذا الحـد لأن السـلطان انتهـى أمـره، ولأن خلفـاءه في السـلطة شـغلتهم عـن تتميـم الخـط شـواغل أخـرى.

والوقت الذي كان علينا أن نقضيه في القطار طويل - نهار كامل من عمان إلى معان. والحديث، مهما حلا وعذب، قد يمله الناس إذا طال، ولكن المسافر الحريص يصطحب رفقاء لا يملهم ولا يملونه. وكنت قد حملت معي كتابا أو أكثر فعكفت على القراءة بعض الوقت. لكن هذه القراءة كانت تقطعها على رغبتي في أن أرقب الأرض. وكان صاحبي يصرخ آنا بعد آخر لافتا نظري إلى قطيع صغير من الغزلان ينفر إذ يسمع صفير القطار أو دويه فيذكرك ببيت شوقي.

تلفتت ظبية الوادي فقلت لها

لا اللحظ فاتك من ليلى ولا الجيد

وساءلت نفسي. أكانت هذه البلاد دائما قاحلة على هذا النحو؟ لكن الجواب جاءني من مصادر مختلفة بأن ذلك لم يكن. فقد كانت ثمة بقاع تكسوها الغابات لكن عدا عليها الزمن فاجتثت ولم يغرس مكانها غيرها. وأشار صاحبي إلى قرب وادي الحسا وقال: إن المنطقة الواقعة إلى الغرب كانت مكسوة بالأشجار في أوائل القرن الحالي حتى أن الحكومة التركية رأت أنها تستحق أن يمد فروع من سكة الحديد إليها لتنظيم شحن الأخشاب منها، فقلت في نفسي أما الخط فمد، وأما التنظيم فلم يكن، لذلك اقتطعت الأخشاب وماتت الأشجار، فإنني لما مررت بتلك البقعة بعد أيام رأيت فيها بضع شجرات حيث كانت غابات واسعة قبلا.

وكنت وأنا في هذه الطريق أذكر الغساسنة. لقد عمر هؤلاء مشارف الشام وكانت لهم فيها دولة وكانوا عربا خلصا من الذين جذبتهم

المدنية إليها فاستوطنوها وأعجبتهم الحضارة فاستمر أوها لكنهم، مع ذلك، لم يتركوا فضائل العروبة وإباءها وشممها، وإليهم يرجع الفضل في تعريب شرقي سوريا قبل الفتح الإسلامي.

وهمت الشمس بالغروب، فأخذ الأفق الغربي يكتسي بأثواب مختلفة الوشى متباينة الألوان تتعاقب عليه دقيقة أثر الأخرى. وفي كل حالة كان يبعث في نفسي موجة من الإعجاب لا تكاد تهدأ حتى تعقبها أخرى، وبينا نحن في هذا الطرب النفسي وقف القطار وصاح صاحبي «هذه معان»فنزلنا.

واستضافنا في المدينة صديق لصاحبي وافقنا كل الطريق وأقسم إلا نزلنا عنده. وكان أوّل ما قدم من الطعام تمر مقلو بالسمن. فقد كنا في رمضان، وسنة الإفطار أن يبدأ بالتمر. واتباع السنة عند أهل معان ميسور. وقضينا أمسية وليلة في ضيافة عربية بعيدة عن الكلفة. وكانت أولى عدد من الضيافات استمتعنا بها في تلك الربوع.

واعتزمنا أمرنا على أن نزور البتراء والبتراء غاية الزائر في جنوب شرقي سوريا. وسرنا عصر يوم قاظ وسطه وطاب مساؤه، ووصلنا مقر بوليس وادي موسى قبيل المغرب. ووقفت على المكان المرتفع وألقيت بنظرة كلها شوق إلى الغرب، إلى المكان الذي تتوسطه البتراء، دون أن ترى وكانت الألوان التي تنعكس من الجبال الرملية، إذ تلقى عليها الشمس أشعتها الباهتة المريضة، لا تعد ولا تحصى. فهي ورد أصناف، ودماء مهراقة كأنها نزفت ممن صرعه بالكتيب البهر. وهي إلى ذلك كله قوة في رقة، وصلابة في لين. تدعوك إليها دون أن تتزلّف، وتفتح

لـك قلبهـا دون أن تتبـذل وتحملـك عـلى تقبيلهـا دون أن ترمـى بنفسـها بـين يديـك

كانــت الشــمس لم تظهــر بعــد عــلى الأفــق الشرقــي لمــا وجدتنــي أســير وصاحبــي في طريقنــا إلى البــتراء وكان الســير الضيــق منفذنــا الوحيــد إلى خزنـة فرعـون فوقفنـا أمامهـا وقـد تدلـت مـن فوقنـا بـوادر أشـعة الشـمس فجعلـت هـذه الواجهـة المنحوتـة في الصخـر الـوردي المصفـر آيـة مـن آيـات الفـن التـي تتحـد الطبيعـة ويـد الإنسـان عـلى إخراجهـا في تلـك البقعـة. ومـا أكـثر الأماكـن التـي يتمثـل فيهـا هـذا التعـاون بـين القوتـين. فإنـك واجـد في كل ناحيـة مـن نواحـي البـتراء عـشرات مـن هـذه الآيـات.

ولسـت أريـد أن أزعجـك أيهـا القـارئ الكريـم فأنقـل إليـك هـذه الصـور مشـوّهة. فالحـق أن كل مـا كنـت قـد قرأتـه عـن البـتراء تضـاءل شـأنه لمـا وصلـت إلى هنـاك ورأيـت هـذا الـشيء الغريـب. ووجـه الغرابـة في الأمـر ليـس نحـت بضعـة بيـوت أو معابـد في الصخـر الأصـم، ولكـن وجـه الغرابـة هـو أن يفـرض الأنبـاط عـلى النـاس أن يأتـوا لمدينتهـم مرتـين. المـرة الأولى يـوم جاءوهـا للاتجـار، وقـد كان الأنبـاط العـرب سـادة التجـارة في جنـوب سـوريا. والمـرة الثانيـة بعـد ذلـك بنحـو عشريـن قرنـا إذ فرضـوا عليهـم أن يزورهـا ليسـتمتعوا بهـا آيـة فنيـة. ولـن يمكنـك يـا أخـي أن تلـم بهذيـن الأمريـن إلا إذا زرت البـتراء، فاذهـب.

ومـا قولـك بشـعب يحتـل هـذه الأصقـاع في القـرن الخامـس قبـل الميـلاد، وقـد كانـت فيهـا حضـارة تقـوم حـول الكـرك وعـمان، وكانـت فيهـا صناعـة تتمركـز في وادي العربـة والعقبـة، فيتخـير هـذه البقعـة الصخريـة الجافـة

ليحفـر فيهـا عاصمتـه ويجعلهـا مركـزا للاتجـار ثـم هـو يحمـل القوافـل علـى أن تتجـه اليهـا ويحمـل التجـار عـلى الاجتـماع بهـا فـلا تلبـث أن تصبـح السـوق الرئيسـية لمتاجـر بـلاد العـرب ومـصر وسـوريا الداخليـة والسـاحلية. ولا تلبـث أن تمتـد أبنيـة العاصمـة ومحفوراتهـا وتنتـشر عـلى الآكام التـي تحيـط بـوادي البـتراء الرئيـسي، فتبـدو البقعـة الجافـة وقـد أينعـت لأن أهلهـا أرادوا لهـا ذلـك، وتظهـر المدينـة الصخريـة وقـد اكتسـت بالـورد والخـز والديبـاج لأن سـكانها أرادوا لهـا ذلـك.

ويسـيطر الأنبـاط أو تسـيطر البـتراء عـلى طـرق التجـارة كلهـا، وتنـشر، مـع تجارتهـا، حضارتهـا، فـنرى الأسـلحة تصنـع في الشـمال عـلى شـكل نبطـي، ونـرى المعـادن تسـتخرج عـلى نحـو مـا يريـد الأنبـاط، ونـرى آلهتهـم تعبـد عـلى نحـو مـا يعبدونهـا.

ونقـضي يومـا في البـتراء. ويشـتد الحـر، فنقيـل عنـد نبـع مـاء يـكاد ينبثـق مـن الصخـر، لكـن بعـض الأتربـة التـي تتحـرر مـن ربقـة الصخـور تتجمـع فتظهـر حولهـا شـجيرات الدفلـة، وهـذه تحمـل زهـورا جميلـة، فتقـع العـين عـلى شيء يتـم جـمال هـذه الصخـور الملونـة.

وعدنـا مـن زيـارة اليـوم، وكانـت السـيارة تنتظرنـا، فقطعنـا فيهـا قرابـة أربعـين مـن الكيلومـترات لنطـل عـلى الشـوبك. وهـي قلعـة حصينـة في جنـوبي البـلاد، بناهـا الصليبيـون لمـا اسـتولوا عـلى تلـك الجهـة، فلـما أخرجـوا اسـتولى عليهـا الأيوبيـون واسـتمرت بعدهـم لأهـل البـلاد. وقـد تخـلى عنهـا الفـارس للفـلاح والراعـي، لكـن الفـلاح والراعـي متـى خطـر لهـما أن يثـورا اتخـذا مـن جدرانهـا وحصونهـا الكامليـة ترسـا يختبئـون خلفـه، ويرمـون

الجنـد المهاجـم بالسـلاح والحجـارة. فقلعتهـم تقـوم عـلى قمـة رابيـة تحيـط بهـا ثلاثـة أوديـة تتحـد عـلى درء الخطـر عنهـا، ولا يمكـن الاقـتراب منهـا إلا مـن فـوق جـسر واحـد إلى شـمالها الغـربي.

وعدنـا مـن الشـوبك إلى معـان، وأدركنـا المغـرب في الطريـق. وأوقفـت السـيارة لإصـلاح عطـب طـرأ عليهـا، فاغتنـم ركابهـا تلـك الفرصـة، وأوقعـوا ببعـض التـين الـذي كان عطـا اللـه يحملـه هديـة إلى أهلـه. ولكـن مـن حـق الصائـم أن يفضـل عـلى صاحـب الهديـة. وأتـم عطـا اللـه كرمـه بـأن أقسـم إلا تنـاول الجميـع عنـده طعـام الإفطـار تلـك الليلـة. وكان لـه ذلـك

وفي صبـاح اليـوم التـالي أقلنـا القطـار مـن معـان إلى القطـراني، فقـد كانـت الكـرك وجهتنـا هـذه المـرة، وكنـت أحسـب أننـي رأيـت كل شيء في الطريـق، فـلا يكـون ثمـة مـن جديـد. لكنـى أخطـأت الحسـاب. فـما كدنـا نقضي سـاعة في الطريـق حتـى دعـاني صاحبـي إليـه، وأشـار إلى شيء بعيـد في الأفـق. أنـه الـسراب. نعـم هـذا الـذي يحسـبه الظـمآن مـاء، فيتجـه نحـوه، ويشـدّد العـزم، وهـو في واقـع الأمـر يسـعى خلـف انعـكاس أشـعة الشـمس عـلى حـرات بـلاد العـرب. نعـم لقـد كانـت الأرض هنـاك بركانيـة، وهـذا شـعاع الشـمس ينعكـس عليهـا، فيخيـل إليـك أنـك تـرى المـاء، والمـاء عنـك بعيـد

راقبـت الـسراب هـذا، وجلسـت بعدهـا في القطـار أحـدث نفسي وأسـتمتع بتدخـين غليـوني، وطـال بي التحـدّث إلى نفـسي، وخرجـت منـه وأنـا أردد:
- الأنبـاط الغساسـنة، الفتـح العـربي، اليرمـوك. نعـم لقـد كانـت كل كلمـة مـن هـذه تمثـل خطـوة مـن تلـك الخطـوات المباركـة التـي انتهـت بصـيرورة هـذه البـلاد عربيـة. ولـئن كانـت البـتراء وبـصرى محطـات للاتجـار ولـئن

كان المشتى قصرا للنزهة فقد كانت كل هذه محطات انتشرت منها اللغة العربية ومراكز انتشر منها العنصر العربي، واتحدت معها الحيرة وتدمر والبصرة والكوفة وواسط ودمشق والرملة وحلب وكل مدينة أخرى. وجماع هذا الجهد الذي شمل هذه الرقعة الواسعة، وامتد كل هذا الزمن هو أن أصبحت هذه البلاد عربية، وبت أشعر أنني في وطني حيث نزلت وأنّى ارتحلت.

٨ - ذكريات شامية

وأخيرا عدت إلى زيادة دمشق

عدت لأستعيد ذكرى طفولة عذبة قضيتها في ربوع هذه المدينة، ثم انقطعت عنها سنوات طويلة. تركتها وقد لعبت مع صبيتها وتسكعت في أزقتها وركضت في متنزهاتها، وعدت إليها لأستعيد تلك الذكرى فأستمتع منها بساعات عذاب وعدت إليها كذلك شابا ملء بردى رغبة في استطلاع معالمها واستنطاق آثارها واستقصاء أنبائها. عدت وكلي شوق إلى ذلك، فبلت دمشق شوقي وأطفأت حر ظمئي وأشبعت بعض نهمى. فهذه الحارات التي لعبت فيها وهذه الأزقة التي قضيت فيها ساعات بدون قصد أو غاية، وهذه، إلى جانب تلك، معالم التاريخ تنادى بأعلى صوتها مشيرة إلى الدور التي مثلته دمشق على مسرح التاريخ الانساني، فرددت قول شوقي:

وذكرى عن خواطرها لقلبي

إليك تلفت أبدا وخفق

وكيف لا يخفق القلب عند ذكر دمشق!

هــذه دمشــق تعــود إلى العصــور المتوغلــة في القــدم، مدلــة بأنهــا أعتــق مدينــة عــلى وجــه البســيطة، اســتمرت فيهــا الحيــاة منــذ إنشــائها حتــى اليــوم! هــذه دمشــق تنظــر إلى ســوريا الوســطى والجنوبيــة مدلــة بفضلهــا ذاكــرة دورهــا في الدفــاع عــن أخواتهــا مــن مــدن تلــك الجهــات وقراهــا، فــان أنكــر عليهــا منكــر ذلــك ذكرتــه بأنهــا منــذ القــرن الحــادي عــشر إلى القــرن الثامــن قبــل الميــلاد كانــت دمشــق تصــد عــن بلادنــا عاديــة الأشــوريين، يــوم ان كانــت أراميــة ســامية تنقــل المتاجــر شرقــا وغربــا، بــين البحــر الرمــلي الصحــراوي والبحــر المتوســط. فــاذا عــدا عليهــا أو عــلى جوارهــا عــاد تركــت الميــزان وحملــت الســيف ورمــت الحمــل وتنكبــت القــوس، وأغلقــت الســوق وفتحــت الحصــن، فــلا تلبــث حتــى تــرد العاديــة وتبعــد المصيبــة وتقــصى النكبــة، فــإذا النــاس في ســلام وأمــن واطمئنــان، فيعــود الســيف إلى غمــده والقــوس إلى مأواهــا والحصــن إلى إغــلاق أبوابــه، ويعــود الميــزان والســوق والحمــل إلى العمــل. لكــن دمشــق هــذه لمــا تألــب عليهــا خصومهــا الأقويــاء واســتعانوا عليهــا بالســذج مــن أعوانهــا، واســتمالوا إليهــم الخائنــين مــن أنصارهــا، عجــزت عــن المقاومــة وقتــا، فاحتلــت ودكــت أســوارها وهدمــت حصونهــا وعطلــت أســواقها. وكان ســقوطها ســقوط الجــوار كلــه مدنــا وقــرى، أســواقا ومــزارع مصانــع وبســاتين. ولمــا انتبــه الســذج والخونــة إلى مــا حــاق بهــم ندمــوا ولات ســاعة منــدم.

وجــاء الاســكندر الكبــير ثــم تــوالى عــلى البــلاد خلفــاؤه وبعدهــم الرومــان. وكل مــن كان لــه شــأن في هــذه الجهــات أدرك الأثــر الــذي يمكــن دمشــق أن تؤثــره في النــاس والبــلاد. فليــس مــن الســهل عــلى بلــد يــشرف عــلى طريــق الداخــل إلى الســاحل، وتجتمــع فيــه تجــارة العــرب مــن الحجــاز

إلى نجـد إلى العـراق ويتوسـط مركـز الاتصـال بحمـص وحـماة وفلسـطين وبـيروت. ليـس مـن السـهل عـلى بلـد هـذا شـأنه أن يهمـل. وإمـا أهمـل فانـه قائـم وفـارض إرادتـه عـلى أصحـاب الأمـر. وهـذا مـا حـدث مـرارا في تاريـخ دمشـق. تحطـم وترغـم عـلى الاخـلاد إلى السـكينة، ولكـن لا يطـول بهـا الزمـن. فنشـاط أهلهـا، ونشـاط البلـدة ونشـاط الموقـع

ونشـاط الزمـن، كل أولئك يحفزهـا إلى القيام فتقوم وتفوز بما تريد.

وهكذا فازت دمشـق بما تريد أيام كان الرومان يعنون بهذه البلاد.

ثـم جـاء دمشـق مـن عـرف قيمنهـا قبـل أن تفـرض هـي إرادتهـا عليـه. جاءهـا معاويـة بـن أبي سـفيان.

فقـد اتخذهـا معاويـة عاصمـة للدولـة الأمويـة، وعرفـت بذلـك دمشـق عـزا لا مثيـل لـه. فقـد كانـت عاصمـة لملـك يمتـد مـن الهنـد إلى اسـبانيا، فكانـت مقـر الخليفـة وأمـراء الدولـة ورجـال الحـل والعقـد. منهـا كانـت تـدار الولايـات وفيهـا كانـت تعقـد المشـاورات وإليهـا كانـت ترفـع الشـكايات وفيهـا كانـت تنظـر الظلامـات. وبنـى فيهـا معاويـة القبـة الخـضراء وأنشـأ فيهـا الوليـد جامـع بنـي أميـة وعقـد فيهـا عبـد الملـك مجالسـه. وتعربـت دمشـق في عهدهـم فصـارت العربيـة لغـة شـعرها وأدبهـا ولغـة مجلسـها وديوانهـا ولغـة سـوقها وحاراتهـا. ذكـرت هـذا كلـه

وأنا أتنقل بين معالم المدينة الأموية فتذكرت قول شـوقي:

لولا دمشـق لما كانت طليطلة

ولا زهـت ببني العباس بغدان

في هـذه الفـترة كانـت دمشـق تتقـدم وتنمـو وتزدحـم بالسـكان، فتمتـد شـمالا، ويعنـى بتوزيـع المـاء عـلى أجزائهـا البعيـدة، ولذلـك نجـد نهـر يزيـد يشـق فيهـا ليوصـل المـاء إلى أجزائهـا ونواحيهـا الجديـدة. وفي هـذه الفـترة تعـود الأسـواق الرومانيـة إلى الظهـور وهـي بعـد أوسـع نطاقـا وأحقـل بالخـيرات وأعمـر بالمتاجـر، فقيسـارياتها كثـيرة وأسـواقها مليئـة. وتسـتمر هـذه الحركـة فيهـا ولـو أنهـا تأخـرت قليـلا، فتصـل دمشـق إلى عزهـا التجـاري في أيـام الأيوبيـين والماليـك، هـذا مـع أنهـا تـرى سـلطانها السـياسي ينحـسر فيقتـصر عـلى سـوريا الوسـطى والجنوبيـة بعـد أن كان يشـمل العـالم العـربي مـن أقصـاه إلى أقصـاه. وكأنهـا عوضـت بتجارتهـا وثروتهـا بعـض مـا خسرتـه مـن عـن وسـلطان، فتراهـا تفـرض صناعاتهـا عـلى أهـل الـشرق ومتاجرهـا عـلى أهـل الغـرب، فسـيوفها ورماحهـا وجلودهـا وحريرهـا يبتاعـه أهـل البـلاد، ومـا فيهـا مـن الأفاويـه والتوابـل والمنتوجـات الهنديـة ينقـل منهـا غربـا. كـما أنهـا اسـتكثرت المـدارس والرباطـات والزوايـا والمستشـفيات. فـكان لهـا في ذلـك كلـه فضـل أي فضـل وشرف أي شرف! ونحـن واجـدون ذلـك كلـه واضحـا فيـما رواه الرحالـون الذيـن زاروهـا في تلـك العصـور. فهـذا بنيامـين الإسـباني يقـول (يخـترق دمشـق نهـر أبانـا الذي تحمـل مياهـه إلى دور كبـار النـاس فيهـا، في أنابيـب كـما تنقلهـا الفنـي إلى الشـوارع والأسـواق. وتجارتهـا واسـعة ويقيـم بهـا تجـار مـن جميـع الأقطـار. وجامعهـا قلـما يسـاويه بنـاء آخـر في فخامتـه. وهـذا ابـن جبـير يحدثنـا عـن المـدارس والمستشـفيات، فمدارسـها عـشرون وبهـا مستشـفيان جرايتهـما في اليـوم ثلاثـون دينـارا (أي نحـو خمسـة عـشر جنيهـا)، والأطبـاء يبكـرون كل يـوم فيتفقـدون المـرضى ويأمـرون بعـداد مـا يصلـح مـن الأدويـة والأغذيـة

حسـبما يليـق بـكل منهـم. والمدرسـة التـي لفتـت نظـر ابـن جبـير هـي المدرسـة النوريـة التـي أنشـأها نـور الديـن.

أمـا تجـارة دمشـق وقيمتهـا الاقتصاديـة في تلـك العصـور، فقـد رسـم لهـا الرحالـون صـورا كثـيرة لعـل مـن أوضحهـا تلـك الصـورة التـي خلفهـا لنـا فـون سـوخم، فقـد قـال عنهـا (دمشـق عظيمـة فخمـة جميلـة وغنيـة بـكل أنـواع المتاجـر، وفي كل ناحيـة منهـا شيء مبهـج. فالطعـام فيهـا كثـير وكذلـك التوابـل والحجـارة الكريمـة والحريـر واللآلـئ والأقمشـة المقصبـة والطيـوب مـن الهنـد وبـلاد التتـار ومـصر وسـوريا وأروبـا. وكل مـا يشـتهيه المـرء يجـده فيهـا. وهـي كثـيرة السـكان إلى حـد لا يصـدق.

(وتقـوم صناعاتهـا المختلفـة كل في حـي خـاص. وكل صانـع يتخـذ أمـام بيتـه مكانـا يعـرض فيـه مصنوعاتـه عرضـا يلفـت النظـر ويغـرى بالـشراء. وكذلـك يصنـع التجـار بسـلعهم. وكل مـا يصنـع بدمشـق متقـن والتجـار الأغنيـاء يحتفظـون بالطيـور في أقفـاص أمـام بيوتهـم. مـع أن المدينـة مزدحمـة بالسـكان، ومـع أن البضائـع تـترك في الشـوارع دون حراسـة، فليـس ثمـة مـن يذكـر أن أحـدا قتـل في دمشـق وقلـما تـسرق فيهـا السـلع المعروضـة للبيـع).

ولعـل مـن أروع الأبنيـة التـي ترجـع إلى هـذا العهـد في دمشـق قلعتهـا. فهـي عـلى شـكل مسـتطيل فسـيح طولـه ٢٢٠ مـترا وعرضـه ١٦٠ مـترا، لهـا مدخـلان كبـيران ويـدور بهـا ثلاثـة عـشر برجـا. والقلعـة عـلى شـكلها الحـالي ترجـع إلى سـنة ١٢٠٦ ميلاديـة، وإن كانـت قـد بنيـت قبـل ذلـك بمـدة يسـيرة. وكانـت القلعـة في ذلـك الوقـت تشـغلها حصـون الدفـاع

ودار صاحب السلطان الخاصة، وفيها الإيوان الرسمي الكبير والإدارات العسكرية والمدنية وبرج التمام يأوي إليه الحمام الزاجل وثكنات الحرس ومخازن السلاح وبيت المال ودار سك النقود والسجن. فهذه القلعة كانت مدينة داخل مدينة

وفي أيام المماليك صارت دمشق مركزا لسورية وفيها مقام نائب السلطنة. وعناية المماليك العسكرية بها كبيرة. وتظهر آثارهم في المنشآت العسكرية الكثيرة وفى إنشاء الميادين التي تتطلبها الكثرة المطلقة من الفرسان. فميدان للسباق وميدان للعب بالكرة. وهناك سوق للخيل وللسروجيين وهكذا

على أن دمشق شقيت بعد هذا الثراء. فقد تناوبتها أحداث أقضت مضاجع أهلها حتى خيف عليها وعلى جاراتها. ففي السنة ١٤٠٠ ميلادية هاجمها تيمور التتاري وفرض عليها غرامة كبيرة ثم انتزع ألفين من صناعها ومهندسيها وحملهم إلى سمرقند ليبنوا له عاصمته. وفى أواخر القرن الخامس عشر بدأ تحول التجارة عن سوريا ومصر إلى طريق جنوب أفريقيا، فقلت البضائع الواردة إلى دمشق وتناقص عدد البائعين والمشترين، وفي أوائل القرن السادس عشر احتل العثمانيون سوريا. فكان ذلك الانتقال مؤذنا بتغير في حالها.

لكن دمشق قوية على أحداث الدهر ومصائبه، فهي لا تكاد تقع حتى تنهض. وعلى هذا فنحن نجدها في القرن السابع عشر ثم في القرن الثامن عشر تعود إلى ما كانت عليه. فتمتلي أسواقها وتعمر حوانيتها وتعمل مصانعها ويعود البائعون والمشترون. الشرق ومن

الغــرب فيتنافســون في ســبيل بضائعهــا.

عـدت إلى دمشـق، وقضيـت فيهـا أيامـا أسـتعيد ذكريـات الطفولـة وأسـتنطق معـالم التاريـخ، فأنبأتنـي المعـالم بالكثـير، ونطقـت الآثـار بالكثـير.

وخرجت من دمشـق وأنا أردد أبيات شوقي:

أَلَستِ دِمَشقُ لِلإِسلامِ ظِئراً

وَمُرضِعَةُ الأُبُوَّةِ لا تُعَقُّ

صَلاحُ الدينِ تاجُكَ لَم يُجَمَّلْ

وَلَمْ يوسَـمْ بِأَزيَنَ مِنهُ فَرقُ

سَـماؤُكِ مِن حُلى الماضي كِتابٌ

وَأَرضُـكِ مِن حُلى التاريخِ رَقُّ

بَنَيـتِ الدَولَةَ الكُبرى وَمُلكًا

غُبارُ حَضارَتَيهِ لا يُشَـقُّ

لَهُ بِالشامِ أَعلامٌ وَعُرسٌ

بَشائِرُهُ بِأَندَلُسٍ تَدُقُّ

أندلسيَّات

•••

١- حائك وادي آش

التأم مجلس الملك سرجيس في طليطلة وأكمل عقده في قاعة الاحتفالات الصغرى. فقد كان من عادة سمار الملك ونصحائه ومشيريه وأصحابه، أن يحيطوا به كل مساء بعد طعام العشاء. فيتحدثوا في شؤون الدولة العامة ويتداولوا أخبار الناس خاصهم وعامهم. وكان قد هبط المدينة في ذلك اليوم شاعر مغن، فجيء به الى مجلس الأنس هذا ليطرب القوم. ودارت الأحاديث في كل ناحية، ثم أذن الملك للشاعر بالإنشاد. فتقدم، وقد حمل قيثارته، وقص على القوم، في صوت عذب حنون، أخبار من غبر من الفرسان، وقصص حبهم وغرامهم، وروى كيف دافع الأقدمون عن البلاد لما غزاهم أهل البر الأفريقي في سالف العصر والأوان، وعظم فضائلهم ورسم بموسيقاه وغنائه، صورا خلابة براقة لهم. فأصاب كل ما فعل، وترا حساسا في جميع السامعين وأثار في نفوسهم ما كمن من لواعجها.

وكان هذا الانشاد خاتمة المطاف في تلك الليلة، فانفض السامر، وأوى كل امرئ منهم الى مضجعه وداعب الكرى أجفانهم، ولم يلبثوا أن استسلموا للنوم، الذي حمل أرواحهم الى عالم الأحلام فتراءت لهم الدنيا قصائد تغنى ومجالس أنس تعقد ووقائع حب وغرام ومعارك فرسان. لكن شخصا واحدا حرم عليه النوم تلك الليلة. كان ذلك الرجل الملك نفسه. فالكرى لم يجد طريقا إلى عينيه والراحة لم تعرف سبيلا إلى فؤاده، وظل

ساعات يتقلب على فراشه. أقض مضجعه هذه الذكريات التي أثارها الشاعر من مكمنها، ذكريات غزو أهل البر الافريقي لبلاده وقوى وساوسه ما بلغه قبل أيام من استعداد أهل تلك الجهات للهجوم على اسبانيا، طمعا في خصبها وثروتها وجمالها.

حرم الملك الكرى، وتعب من فراشه، فتركه وجلس في قوس النافذة وحدق في السماء الصافية ونجومها اللامعة وكأنه يحاول استطلاع ما تخفيه النجوم خلف هذا البريق. وألقى بنظرة على المدينة المحيطة بقصره وما حولها من حدائق غناء وجنان فيحاء، وملأ صدره أريج الزهور الذي حمله إليه نسيم الليل، وكأنه يخشى أن يسلب هذا الوطن إذا هو لم يعد للأمر عدته، وقلب الأمر على وجهه فلم يوفق لحل قط.

قام الملك من مجلسه، وارتدى بعض ثيابه وخرج، وتحسس طريقه في ممرات قصره الكبير؛ متجنبا إزعاج النيام، حتى أتى حجرة مشيره العزيز عليه، فطرق الباب طرقا خفيفا، ففزع الرجل من نومه، وفتح الباب، وكاد يصعق إذ رأى مليكه على الباب. فأشار الملك أن اصمت ودخل، روع صاحبه. فلما عاد إليه رشده، حدّثه الملك بجلية أمره وما يشغل باله. وصمت الاثنان برهة، ثم تكلم الصاحب قائلا: أيها الملك إن مملكتنا على غناها صغيرة، ومواردها محدودة، وجيشها على شجاعة جنوده لا قبل له بمقاومة الغزاة أن حدثتهم نفوسهم أن يعبروا الينا، والملوك الذين حولنا قد لا نأمن جانبهم، فهم يحسدوننا ويحاولون الايقاع بنا. والرأي عندي هو أن نحصل على طلسم يحمينا من أولئك

القـوم، ويقـوّى سـاعد جندنـا إذا جـدّ الجـد. وقـد بلغنـي أنـه يقيـم في وادى آش حائـك يسـتطيع أن يصنـع الطلاسـم فلنجربـه.

وكأن الملـك كان ينتظـر مثـل هـذا الـرأي مـن جليسـه، فلـم يـكاد ينطـق بهـذه الكلـمات حتـى أجابـه. سأرسـل اليـه السـاعة، وسـأذهب منفـردا. وعليـك أنـت أن تدبـر المملكـة في غيـابي، ويتحتـم عليـك أن تخفـي قصـدي ووجهتـي عـن النـاس كلهـم. ونهـض الملـك ولم يـزد

كانـت أشـعة الفجـر الفضيـة قـد ظهـرت بوادرهـا في الأفـق الشرقـي لمـا خـرج الملـك عـلى جـواده، وقـد تلثـم بحيـث لا يعـرف، فلـما أشرقـت الشـمس كان قـد وصـل إلى أطـراف مملكتـه. وأغـذ السـير، فـما يقـف إلا ليتبلـغ، حتـى وصـل وادي آش في مسـاء اليـوم التـالي. فـما أضـاع وقتـا، ولا فـوت فرصـة، فانـه مـا كاد يهبـط الـوادي الجميـل، ويـسر في ظـلال أشـجاره الوارفـة، ويستنشـق ريـاه العطـر، حتـى اطـمأن الى أنـه واجـد بغيتـه. ومـا كان مـن الصعـب عليـه أن يهتـدى الى الحائـك المتنسـك. فقـد كان هـذا يقيـم في شـجرة قسـطل ضخمـة اتخـذ منهـا لـه مسـكنا.

اقـترب منـه الملـك وحيـاه، فـرد الحائـك التحيـة ونظـر إليـه، والابتسـامة تمـلأ وجهـه بـشرا وقـال: «هـوّن عليـك فقـد وجـدت ضالتـك». ثـم دعـاه إلى مشـاركته في خبـز وبقـل كان يأكلـه. وكأن هـذا الاطمئنـان الـذي كان يسـتمتع بـه الحائـك قـد سرى إلى نفـس الملـك فأحـس بالجـوع وجلـس إلى الحائـك، والتهـم مـا اسـتطاع إلى التهامـه سـبيلا. فلـما فرغـا انـصرف الحائـك إلى صـلاة قصـيرة قالهـا ثـم التفـت إلى الملـك وقـال: سـأهيئ لـك الطلسـم الـذي تريـد، ليحمـى بلـدك مـن الغـزاة، فنـم السـاعة وسـتجده

جاهـزا متـى صحـوت. فالتحـف الملـك بردائـه، واتخـذ لـه بجانـب شـجرة القسـطل مكانـا أوى إليـه، فلـم يلبـث أن انتقـل إلى عـالم الأحـلام لـيرى الحيـاة طلاسـم تحمـى الملـك

وطـال نومـه، فلـما اسـتيقظ كان قـد نـام ثلاثـة أيـام كاملـة، ووجـد إلى جانبـه صندوقـا صغـيرا مـن الرخـام، محكـم الأقفـال وكتابـا فضـه فقـرأ فيـه: «احمـل هـذا الصنـدوق إلى عاصمـة ملـكك، فـإذا وصلـت اليهـا، فاخـتر غرفـة في قـصرك متينـة البنيـان سـميكة الجـدران، وأودع فيهـا هـذا الصنـدوق، وضـع معـه المائـدة الثمينـة التـي في كنيسـة البلـدة، ثـم أقفـل الغرفـة إقفـالا محكـما. وأوص خلفـاءك مـن بعـدك أنـه متـى ولى الحكـم منهـم واحـد فليضـف إلى أقفـال الغرفـة قفـلا. لا تفتـح الصنـدوق وإلا هلكـت أنـت وقومـك ولم تقـم لكـم بعدهـا قائمـة، واعلـم أن هـذا الطلسـم يصلـح مـا دام الاعتقـاد بقوتـه موجـودا. فـإذا شـككتم بـه فقـد أثـره».

ولم يعـثر الملـك للحائـك عـلى أثـر، فحمـل الصنـدوق، وعـاد إلى طليطلـة بمثـل السرعـة التـي جـاء بهـا. فوصلهـا والليـل مخيـم عليهـا، فدخـل قـصره سرا، وقصـد غرفـة مشـيره النصـوح، فولجهـا وأيقظـه وأخـبره بأمـره، واسـتودعه إلى الصبـاح.

وأعـد الملـك العـدة للعمـل بوصيـة الحائـك. فاختـار الغرفـة الصالحـة وأحـضر المائـدة مـن الكنيسـة ودعـا كبـار القـوم ورجـال الديـن للاحتفـال بإيداعهـا مـع الصنـدوق في الغرفـة. وتـم ذلـك مـع مراسـيم فخمـة. ثـم أقفلـت الغرفـة وانـصرف النـاس إلى أعمالهـم وقـد أمنـوا الـشر الـذي كان يقـض مضاجعهـم.

وتتابع خلفاء الملك سرجس على عرش طليطلة، وكان كل واحد منهم في أول يوم من اعتلائه العرش ينزل إلى الغرفة ومعه كبار رجال الحاشية ورجال الدين فيضيف قفلا كبيرا متينا إلى هذه الأقفال التي كثر عددها على الباب فإذا تم له ذلك انصرف إلى حفلة التتويج الرسمية، كان وضع القفل هو أول عمل رسمي يقوم به الملك الجديد

وبلغ عدد الأقفال ستة وعشرين، ومات آخر ملك وهو الملك السادس والعشرون، وخلف أولادا صغارا فتقدّم أحد القواد وتولى الوصاية عليهم، ثم لم يلبث أن اغتصب العرش، وهم بتتويج نفسه ملكا باسم رودريك أو لذريق.

وتقدّم الناس إليه، وقد رضوا بحكمه مكرهين، وطلبوا إليه أن يسير على خطة أسلافه العظام، فيضيف قفلا إلى هذه الأقفال التي تحرس الباب. فأبى لذريق ذلك واعتزم أن يفتح الغرفة ليرى ما فيها ثم يعود فيحكم إقفالها. وبلغ أهل المدينة ما عزم عليه الملك، فتقدّموا إليه ضارعين ألا يفعل. لكنه رفض ضراعتهم وضرب برغبتهم عرض الحائط، واتعد القوم اليوم الأول من حكمه لكسر الأقفال

نزل الملك إلى الغرفة، ومعه جلادوه وجنده يحملون الفؤوس القوية تلوح بها زنودهم المفتولة. وتقدّم اليه أثرياء المدينة للمرة الأخيرة ورجوه أن يترك الأقفال على حالها، وقال له قائلهم: أيها الملك. لقد درج الأسلاف على الاحتفاظ بسر هذه الغرفة، وقد نقل لنا آباؤنا وأجدادنا أن هذا هو الذي سلّم بلادنا كلها من غزو العدوّ، ونحن على يقين بأن ما فيها لا يستحق الفتح. ولكن إن كانت لك رغبة في

فتحها ظنا منك بأن بها كنوزا قيمة، فقدّر قيمتها ونحن مستعدون لأن ندفع لك هذا الذي تريد فاستشاط الملك غيظا وكاد يقتل المتكلم لولا صيحات القوم. وأمر به فدفع إلى خارج القصر، ثم التفت إلى المحيطين به، وقال والشرر يقدح من عينيه: أنا الذى أدفع عنكم عادية الغزاة، ولا بد لي من فتح هذه الغرفة). ثم أمر رجاله بفتح الأقفال واحدا واحدا، وكان كل قفل مفتاحه معلق به، وكان كلما فتح قفل صعدت من الجماعة أنة ألم وصيحة امتعاض، لكنها لم تلق من الملك لذريق التفاتا. فلما تم فتح الأقفال الستة والعشرين، أمر بالباب نفسه فكسر. ودخل الغرفة فوجد المائدة المصنوعة من الذهب الخالص والمحلاة بالجواهر، فطفح وجهه سرورا لأنه عثر على هذا الكنز الثمين.

ثم تناول الصندوق المقفل. وقلبه بين يديه وحاول أن يهتدى إلى طريقة لفتحه، وعندها علت من الجمهور صيحة رجاء بأن يبقى الملك على الصندوق كما هو، لكن لذريق كان قد صمم على فتحه، فلم يعر رجاءهم أذنا صاغية، وأمر به فكسر لأنه عجز عن الاهتداء إلى وسيلة لزحزحة الغطاء.

انكسر الصندوق الرخامي، وانهلعت لانكساره أفئدة الواقفين قرب الملك والمنتظرين خارج القصر فبانت على جوانبه في الداخل رسوم فرسان عليهم العمائم وتحتهم خيول عراب وهم متقلدو السيوف متنكبو القسي ورافعو الرايات على الرماح، فتبينوا الصور فإذا هي صور فرسان العرب. وفتش لذريق عن شيء آخر يشفي غلته فلم

يجـد. ولكـن أحـد الرجـال الواقفـين حولـه لمـح في طـرف الصنـدوق مـن الجهـة الأخـرى كتابـة حـاول الموجـودون قراءتهـا فلـم يسـتطيعوا، فاسـتدعى العارفـون في البلـد والملـك وجماعتـه وقـوف بالمـكان، فجـاء هـؤلاء، وتمكـن أحدهـم مـن حلهـا فـإذا فيهـا: «إذا كـسرت الأقفـال عـن هـذا البيـت وفتـح هـذا الصنـدوق فظهـر مـا فيـه مـن الصـور فـإن هـذه الأمـة المصـوّرة في هـذه الشـقة تدخـل الأندلـس فتغلـب عليهـا وتملكهـا». فوجـم لذريـق ونـدم عـلى مـا فعـل وعظـم غمـه وغـم مـن معـه وأمـر بـرد الأقفـال وإقـرار الحـراس عـلى البيـت.

خيـم الليـل عـلى طليطلـة والنـاس في هـم وغـم والملـك في حـيرة مـن أمـره، ومشـيروه لا يـدرون مـا يقولـون ومـا ينصحـون. وعنـد شـجرة القسـطل فى وادي آش جلـس الحائـك يـأكل خبـزه وبقلـه، ثـم صـلى ولـف نفسـه بكسـائه الرقيـق وأطلـق نفسـه للنـوم. وحمـل إلى عـالم الأحـلام، فـرأى فيـما يـرى النائـم أن جماعـة مـن فرسـان العـرب ينزلـون مـن سـفنهم ويركبـون خيولهـم العـراب وهـم متقلـدو السـيوف متنكبـو القـسى يحملـون الرايـات المرفوعـة عـلى الرمـاح، ثـم رأى النـار يندفـع لهيبهـا في السـفن فتحرقهـا عـن آخرهـا، ثـم خيـل إليـه أنـه سـمع قائدهـم ذا الوجـه الأسـمر البـادي القسـمات الواضـح المعـالم يقـول لهـم في صـوت كأنـه جلجلـة الرعـد القاصـف تشـو بـه الثقـة بالنفـس والايمـان القـوى، سـمعه يقـول لهـم (أيهـا النـاس أيـن المفـر! البحـر مـن ورائكـم والعـدوّ أمامكـم وليـس لكـم واللـه إلا الصـدق والصـبر. والتفـت الحائـك إلى الجهـة الأخـرى فـرأى لذريـق مهمومـا مغمومـا وأمامـه صـورة الصنـدوق المحطـم فـأدرك مـا حـدث.

هب لذريق من مجلسه بين قومه وتناول سيفه وركب جواده وأغذ السير إلى وادي آش، إلى شجرة القسطل ليستر شد برأي الحائك فوصل إلى الوادي والشمس قد برزت فوق الأفق، فترجل ونادى فلم يسمع مجيبا ودار بالشجرة فوجد النول الذي كان الحائك يستعمله وقد وقع وتكسر وتقطعت الخيوط التي كانت فيه ثم وجد الحائك ملتفا بردائه وقد فارقت روحه جسمه

وحانت من الذريق التفاتة فأبصر الغصون تميل على ماء النهر إيماء فوقف يتأمل ذلك، فخيل إليه أنه سمع صوتا لم يتبين مصدره يدوي في أذنه: «إذا كسرت الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا الصندوق فظهر ما فيه من الصور، فإن هذه الأمة المصوّرة في هذه الشقة تدخل الأندلس فتغلب عليها وتملكها؛ أيها الناس أين المفر!!! البحر من ورائكم والعدوّ أمامكم فليس لكم و الله إلا الصدق والصبر».

فأيقن لذريق أن الصوت هو صوت النذير. وتبينه بعد مدة، يوم أن قاتله طارق بن زياد فغلبه، وانتزع منه ملك الأندلس

٢ – سفارات

عرفت الأندلس، بين عصورها الزاهرة، عصرين في أيام العرب بلغت فيهما حياتها السياسية والأدبية والعلمية والاقتصادية الذروة: أولها عصر الحكم وابنه عبد الرحمن الأوسط، وثانيهما عصر عبد الرحمن الناصر. ومن غرائب المصادفات أن يتميز العصران بتبادل الوفود بين القسطنطينية وقرطبة. ولعل الوفود تبادلتهما العاصمتان في غير هاتين المناسبتين، كما تعددت الوفود إلى قرطبة من عواصم أخرى كثيرة،

لكـن وفـادة رسـل ملـوك بيزنطيـة في ذينـك العصريـن عنـى بهـا الـرواة فدوّنـوا أخبارهـا لأنهـا، عـلى مـا يظهـر كانـت لهـا عندهـم دلالـة خاصـة أو لأن أحداثـا أدبيـة فرضتهـا عليهـم، هـذا إلى قيمتهـا السياسـية مـن حيـث أنهـا مبعـث فخـر للسـلطان أن يبادئـه الملـوك بإرسـال الهدايـا والرسـل وطلـب عقـد المحالفـات معـه.

كان قيـصر البيزنطيـين في أواسـط القـرن التاسـع للميـلاد وأوائـل القـرن الثالـث للهجـرة ثيوفيلـوس، وكانـت بيزنطيـة قـد لقيـت الأمريـن في حـرب العباسـيين عـلى يـد المأمـون وأخيـه المعتصـم. هـذا فضـلا عـن أن غـارات أخـرى كانـت تشـن عـلى بلادهـا مـن جهـات أخـرى. ورأى ثيوفيلـوس أن لا قبـل لـه بمواجهـة كل هـذه القـوى، فخطـر لـه أن يسـتند بالقـوى الغربيـة. وكان عبـد الرحمـن الأوسـط آنئـذ أمـير الأندلـس، فبـدا للقيـصر أن يعقـد معـه محالفـة ويحرّضـه بالهجـوم عـلى العباسـيين بحـرا وبـرا. وكان قصـد ثيوفيلـوس أن تشـتغل قـوى بغـداد بـرد قـوى قرطبـة فيخـف الضغـط عـلى حـدوده الجنوبيـة

أرسـل ثيوفيلـوس سـفارته إلى أمـير الأندلـس ومـع سـفيره هديـة فخمـة. فوصـل الرسـول سـنة ٢٢٥ هجريـة ٤٨٠ ميلاديـة يحمـل الهديـة وكتابـا مـن القيـصر يذكـر فيـه الأمـير عبـد الرحمـن بالـود القديـم، الـذى كان بـين أسـلافه في الشـام و بـين ملـوك بيزنطيـة، ويتذمـر فيـه مـن أعـمال المأمـون والمعتصـم، ويشـكو مـن احتـلال أهـل البحـر الأندلسـيين الجزيـرة أقريطـش (كريـت الحديثـة). ثـم يطلـب إليـه تجديـد الصداقـة القديمـة بـين البيتـين المالكيـن و يرغبـه في ملـك الـشرق ويسـتثيره لمناهضـة العباسـيين ويعـده

بالعون من جانبه إن هو أقدم.

ولم يكن عبد الرحمن يفكر بأمر مثل هذا فلم يثره كتاب ثيوفيلوس، لكنه رأى من الحكمة أن يرد على سفارة القيصر بما يليق بها. فاختار يحيى الغزل كاتبه ومشيره رئيسا للوفد، وكان الغزال قد تجاوز الخمسين لكنه مازال نشيطا وكانت ثقافته وحنكته وكياسته تؤهله لمثل هذه المهمة، فضلا عن ثقة الأمير به. وغادر قرطبة برفقة السفير البيزنطي يحمل إلى القيصر كتاب أميره وهديته. والظاهر أن رحلته كانت شاقة جدا، تخللتها العواصف وتعرض فيها لأمواج البحر. وقد وانته شاعريته في وصف الموج إذ قال:

قال لي يحيى، وصرنا

بين موج كالجبال

وتولتنا رياح

من دبور وشمال

شقت القلعين وأنبتت

عرى تلك الحبال

وتمطى ملك الموت

إلينا عن حيال

فرأينا الموت رأي العين

حالا بعد حال

وقـدم يحيـى الغـزال كتـاب الأمـير عبـد الرحمـن إلى قيـصر بيزنطيـة وفيـه رد الأمـير اللطيـف عـلى كل مـا أشـار اليـه القيـصر. فصداقتـه مقبولـة، وسـخطه عـلى العباسـيين مشـاطر فيـه، أمـا اسـترداد الملـك بالمـشرق فأمـر مرغـوب فيـه لكـن الأحـوال لا تسـمح بـه، فـإذا مـا جهـز الأسـطول وقـوى قـام الأمـير بواجبـه نحـو صديقـه وسـليل أصدقـاء آبائـه.

وسـحر الغـزال لـب البـلاط البيزنطـي. فقـد كان ذلـق اللسـان ظريفـا أنيـس المعـشر لطيفـه، فأعجـب بـه الجميـع وفى مقدمتهـم القيـصر. وخـف حديـث يحيـى عـلى قلبـه فطلـب منـه أن ينادمـه لكنـه اعتـذر بتحريـم الخمـر. وكان يومـا جالسـا عنـده فدخلـت الإمبراطـورة ثيـودورا وعليهـا زينتهـا فجعـل الغـزال لا يميـل طرفـه عنهـا وجعـل الملـك يحدثـه وهـو لاه عـن حديثـه، فأنكـر ذلـك عليـه وسـأله. السـبب فلـم يكتمـه بـل ذكـر لـه أن صورتهـا الحسـنة ومنظرهـا الأنيـق وطلعتهـا البهيـة شـغلته عـن حديـث الملـك. فأعجـب هـذا الـكلام الملكـين، وخصتـه ثيـودورا بعطفهـا وروى أنهـا أهدتـه بعضـا مـن اللآلـئ النـادرة ليجهـز بناتـه.

وعـاد الغـزال إلى قرطبـة بعـد رحلـة دامـت عـدة أشـهر، وقـد نجـح في توطيـد العلاقـات الودّيـة بـين قرطبـة وبيزنطيـة وأوجـد جـوّا مشـبعا بالثقـة والعطـف.

·أمـا الوفـادة الثانيـة فقـد كانـت في زمـن عبـد الرحمـن النـاصر، الـذي يمثـل ملكـه العـصر الذهبـي في الأندلـس. فقـد وفـدت عليـه في السـنة ٣٣٨ هجريـة ٩٤٩ ميلاديـة رسـل قسـطنطين ملـك بيزنطيـة. وأراد النـاصر

أن يظهـر للرسـل أبهـة ملكـه وعظمـة دولتـه فأمـر أن يتلقـوا أعظـم تلـق وأفخمـه، وأحســن قبــول وأكرمــه

فلـما وصلـوا بجايـة أخـرج إلى لقائهـم مـن يعتمـد عليـه الخدمـة أسـباب الطريـق. فلـما صـاروا بأقـرب المحـلات مـن قرطبـة خـرج إلى لقائهـم القـواد

في العــدد والعــدة والتعبئــة فتلقوهــم قائــدا قائــدا. ثــم خــرج الفتيــان الكبـيران ثـم أمـر بهـم النـاصر فانزلـوا بقـصر يخـص ولى العهـد بعـدوة قرطبــة في الربــض.

ولعلـه داخـل النـاصر بعـض الـشيء مـن ناحيتهـم، ورابـه مجيئهـم وأمرهـم وخـشى أن يكونـوا عيونـا جـاءوا يتعرفـون عـورات الملـك، فـرأى أن يمنعـوا مــن لقــاء الخاصــة والعامــة جملــة، ومــن ملابســة النــاس طــرا. ورتــب لحجابتهـم رجـالا اختـيروا مـن خـاص الحـرّاس.

وزيـن القـصر الخـلافي بأنـواع الزينـة، فبسـط عتـاق ودرانـك كرائـم تغطـى صحنــه، وظلــل الديبــاج ورفيــع الســتور يظلــل أبــواب الــدار وحناياهــا، والسريـر الخـلافي يتوسـط المجلـس. فلـما تمـت الاسـتعدادات كلهـا انتقـل النـاصر مـن قـصر الزهـراء إلى قـصر قرطبـة لدخـول وفـود ملـك بيزنطيـة عليـه. فعقـد لهـم يـوم السـبت لإحـدى عـشرة ليلـة خلـت مـن ربيـع الأول، في بهــو المجلــس الزاهــر. وكانــت الهيئــة كاملــة، فقــد جلــس عــن يمــين النـاصر ولى عهـده ثـم بقيـة أبنائـه عـن يمينـه ويسـاره وحـضر الـوزراء عـلى مراتبهـم يمينـا وشـمالا ووقـف الحجـاب مـن أهـل الخدمـة وأبنـاء الـوزراء والـوكلاء

وتقـدم رسـل ملـك الـروم، وقـد بهرهـم مـا رأوه وحيرهـم مـا أحـاط بهـم، فدفعـوا كتـاب صاحـب القسـطنطينية، وكان الكتـاب في رق مصبـوغ لونـا سـماويا، مكتوبـا بالذهـب بالخـط الاغريقـي. وداخـل الكتـاب مدرجـة مصبوغـة أيضـا مكتوبـة بفضـة بخـط إغريـق فيهـا وصـف هديـة الملـك. وعـلى الكتـاب طابـع ذهـب وزنـه أربعـة مثاقيـل: عـلى الوجـه الواحـد منـه صـورة المسـيح وعـلى الوجـه الآخـر صـورة الملـك قسـطنطين. أمـا الكتـاب فـكان داخـل درج فضـة منقـوش وعليـه صـورة مصنوعـة مـن الزجـاج الملـون البديـع. والـدرج نفسـه كان موضوعـا في جعبـة ملبسـة بالديبـاج

وكانـت غايـة قسـطنطين مـن إرسـال هـذا الوفـد التقـرب مـن النـاصر والحصـول عـلى وصـف صـادق لعظمـة بـلاط قرطبـة لكـثرة مـا تحـدّث النـاس عنـه، وقـد نـال مـا أراد. فمـما لا ريـب فيـه أن الوفـد عـاد إلى القسـطنطينية وقـد زوّد بـكل مـا طلـب منـه وعـرف صـدق مـا نقلـه الـرواة عـن البـلاط الأندلـسي.

وكان النـاصر قـد أمـر أن يقـوم الخطبـاء والشـعراء بـين يديـه أمـام الوفـد ليذكـروا جلالـة مقعـده وعظيـم سـلطانه ويصفـوا مـا تهيـأ لـه مـن توطيـد الأمـر في دولتـه، وكان قـد عهـد لـولى العهـد بإعـداد ذلـك. فـرأى هـذا أن يكـون الأمـر إلى أبي عـلى القـالي البغـدادي ضيـف الخليفـة وأمـير الـكلام وبحـر اللغـة فلـما دنـا الوقـت قـام هـذا وحمـد اللـه وأثنـى عليـه وصـلى عـلى نبيـه ثـم بهـت ووقـف سـاكنا مفكـرا. فلـما رأى ذلـك منـذر بـن سـعيد، ولم يكـن لـه مـن الأمـر شيء عندهـا؛ قـام ووصـل الافتتـاح بـكلام عجيـب بهـر السـامعين، جـاء فيـه «...... وإني أذكركـم بأيـام اللـه عندكـم، وتلافيـه

لكـم بخلافـة أمـير المؤمنـين التـي لمـت شـعتكم وأمنـت سربكـم ورفعـت قوتكـم...... واسـتبدلتم بخلافتـه مـن الشـدة بالرخـاء...... ألم تكـن خلافتـه قفـل الفتنـة بعـد انطلاقهـا مـن عقالهـا؟ ألم يتـلاف صـلاح الأمـور بنفسـه بعـد اضطـراب أحوالهـا؟...... فلانـت الأحـوال بعـد شـدّتها، وانكسـرت شـوكة الفتنـة عنـد حدتهـا وفتـح اللـه عليكـم بخلافتـه أبـواب الخـيرات، وصـارت وفـود الـروم وافـدة عليـه وعليكـم وآمـال الأقصـين والأدنـين مسـتخدمة إليـه واليكـم...... فاحمـدوا اللـه أيهـا النـاس عـلى آلائـه، واسـألوه المزيـد مـن نعمائـه فقـد أصبحتـم في خلافـة أمـير المؤمنـين، أحسـن النـاس حـالا وأنعمهـم بـالا وأعنهـم قـرارا، وأمنعهـم دارا»

بمثـل هـذا الاحتفـال المهيـب اسـتقبل النـاصر وفـد القسـطنطينية، وهـو كـما رأينـا، أفخـم مـن احتفـال سـلفه الأمـير عبـد الرحمـن الأوسـط. وقـد كان هـذا طبيعيـا، فزمـن النـاصر أعظـم جاهـا، وأكـثر ثـروة وأنضـج حضـارة، مـن أي زمـن آخـر في تاريـخ الأندلـس العربيـة.

وسرح النـاصر الوفـد بمثـل الحفـاوة التـي اسـتقبل بهـا، ورافقـه حجـاب الخليفـة حتـى خـرج مـن بـلاده.

والـذي نسـتطيع أن نتبينـه مـن دراسـة هـذه السـفارات وغيرهـا أن الاتصـال الدبلومـاسي الـذي يلجـأ اليـه أهـل العصـور الحديثـة لحـل بعـض مشـاكلهـم وعـرض وجهـات نظرهـم في المسـائل المعلقـة بـين الـدول، كان معروفـا في تلـك العصـور البعيـدة. وقـد سـاهم أجدادنـا فيـه، مثلـما فعلـوا في نواحـي التطـوّر الأخـرى، السياسـية منهـا والفكريـة.

٣ - في مجالس الأنس

احتل العرب الأندلس وعمروها واختلطوا بأهلها، فتأثروا بالبلاد، واعتنى الملوك والخلفاء بثروة القطر فتيسر لهم من ذلك ما تحتاجه حياة الترف والبذخ. فنشأت في ديار الأندلس العربية حضارة قوامها العلم الأصيل والأدب الراقي والحياة المدنية الرفيعة وقد تجلت هذه النواحي كلها في مجالس الأنس التي كان أهل البلاد يعقدونها ويروحون بها عن نفوسهم، ولم تقتصر هذه المجالس على جماعة دون أخرى، بل شملت طبقات الشعب كلها، ولم تكن مجالس اللهو تعتبر سبة يتجنبها النابهون وأولو الشأن في الأندلس. فمجالس الغناء غصت بها المحافل وشغلت الشعراء في أوقاتهم الكثيرة، وفتحت على المتأدبين أبوابا من التفنن الشعرى لم تكن معروفة قبلا حتى عزا بعض المشتغلين بتاريخ الأدب نشوء الموشحات إلى هذه المجالس. واشترك حتى في الغناء كثير من كبار القوم مثل عبد الوهاب بن حسين الحاجب.

وقد كان أثر المرأة في حياة الأندلس الأدبية والفنية كبيرا. فالشواعر والراقصات والمغنيات كن زينة هذه المجالس، فقد كان يؤتى بهنّ من أصقاع العالم المختلفة. ومقام المرأة كان محترما. ومن ثم كان أثرها الكبير في تنشئة الذوق الفني في الأدباء والشعراء، فاحترموها وأشادوا بذكرها، فقد كان لعبد الرحمن الناصر جارية حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الأدب. ومثلها جارية المعتمد فقد كانت لها معرفة واسعة باللغة والشعر حتى عدت بين علماء أشبيلية. ومن كبيرات المغنيات فضل المدنية وقمر البغدادية.

والحيـاة الأدبيـة الأندلسـية بجدّهـا وهزلهـا، والحيـاة العقليـة بعمقهـا، والحيـاة الاجتماعيـة بآدابهـا وقيودهـا - كل أولئـك كانـت تظهـر بأجـلى مظاهرهـا في هـذه المجالـس. وأكـثر مـا يعـبر عنهـا بالشـعر الـذي كان في الأندلـس غنـاء الراقـص وزاجـر النفـوس. وسـلوة عـن الفقـر، ومعـزة لمـن يحـب أن يفخـر بـه.

فهـذا عبـد الوهـاب بـن حسـين الحاجـب يصفـه لنـا صاحـب نفـح الطيـب بقولـه «كان واحـد عـصره في الغنـاء الرائـق والأدب الرائـع والشـعر الرقيـق واللفـظ الأنيـق ورقـة الطبـع وإصابـة النـادر والتشـبيه المصيـب والبديهـة التـي لا يلحـق فيهـا. وكان أعلـم النـاس بـضرب العـود وصنعـة اللحـون «و يحدثنـا المؤلـف نفسـه بأنـه كان إذا لم يـزره أحـد مـن إخوانـه أحـضر مائدتـه عـشرة مـن أهـل بيتـه، بينهـم ولـده وكلهـم يغنـى فيجيـد الغنـاء. فـلا يزالـون يغنـون بـين يديـه حتـى يطـرب فيدعـو بالعـود ويغنـى لنفسـه. وكان لـه زامـر مـن حـذاق زمـرة المـشرق. وإذا هبـط عليـه زائـر أكرمـه وجـدّد لـه كرامتـه كل يـوم حتـى يأخـذ منـه مـا معـه مـن صـوت مطـرب أو حكايـة لطيفـة. روى أنـه زاره يومـا ضيـف فأمـر بإدخالـه فـإذا رجـل أسـمر رث الهيئـة فسـلم عليـه فقـال أيـن بلـد الرجـال قـال البـصرة فرحـب بـه وأمـره بالجلـوس فجلـس مـع الغلـمان في صفـه وأتى بطعـام فـأكل وسـقى أقداحـا ودار الغنـاء في المجلـس حتـى انتهـى إلى آخرهـم. فلـما سـكتوا اندفـع يغنـى بصـوت نـدى وطبـع حسـن:

ألا يـا دار ما الهجر

لسكانك من شاني

سقيت الغيث من دار

وإن هيجت أشجاني

ولوا شئت لما استسـ

قيـت غيثا غير أجفاني

بنفسي حـل أهـلوك

وإن بانوا بسلواني

وما الدهر بمأمون

على تشتيت خلان

فطـرب عبـد الوهـاب وصـاح وتبـين الحـذق في إشـارته والطيـب في طبعـه فقـال يـا غـلام خـذ بيـده إلى الحـمام وعجـل عـلى بـه. فأدخـل الحـمام ونظـف ثـم دعـا لـه بخلعـة مـن ثيابـه فألقيـت عليـه، ورفعـه فأجلسـه عـن يسـاره وأقبـل عليـه فغنـى لـه ثلاثـا ثـم وصلـه وأحسـن إليـه وكان مـن شـعراء الأندلـس المجيديـن أبـو عامـر بـن شـهيد فحـضر ليلـة عنـد المظفـر بقرطبـة، فقامـت عـلى سـقايتهم وصيفـة عجيبـة صغـيرة الخلـق. ولم تـزل تسـهر عـلى خدمتهـم إلى أن هـم جنـد الليـل بالانهـزام؛ وكانـت تسـمى أسـماء، فعجـب الحـاضرون مـن مكابدتهـا السـهر طـول ليلتهـا فسـأل المظفـر أبـا عامـر أن يصفهـا فصنـع ارتجـالا:

أفدى أسماء من نديم

ملازم للكؤوس راتب

قد عجبوا في السـهاد منها

وهـي لعمري من العجائب

قالـوا تجافي الرقاد عنها

فقلـت لا ترقد الكواكب

وكانـت تـدور في مجالـس الأنـس هـذه مناظـرات ومسـاجلات بـين الشـعراء فقـد روى أن ابـن العريـف دخـل عـلى المنصـور وعنـده صاعـد البغـدادي فأنشـده، وهـو بالموضـع المعـروف بالعامريـة:

فالعامرية تزهى

على جميع المباني

وأنت فيها كسيف

قد حل في غمدان

فقـام صاعـد وكان مناقضـا لـه فقـال أسـعد اللـه المنصـور ومكـن سـلطانه هـذا الشـعر الـذي قالـه قـد أعـدّه وأنـا أقـول أحسـن منـه ارتجـالا. فـأذن لـه المنصـور فقـال:

يا أيها الحاجب المسـ

تعلى على كيوان

ومن به قد تناهى

فخار كل يماني

العامرية أضحت

كجنة الرضوان

فريدة - لفريد

ما بين أهل الزمان

إلى أن قال:

انظـر إلى النهر فيها

ينساب كالثعبان

والطير يخطب شكرا

على ذرى الأغصان

والقضب تلتف سكرا

بميس القضبان

والروض يفتر زهوا

عن مبسم الأقحوان

والنرجس الغض يرنو

بوجنة النعمان

قدم مدى الدهر

فيها في غبطة وأمان

وهـذه ولادة بنـت المسـتكفي باللـه كانـت ماجنـة، بارعـة في الجـمال، أديبـة شـاعرة ذات مكانـة رفيعـة بـين الأدبـاء. فقـد كانـت مجالسـها بقرطبـة منتـدى لأحـرار المـصر وفناؤهـا ملعبـا لجيـاد النظـم والنـثر، فـكان الشـعراء والكتـاب يتهالكـون عـلى حـلاوة عشرتهـا فكانـت تفاضلهـم وتسـاجلهم، وكانـت لهـا صنعـة الغنـاء، وكان ابـن زيـدون ممـن نـال رضاهـا ووقـع مـن نفسـها كـما وقعـت مـن نفسـه، وفيهـا قـال بعـد جلسـة معهـا:

ودع الصبر محب ودعك

حافظ من سره ما استودعك

يقرع السـن على أن لم يكن

زاد في تلك الخطى إذ شـيعك

يا أخا البدر سـناء وسنى

حفـظ الله زمانا أطلعك

إن يطـل بعدك ليلي فلكم

بت أشـكو قصر الليل معك

وابـن خفاجـة الأندلـسي حـضر مجلسـا كان السـاقي فيـه رجـلا أسـود أحـدب فقـال يصـف المجلس والسـاقي:

رب ابن ليل سقانا

والشمس تطلع غره

فظل يسود لونا

والكأس تسطع خمره

كأنه كيس فحم

قد أوقدت فيه جمره

وللمدام مدير

يشب جمرة خمره

تضاحكت عن حباب

يقبل الماء ثغره

فظلت آخذ ياقو

ته وأصرف دره

حتى ثنيت غصنا

واصفرت الشمس نقره

وارتد للشمس طرف

به من السقم فتره

يحول للغيم كحل

فيه والقطر عبره

ومن حكايات أهل الأندلس في الطرب والظرف ما يروونه عن أبي بكر ابن عمار وابن زيدون وابنِ خلدون أنهم خرجوا من أشبيلية إلى منظرة

لبنـي عبـاد تحـف بهـا مـروج مشرقـة الأنـوار مبتسـمة عـن تعقـد النـوار. وكان الزمـان ربيعـا، فـالأرض سـقتها السـحب، فتجلـت في أبهـى ملابسـها وأجمـل حليهـا، وقـد نـووا الانفـراد للهـو والتنـزه في الـروض والتذاكـر في الأدب وسـماع الغنـاء، وبعثـوا صاحبـا لهـم اسـمه خليفـة ليأتيهـم بـشراب. فلـما رأوه مقبـلا بـادروا إلى لقائـه واتفـق أن فارسـا مـن الجنـد ركـض فرسـه فصدمـه ووطـئ عليـه فهشـم عظامـه وكـسر قمعـال النبيـذ وتـوارى عنهـم. فتأسـفوا عـلى مـا حـدث وقـال ابـن زيـدون:

أنلهـو والحتوف بنا مطيفة

وتأمـن والمنون لنا مخيفة

فقال ابن خلدون:

وفى اليوم وما أدراك يــــوم

مـضى قمعا لنا ومضى خليفه

فقال ابن عمار:

هما فخارتا راح وروح

تكسرتا فأشقاف وجيفة

ولعـل قصـة زريـاب المغنـي ومـا لقيـه مـن الحفـاوة في البـلاط الأندلـسي خـير مـا يدلنـا عـلى عنايـة العـرب هنـاك بالأنـس الراقـي والغنـاء الأنيـق.

وزريـاب كان تلميـذ إسـحق الموصـلي ببغـداد، فتلقـف أغانيـه وهـدى مـن فهـم الصناعـة وصـدق العقـل مـع طيـب الصـوت مـا فـاق بـه معلمـه

وهـذا لا يشـعر بذلـك. وجـرى يومـا لهـرون الرشـيد حديـث مـع إسـحق اقـترح فيـه الخليفـة عليـه أن يأتيـه بمغـن جديـد. فذكـر لـه تلميـذه زريـاب فأمـر بإحضـاره، فلـما جـيء بـه حدثـه الرشـيد فأعجـب بحديثـه ثـم سـأله عــن الغنــاء فقــال لــه إنــه يجيــد مــن الغنــاء مــا لا يصلــح إلا للرشــيد، واسـتأذن في الغنـاء فدعـا الرشـيد يعـود أسـتاذه إسـحق فوقـف زريـاب عـن تناولـه واسـتأذن الرشـيد في أن يدخـل عـوده الخـاص بـه. فلـما أدخـل لم يجـد الرشـيد فرقـا بـين العوديـن فسـأله عـن السـبب في امتناعـه عـن عـود أسـتاذه، فقـال زريـاب: إن كان مـولاي يرغـب في غنـاء أسـتاذي غنيتـه بعـوده، وإن كان يرغـب في غنـائي فـلا بـد لي مـن عـودي ثـم بـين للرشـيد فضـل عـوده مـن حيـث صنعتـه وجـودة أوتـاره فاسـتبرع وصفـه وأمـره بالغنـاء. نجـس عـوده ثـم اندفـع وغنـاه، فطـار الرشـيد طربـا. ثـم أمـر إسـحق بالعنايـة بشـأنه حتـى يفـرغ الخليفـة لـه.

وانــصرف الأســتاذ والتلميــذ مــن عنــد الرشــيد، وقــد غلــب إســحق عــلى أمـره، فلـما انفـرد بزريـاب قـال لـه: إن الحسـد أقـدم الأدواء، والدنيـا فتانـة، والشركـة في الصناعـة عـداوة... وعـن قليـل تسـقط منزلتـي وترتقـي أنـت فوقـي وهـذا مـا لا أصاحبـك عليـه ولـو أنـك ولـدى. فتخـير في اثنتـين إمـا أن تذهـب عنـى في الأرض العريضـة لا أسـمع لـك خـبرا، وإمـا أن تقيـم عــلى كرهــي ورغمــي مســتهدفا إلى فلســت واللــه أبقــى عليــك، فخــرج زريـاب واختـار الفـرار، فأعانـه إسـحق عـلى ذلـك وراش جناحـه فرحـل عنـه ومـضى بـه بعـد مغـرب الشـمس، ولمـا تذكـره الرشـيد بعـد فراغـه مـن شـغله وطلبـه قـال لـه إسـحق: ومـن لي بـه يـا أمـير المؤمنـين ذاك غـلام مجنـون يزعـم أن الجـنّ تكلمـه وتطارحـه، وقـد رحـل لمـا اسـتبطأ

جائـزة أمـير المؤمنـين. أمـا زريـاب فمـضى إلى المغـرب وسـمت بـه همتـه فكتـب إلى أمـير الأندلـس الحكـم يعلمـه مكانـه مـن الصناعـة التـي ينتحلهـا ويسـأله الاذن في الوصـول إليـه فـسر الحكـم بكتابـه، وأظهـر لـه مـن الرغبـة فيـه والتطلـع إليـه وإجـمال الموعـد مـا تمنـاه. فسـار زريـاب نحـوه وركـب البحـر إلى الجزيـرة الخـضراء، وهنـاك توالـت عليـه الأخبـار بوفـاة الحكـم فهـم بالرجـوع إلى أفريقيـا لكـن المنصـور المغنـى، رسـول الحكـم إليـه، ثنـاه عـن ذلـك ورغبـه في قصـد عبـد الرحمـن الأوسـط ولـد الحكـم. وكتـب إليـه بخـبر زريـاب فجـاءه كتـاب عبـد الرحمـن يذكـر تطلعـه إليـه والـسرور بقدومـه عليـه، وكتـب إلى عمالـه عـلى البـلاد أن يحسـنوا إليـه وأن يوصلـوه إلى قرطبـة، وأمـر خصيـا مـن أكابـر خصيانـه أن يتلقـاه ببغـال وآلات حسـنة فدخـل هـو وأهلـه البلـد ليـلا صيانـة للحـرم، وأنزلـه في دارٍ مـن أحسـن الـدور وحمـل إليهـا جميـع مـا يحتـاج إليـه وخلـع عليـه. وبعـد ثلاثـة أيـام اسـتدعاه وكتـب لـه في كل شـهر بمائتـي دينـار (أي قرابـة مائـة جنيـه) راتبـا وأن يجـرى عـلى بنيـه الأربعـة عـشرون دينـارا لـكل واحـد منهـم كل شـهر، وأن يجـرى عـلى زريـاب مـن المـصروف العـام ثلاثـة آلاف دينـار كل عـام في العيديـن والموسـمين وقطعـة مـن الـدور والمسـتغلات بقرطبـة وبسـاتينيها ومـن الضيـاع مـا يقـوم بأربعـين ألـف دينـار. فلـما قـضى لـه سـؤاله وأنجـز موعـوده، وعلـم أن قـد أرضـاه وملـك نفسـه اسـتدعاه فبـدأ بمجالسـته وسـماع غنائـه فـما هـو إلا أن سـمعه فاسـتهوله واطـرح كل غنـاء سـواه وأحبـه حبـا شـديدا وقدمـه عـلى جميـع المغنـين.

ولمـا خـلا بـه ذاكـره في أحـوال الملـوك وسـير الخلفـاء ونـوادر العلـماء، فحتـك منـه بحـوا زخـر عليـه مـده، فأعجـب الأمـير بـه وراقـه وشرفـه بـالأكل معـه.

معـه. ثـم فتـح لـه بابـا خاصـا يسـتدعيه منـه متـى أراده.

وزريـاب هــذا إنمـا أعجــب الأمـير لا لإجادتــه الغنــاء فحســب ولكــن لأنــه كان يمثــل مــا يطلبــه الأمــير في نديمــه في مجالــس أنســه. فقــد كان يريــد المغنــى عالمـا بالأخبـار عارفـا بالشـعر متذوّقـا لـه واسـع المعرفـة في شـئون العــالم، وهكــذا كان زريــاب فهــو فضــلا عــن حفظــه عــشرة آلاف قطعــة مغنــاة وإجادتــه لهــا كان عالمــا بالنجــوم وقســمة الأقــالم السـبعة واختــلاف طبائعهــا وأهويتهــا وتصنيــف بلادهــا وســكانها، وكان قــد جمــع إلى ذلــك الاشــتراك في كثــير مــن ضروب الظــرف وفنــون الأدب ولطــف المعــاشرة. فــاذا أضفنــا إلى ذلــك أنــه اســتحدث في الموســيقى جديــدا إذ أضــاف وتــرا خامســا للعــود واخــترع مــضراب العــود مــن قــوادم النــسر، لم نســتغرب سر احتفــاء عبــد الرحمــن بمغنيــه الجديــد.

وقــد كانــت مجالــس الأنــس هــذه ســبل نــشر الآراء الجديــدة والأزيــاء الحديثــة عــلى النــاس. فقــد كان الحــاضرون ينقلــون مــا يــرون فيهــا وغيرهــم يقلدهــم. وقــد بلــغ إعجــاب أهــل الأندلــس بزريــاب أنهــم قبلــوا مــا أدخلــه لهــم في الفــن وآدابــه ومــا ســنه في المجالســة والمنادمــة ونقلــوا عنــه مــا استحســنه مــن أطعمتــه وحلــواه ومــا اســتعمله مــن آنيــة أو لبــاس ومــا اختطــه مــن طــرق لتعليــم الغنــاء واختيــار المطبوعــين منهــم.

والقصــص التــي تــدور حــول مجالــس الأنــس أكــثر مــن أن يكفيهــا حديــث فنفــح الطيــب والإحاطــة والذخــيرة والمغــرب والعقــد الفريــد مليئــة بهــا. فمــن رغــب في الزيــادة فعليــه بهــا.

٤ - صلات علمية بين الأندلس وأوروبا

في أواسط القرن السابع للميلاد، أي قبل احتلال العرب للأندلس بنحو نصف قرن، كان يعيش في مدينة أشبيلية الاسبانية عالم إسباني اسمه ايزيدور. وقد ألف إيزيدور هذا كتابا في عشرين مجلدا سماه (الأصول) جمع فيه خلاصة للمعرفة والعلم كما كان المتعلمون في تلك الأحقاب البعيدة يفهمون هذين الأمرين. ولم يلبث هذا الكتاب أن انتشر في إسبانيا نفسها ثم تخطى البرانيز إلى أوروبا، فقبله الناس ثم أصبح المرجع الرئيسي لكل من حدثته نفسه بطلب العلم. كان الكتاب باللغة اللاتينية لغة العلم والدين في تلك العصور، ولقد لقي هوى في نفوس الأوروبيين لأنهم وجدوه يحوي كل نواحي المعرفة، ولأنه كان مبوّبا كثير الجداول والخلاصات، وفيه الأشياء الخارقة والأمور الغريبة. فوافق عصرا اعتمد أهله على ذاكرتهم في تفهم شؤون الفكر. والمهم في هذه المسألة هو أن انتشار هذا الكتاب يدلنا على الدرجة التي انحطت إليها أوروبا الغربية بعد تحطم الامبراطورية الرومانية وغزوات البرابرة. وحتى في القرن التاسع الميلادي كان كتاب ايزيدور مرجعا رئيسيا للمتعلمين في أوروبا.

على أنه بالإضافة إلى هذا النوع من الكتب كان في أوروبا نوع آخر من الدرس والبحث. ذلك هو درس الأمور الدينية والنصرانية، وخاصة في الأديرة. ويجدر بنا أن نذكر مدرسة القصر التي أنشأها شارلمان في عاصمة ملكه لتعليم ابنائه وابناء الأمراء.

وبينـما كانـت أوروبـا تتخبـط في هـذا الظـلام العلمـي الحالـك كانـت ثمـة نـواح في العـالم قـد أشرق عليهـا نـور الحضـارة والمعرفـة فأخـذت تنبعـث منهـا حـركات علميـة لم تلبـث حتـى أضـاءت البقـاع المجـاورة لهـا تدريجـا. ومـن هـذه الأماكـن بغـداد والقاهـرة في المـشرق ومـدن صقليـة والأندلـس في المغـرب.

ولسـنا نريـد في هـذا الحديـث، أن نعـرض للحضـارة العربيـة ونواحـي الإجـادة فيهـا، كـما أننـا لا نرمـى إلى بيـان تأثيرهـا في العـالم ولكننـا نريـد أن نتحـدث عـن هـذه الصلات العلميـة التـي كانـت سـبيلا لنقـل مـا كان عنـد عـرب الأندلـس مـن معرفـة إلى الأوروبيـين.

ويجـدر بنـا أن نذكـر بـادئ ذي بـدء بضعـة أمـور تسـهل علينـا تتبـع هـذه الصـلات. وأول مـا يترتـب علينـا الإشـارة إليـه، هـو أن أوروبـا هـذه التـي كانـت عـلى مـا ذكرنـا عرتهـا هـزة عنيفـة في القـرن الحـادي عـشر نبهـت مـا فيهـا مـن عنـاصر النشـاط وفتحـت عيونهـا إلى النـور المنبعـث حولهـا، فحاولـت أن تسـتفيد مـن كل مـكان فيـه للفائـدة مجـال. نشـطت مدنهـا للتجـارة وأديرتهـا وكنائسـها للإصـلاح وعلماؤهـا للـدرس ورحالوهـا للأسـفار وأمراؤهـا للحـرب في إسـبانيا وفي الـشرق في الحمـلات الصليبيـة.

والأمـر الثـاني الـذي يجـب أن نذكـره هـو أن الأمـارات الأسـبانية التـي لم يقـض عليهـا العـرب لمـا فتحـوا الأندلـس والتـي جمعـت جموعهـا في القـرن التاسـع والعـاشر، أخـذت تهاجـم العـرب وتحتـل مدنهـم تدريجـا. ولا شـك في أن احتـلال طليطلـة سـنة ١٠٨٥ كان حادثـا هامـا في حيـاة العـرب السياسـية في الأندلـس، لكنـه كان مـن جهـة أخـرى حادثـا هامـا في تاريـخ الحيـاة

الاسبانية لأنه كان مدعاة للاحتكاك المباشر بالعلماء العرب والمتعربين.

وثالث ما يجب أن نشير إليه هو أن الاتصال العلمي والمدني بين أوروبا ومراكز الحضارة العربية لم تستقل به الأندلس بل كان في سوريا وكان في صقلية أيضا ولكن اتصال أوروبا بالحضارة العربية في المشرق تناول النواحي المادية للمدنية كالبناء والزراعة والتجارة، وأغفل فيه نتاج العقل البحت.. فإن الجيوش الزاحفة ومن رافقها لم تعن بالناحية الفكرية عناية تتفق والدور الذي شغلته الحملات الصليبية في التاريخ العسكري والاقتصادي والديني. وليس أدل على هذا الذي ذهبنا إليه من أنه لم يكن بين المشتغلين بترجمة الكتب العربية العلمية في سوريا سوى اثنين في هذه الفترة الطويلة: أولها اسطفان البيزي الذي عاش في أوائل القرن الثاني عشر، وثانيهما فيليب الطرابلسي الذي جاء بعده بقرن تقريبا.

أما صقلية والأندلس فقد كان الاتصال فيها شاملا للنواحي المختلفة العقلية والمادية والأدبية والفنية كلها. والظاهرة الطريفة في هذا الاتصال أنه كان في اتجاه واحد - فقد أخذ الغرب عن العرب علومهم وآدابهم، سواء في ذلك ما أنتجوه بأنفسهم، وما نقلوه عن اليونان. والذي يجدر بنا ذكره هو أنه قد عمل في ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وغيرها من لغات أوروبا قرابة ثلاثمائة مترجم، عاش كثيرون منهم في أسبانيا.

أما المراكز التي عنيت بنقل آثار العرب العلمية إلى الغرب فقد انتشرت في المدن الاسبانية مثل أشبيلية وبرشلونه وتراغوثه وسراغوسه،

وفى مـدن فرنسـا مثـل طولـوز ومرسـيليا ونربـون ومونبليـه إذ تقدّمـت الدراسـات الطبيـة في هـذه المدينـة الأخـيرة تحـت تأثـير الأطبـاء العـرب المبـاشر وغـير المبـاشر، وفى مـدن إيطاليـا في سـلرنو وبولونيـا.

ولم تقتـصر الترجمـة عـلى فـرع مـن فـروع المعرفـة دون آخـر، بـل تناولـت كل النواحـي فقـد نقلـت كتـب الرياضيـات والفلـك والتنجيـم والموسـيقى والطـب والطبيعـة والكيميـاء والجغرافيـا والتاريـخ الطبيعـي. لكـن الكتـب التـي نالـت عنايـة خاصـة كانـت كتـب الفلسـفة. ذلـك لأن اتجـاه التفكـير الأوروبي في تلـك العصـور كان أساسـه معالجـة المشـاكل الدينيـة والفلسـفية فنقلـوا مـا يسـاعدهم عـلى فهـم هـذه المسـائل وتوضيحهـا مـن كتـب الفلسـفة والمنطـق.

ومـن أغـرب مـا وصـل إلينـا مـن الاتصـال العلمـي والتعـاون في سـبيل الترجمـة خـبر المدرسـة التـي أنشـأها ألفونسـو الحكيـم في طليطلـة في القـرن الثالـث عـشر للميـلاد. كان ألفونسـو هـذا يقـدّر الثقافـة العربيـة حـق قدرهـا ويـدرك قيمتهـا للمتعلمـين في أنحـاء مملكتـه، فتتـح في عاصمـة ملكـه مدرسـة جعـل عـلى رأسـها أبـا بكـر الريقـوتي العـالم العـربي المسـلم. وكان تلاميـذ الريقـوتى الإسـبانيين يتلقـون عـلى يديـه علـوم العـرب باللغـة العربيـة. فمتـى تـم لهـم حـذق مـادة العلـم ولغتـه نقلـوا الكتـاب إلى اللغـة الأسـبانية أو اللاتينيـة. فكانـت هـذه المدرسـة دارا للعلـم والترجمـة فـذاع صيتهـا وأمهـا طـلاب العلـم مـن مختلـف أنحـاء أسـبانيا النصرانيـة وأوروبـا.

وقبل أن ننتقل إلى تعداد نماذج من التراجم التي تمت في تلك العصور النائية، نريد أن نشير إلى مدى تأثر الأسبان باللغة العربية وآدابها، حتى قبل الوقت الذي أشرنا إليه قبلا. فقد نقل دوزي المستشرق الهولندي، بهذه المناسبة أن أهل أسبانيا هجروا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها حتى شكا أحد أساقفتهم من انصراف قومه إلى قراءة الشعر والقصص العربية ودراسة المسائل الدينية والفلسفة باللغة العربية حتى أن قراءة الكتب المقدسة باللغة اللاتينية أهملت بالمرة، وأشار العالم نفسه إلى أن كثيرين من الأسبانيين كانوا يجيدون الكتابة بالعربية مع أنه قد لا يوجد واحد في الألف يستطيع أن يكتب كتابا باللاتينية. وقد رأى أحد قسوس أشبيلية أن يعالج الأمر بالحكمة فنقل أسفار الكتاب المقدس إلى اللغة العربية ليتمكن نصارى الأندلس من قراءة كتبهم الدينية. وحتى بعد أن احتل الأسبان طليطلة ظلت قراءة الكتب الدينية باللغة العربية أمرا مألوفا. وعلى هذا فليس من المستغرب أن نجد في طليطلة مدرسة الريقوتي التي أشرنا إليها.

كان قسطنطين الأفريقي من أهل القرن الحادي عشر أول من نقل إلى اللاتينية الطب العربي. وقسطنطين هذا ولد في قرطاجنة، والتحق بكلية الطب في سلرنو وعمل على نقل كتاب الملكي الطبي، وأتمه تلميذه يوحنا الشرقي. ثم عمل جيرارد الكريموني على نقل كتاب التصريف للزهراوي، والمنصوري للرازي، والقانون للرئيس ابن سينا. ثم نقل فرج بن سالم الصقلي كتاب الحاوي للرازي وتقويم الأبدان لابن جزلة. وهكذا نقلت البذور الرئيسية للطب العربي إلى أوروبا، وانتقلت معها

التعابير الطبية والاصطلاحات الكيماوية العربية مثل الجلاب والرب والشراب والصودا والكحول والأنبيق والقلى والأثمد والتوتيا.

وفي طليطلة، حتى قبل أيام الريقوتي كان الأسقف ريموند قد بدأ بنقل بعض الكتب العربية ثم تبعه غيره من الذين جذبتهم المدنية العربية إليها. وقد كان بينهم من علماء الانكليز روبرت تشستر، الذي ترجم كتاب الجبر للخوارزمي ثم عمل مع هر من على نقل معاني القرآن الكريم إلى اللاتينية. وعقب ذلك إنشاء مدرسة للعلوم الشرقية في طليطلة

ولا يجوز لمن يتناول أمر الاتصال العلمي هذا أن يغفل أمر أدلارد الإنكليزي. كان أصله من باث في انكلترا وقد ساح في سوريا وصقلية وزار أسبانيا في أوائل القرن الثاني عشر. وإدلارد هو الذي ترجم الجداول الفلكية للجريطي أثناء إقامته في أسبانيا

وممن وفد على طليطلة ميخائيل الأيقوسى وهناك عنى بنقل ابن رشد إلى اللاتينية كما نقل كتاب الهيأة للبطروجى وكتاب الكون والفساد لأرسطو مع شروح ابن رشد. ولما انتقل ميخائيل إلى صقلية تابع عمله في الترجمة تحت رعاية فردرك الثاني ملك صقلية، فتم هناك على يديه ترجمة كتاب ابن سينا المبنى على كتاب الحيوان لأرسطو.

وقد أشرنا قبلا إلى ما نقله جيرار الكريمونى من كتب طبية، لكن ترجمته شملت، فضلا عن ذلك المجسطي لبطليموس وشرح الفارابي لأرسطو وكتاب المبادئ في الهندسة لإقليدس. وقد بلغت الكتب التي ترجمها جيرار واحدا وسبعين كتابا.

ونـود أن نذكـر القـارئ الكريـم بـأن هـذه الترجـمات التـي أوردناهـا إنمـا هـي نمـاذج، ومـا كان لنـا في هـذه الصفحـات المعـدودة، أن نفعـل أكـثر مـن هـذا.

وجديـر بنـا أن نشـير إلى هـذه الاتصـالات العلميـة في أوروبـا. وقـد لخـص رنـان الفرنـسي ذلـك بقولـه لإن نقـل المؤلفـات العربيـة إلى أوروبـا غـير الاتجـاه الفكـري فيهـا. فبعـد أن كانـت أوروبـا تعتمـد عـلى خلاصـات مبوبـة وبقايـا جزئيـة مـما خلفتـه المدنيـة الرومانيـة مـن أمثـال كتـب أز يـدور وبيـد، أصبحـت أوروبـا وقـد عـاد إليهـا العلـم بعـد أن هذبتـه شروح المؤلفـين العـرب وإضافاتهـم.

عـلى أن الاتصـال العلمـي لم يقتـصر عـلى عـصر السـيادة العربيـة بـل تعداهـا إلى أوائـل العـصر الحديـث وحتـى في أسـبانيا التـي اشـتدت في مقاومـة الأثـر العـربي فيهـا حينـا مـن الدهـر. ومـما يوضـح لنـا هـذه الناحيـة حكايـة مكتبـة الأسـكوريال. فقـد اهتـم فيليـب الثـاني في القـرن السـادس عـشر للميـلاد وبعـض خلفائـه في جمـع مـا تبقـى مـن الكتـب العربيـة القيمـة فتجمـع لديهـم قرابـة ألفـى مجلـد فجعلوهـا في ديـر الأسـكوريال بالقـرب مـن مدريـد. وفي القـرن السـابع عـشر أضيـف إليهـا نحـو أربعـة آلاف مجلـد أخـرى، وحكايـة هـذه أن الشريـف زيـدان، سـلطان مراكـش، هـرب مـن عاصمتـه وحمـل معـه مكتبتـه العربيـة الثمينـة، لكـن ربـان السـفينة أبى أن يسـلمه الكتـب لأنـه لم يدفـع لـه الأجـر. وفيـما كانـت السـفينة في طريقهـا إلى مرسـيليا أحـاط بهـا القراصنـة الأسـبان ونهبوهـا وأهـدوا الكتـب للملـك فأمـر هـذا بـأن تضـاف هـذه إلى مكتبـة الأسـكوريال. وبذلـك أصبحـت

هــذه المكتبــة غنيــة جــدا بالمخطوطــات، ومركــزا رئيســيا لــدرس تــراث العــرب الفكــري في الأندلــس

٥ - صلات أدبية بين الأندلس والمشرق

لمــا كان العــالم العــربي وحــدة سياســية، كان مــن اليســير عــلى النــاس أن يرحلــوا فيــه ويتنقلــوا دون أن تعترضهــم صعوبــة مــا. ولمــا توزعتــه دول رئيســية ثــلاث العباســية في المــشرق والأمويــة في المغــرب والفاطميــة فيــما بينهــما، كانــت قــد احتفظــت أنحــاء العــالم العــربي باللغــة العربيــة وبالإســلام. وهــذان يــسرا للنــاس أن يســتمروا عــلى مــا كانــوا قــد اعتــادوه مــن الرحلــة والســفر. بــل أن انتقالهــم في هــذه العصــور ازداد عــما كان قبــلا. وكان الحــج وطلــب العلــم والتجــارة الدوافــع الرئيســية للتنقــل. عــلى أننــا يجــب أن نضيــف إلى ذلــك الوفــود الرســمية التــي كانــت تحمــل رســالات مــن ملــوك الــشرق إلى الغــرب وبالعكــس. فهــذا التميمــي يرحــل مــن المــشرق إلى المغــرب يحمــل رســالة مــن الخليفــة العبــاسي القائــم بأمــر اللــه إلى ابــن باديــس ومثلــه الموصــلي الــذي وفــد عــلى الأندلــس رســولا لملــك مــصر. عــلى أننــا عنــد مــا نتحــدث عــن بواعــث الســفر والتنقــل يجــب أن نشــير إلى أن كثيريــن مــن أهــل المــشرق رحلــوا إلى الأندلــس لينالــوا حظــوة في عيــون ملوكــه وامرائــه، لمــا بلغهــم مــن أخبــار البــذخ والــترف واكــرام في البــلاط الأندلــسي. وأكثرهــم لم يخــب ظنهــم، وفي مقدمــة أولئــك عــدد كبــير مــن المغنــين والمغنيــات والشــعراء والأدبــاء كزريــاب وقمــر والقــالي وصاعــد البغــدادي.

وقد حفظت لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء مئات من رجال العلم والدين والأدب رحلوا من المغرب إلى المشرق في طلب العلم والتفقه. وهذا نفح الطيب يشغل ذكر هؤلاء العلماء نحو ثلثه. ونحن إذا قلبنا صفحاته ووقفنا أمام بعض المترجم لهم فيه استطعنا أن نتبين أمورا كثيرة فيها متعة فكرية ولدة عقلية وفوائد تاريخية وطرائف أدبية. فما نقع عليه هناك أن الرجال الذين كانوا يرحلون إلى مراكز العلم الشرقية كانوا يسمعون التفسير والحديث والفقه في القاهرة والإسكندرية ومكة ودمشق وبيت المقدس وبغداد. وكان المألوف أن يقيم هؤلاء العلماء في أربطة خاصة بهم، ورباط أبي سعيد ببغداد كان في مقدمتها، وكان بجوار المدرسة النظامية التي كانت دار علم ودرس. وفى بيت المقدس نجد أنهم كانوا يسمعون في المسجد الأقصى. هذا فضلا عن عدد كبير من المدارس كان منتشرا في مدن الشرق

وقد تولى كثير من المغاربة مناصب رفيعة في الشرق كالقضاء وغيره. فهذا ابن مالك صاحب الألفية يتصدر بحماة وهذا ابن خلدون يتولى القضاء بمصر، وغيرهما كثير.

وقد لفتت أنظار الأندلسيين الراحلين إلى الشرق شؤون كثيرة تركوا لها ذكرا في نثرهم وشعرهم. فإن القاضي ابن العربي، من أهل القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) حكى أنه دخل بدمشق بيوت بعض الأكابر فرأى فيه النهر جاريا إلى موضع جلوسهم، ثم يعود من ناحية أخرى. فاستغرب ذلك ولم يفهم له معنى، حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إليهم فأخذها الخدم ووضعوها بين أيديهم،

فلـما فرغـوا منهـا ألقـى الخـدم الأواني ومـا معهـا في النهـر الراجـع فذهـب بهـا المـاء إلى ناحيـة الحريـم مـن غـير أن يقـرب الخـدم تلـك الناحيـة، فعلـم عندهـا الـسر.

وابـن العـربي هـذا رحـل الى بغـداد حيـث قـرأ عـلى الامـام الغـزالي وسـمع لـه في المدرسـة النظاميـة. أمـا فى بيـت المقـدس فقـد تذاكـر مـع الطرطـوشي في المسـجد الأقـصى.

وابـن سـعيد يهبـط مـصر ويـترك لأحوالهـا الاجتماعيـة وصفـا طريفـا، ويؤثـر فيـه منظـر النيـل بعـد الفيضـان فيقـول فيـه:

نزلنا من الفسـطاط أحسن منزل

بحيـث امتداد النيل قد دار كالعقد

وقد جمعت فيه المراكب سـحرة

كـسرب قطا أضحى يزف على ورد

وأصبـح يطغى الموج فيه ويرتمي

ويطغـو حنانًا وهو يلعب بالنرد

غـدا ماؤه كالريق ممن أحبه

فمـدت عليه حلية من حلي الخد

وقـد كان مثل الزهر من قبل مدة

فأصبـح لما زاده المد كالورد

وقد وفد ابن سعيد هذا على الناصر صاحب حلب فأنشده قصيدة أولها:

جد لي بما لقي الخيال من الكرى

لا بد للضيف المسلم من القرى

فاستجلبه السلطان وسأله عن بلاده فروى له ابن سعيد ما حمله على الاعجاب به ثم أن السلطان قال له إنه اختار له اسم البلبل لحسن صوته وايراده للشعر الجميل، وكانت من عادة شعراء بلاط الناصر أن يلقبوا بأسماء الطيور، فرضى ابن سعيد شاكرا. ثم قال له السلطان يداعبه اختر يا هذا واحدة من ثلاث: فأما الضيافة التي ذكرتها في أول شعرك، وأما جائزة القصيد، وأما حق الاسم، فقال ابن سعيد يا خوند الملوك مما لا يختنق بعشر لقم لأنه مغربي أكول فكيف بثلاث! فطرب السلطان وقال هذا المغربي ظريف ثم اتبعه من الخلع والدنانير والتواقيع بالأرزاق ما لا يوصف. ولقى بحضرته جماعة من العلماء فتناظروا وتباحثوا وتبادلوا الفوائد. وأعانه السلطان على الوصول إلى خزائن العلم في مملكته.

وممن لقى بالمشرق حفاوة كبيرة ابن مالك صاحب الألفية. وقد ذكرنا قبلا خبر تصدره بحماة. وقد تتلمذ عليه الشيخ النووي القاضي المشهور وغيره وابن مالك كان كثير المطالعة سريع المراجعة لا يكتب شيئا من محفوظه حتى يراجعه في محله، وهذه حالة المشايخ الثقات والعلماء الإثبات، ولا يرى إلا وهو يصلى أو يصنف أو يقرئ. وقد كان إمام المدرسة العادلية بدمشق وكان إذا صلى فيها شيعه قاضي القضاة

ابـن خلـكان إلى بيتـه تعظيـما لـه:

وقـد اشـمأز العبـدري المغـربي مـن التفتيـش الدقيـق الـذي اجتـازه هـو وجماعتـه عـلى أيـدي موظفـي جمـرك الإسـكندرية لمـا زارهـا في أواخـر القـرن السـابع للهجـرة فقـال يصـف ذلـك. ومـن الأمـر المسـتغرب أنهـم يعترضـون الحجـاج ويجرعونهـم مـن بحـر الإهانـة الملـح الأجـاج، ويأخـذون عـلى وفدهـم الطـرق والفجـاج، ويبحثـون عـما بأيديهـم مـن مـال ويأمـرون بتفتيـش النسـاء والرجـال فانـه لمـا وصـل اليهـا الركـب، يـوم ورودنـا عليهـم، جـاءت شرذمـة مـن الحـرس

فمـدوا في الحجـاج أيديهـم وفتشـوا الرجـال والنسـاء وألزموهـم أنواعـا مـن المظـالم، وإذا قوهـم ألوانـا مـن الهـوان ثـم استحلفوهم وراء ذلـك كلـه.

وقـد كان هـؤلاء النـاس تدركهـم وهـم بالمـشرق وحشـة فيشـعرون بـألم الغربـة ويعـبرون عنـه تعبـيرا رقيقـا فياضـا بالشـعور. فمـن ذلـك قـول أحدهـم يقابـل فيـه المـشرق بالمغـرب:

هــذهِ مـصـرُ فـأيـنَ المـغـرِبُ

مـذ نـأى عَـنّـي دمـوعـي تـسـكبُ

فـأرقـتــهُ الـنـفس جهلا إنّما

يـعــرَفُ الشــيء إذا مـا يـذهـبُ

أيـن حـمــص أيـن أيّـامـي بـهـا

بـعـدهــا لم ألقَ شـيـئاً يـعجِبُ

بـــــلدةٌ طـــابَـــت وربٌّ غـــافــر

ليـتـنـــي مـا زلت فـيـها أذيبُ

أين حسـن النيل من نهر بها

كل نغمات لديه تطرب

ملعب للهومذ فارقته

مـا ثنانى نحو لهو ملعب

هذه حالي وأما حالتي

في ذرى مـصر ففكر متعب

سـوف أثنى راجعا لا غربي

بعـد ما جربت برق خلب

وقـد أشرنـا قبـلا إلى بعـض مـن رحـل إلى الأندلـس مـن أهـل المـشرق. فأمـا زريـاب المغنـى فقـد عرضنـا لـه في حديـث سـابق ولذلـك سـندعه الآن وشـأنه. أمـا أبـو عـلى القـالي فقـد كان وحيـد عـصره معرفـة في اللغـة والأدب، وكتابـه الأمـالي هـو مـا أمـلاه عـلى طلابـه وتلامذتـه في جامـع قرطبـة أو جامعتهـا، فقـد سـمع مـن قبـل بالموصـل وبغـداد، حيـث أقـام خمسـا وعشريـن سـنة ثـم خـرج منهـا قاصـدا الأندلـس ودخلهـا في أيـام النـاصر وصنـف لـه ولولـده الحكـم وبـث علومـه هنـاك. وفي قرطبـة اجتمـع بابـن القوطيـة أحـد أئمـة اللغـة في الأندلـس وكان ابـن القوطيـة عـلى سعة علمـه

مـن العبـاد النسـاك. وقـد روى أن القـالي توجـه يومـا الى ضيعـة لـه بسـفح جبـل قرطبـة فصـادف ابـن القوطيـة صـادرا عـن بقعـة

مـن بقـاع الأرض الطيبـة، فلـما رآه عـرج عليـه فقـال القـالي مداعبـا: مـن أيـن قـد جئـت يـا مـن لا شـبيه لـه ومـن هـو الشـمس والدنيـا لـه فلـك فتبسـم وأجـاب بسرعـة:

مـن منـزل تعجـب النسـاك خلوتـه وفيـه سـتر عـلى الفتـاك أن فتكـوا وإذا كان عـصر النـاصر قـد ازدهـى بـورود القـالي مـن المـشرق فـان أيـام المنصـور الحاجـب ابـن عامـر قـد ازدهـرت بقـدوم صاعـد البغـدادي صاحـب كتـاب الفصـوص وصاعـد موصـلي الأصـل. وكان المنصـور يأمـل أن يكـون محلـه في بلاطـه مثـل محـل القـالي في بـلاط النـاصر، لكـن صاعـدا لم يصـل الى درجـة سـلفه. فمـع أنـه كان واسـع المعرفـة في الغريـب مـن أمـور اللغـة ورواياتهـا وآدابهـا، فقـد كان عريـض الدعـوى كثـير الكـذب فأعـان مناوئيـه عـلى نفسـه. ولعـل هـؤلاء المناوئـين حسـدوه عـلى نعمتـه فأخـذوا بملاحقتـه ومضايقتـه فعـدّدوا عليـه أنفاسـه وهـذا ضيـق عليـه الخنـاق. وقـد كان مـن خصومـه ابـن العريـف وفاتـن غـلام المنصـور وأبـو مـروان الكاتـب. وكثـيرا مـا بلغـت الأمـور بينهـم حـد المهاتـرة ووصلـت إلى الإقـذاع في الهجـاء. وقـد كان المنصـور الحاجـب يحـب صاعـدا لكنـه كان يرغـب في رؤيـة خصومـه مـن أهـل الأندلـس متنصريـن عليـه. ومـن ذلـك أنـه وقـع صاعـد مـرة في بركـة في مجلـس المنصـور وأخـرج منهـا وقـد كاد الـبرد أن يـأتي عليـه. فسـأله المنصـور إن كان قـد حـضره شيء فقـال بيتـا مـن الشـعر اسـتبرده

أبـو مـروان وقـال هـلا قلـت:

سروري بغرتك المشرقة

وديمة راحتك المغدقة

ثاني نشـوان حتى غرقت

في لجـة البركة المطبقة

لئن ظل عبدك فيها

الغريـق فجودك من قبل قد أغرقه

فطـرب المنصـور لذلـك وقـال لـه «للـه درك يـا أبـا مـروان. قسـناك بأهـل بغـداد ففضلتهـم، فيمـن نقيسـك بعـد؟»وفي هـذه القصـة نلاحـظ أمريـن: الأوّل سرور المنصـور بتفـوّق الأندلـسي عـلى البغـدادي، والثـاني المنزلـة التـي كانـت لبغـداد في نفـس النـاس. فقـد اعتـبر المنصـور نهايـة الرفعـة الأدبيـة أن يقابـل أبـو مـروان بأهـل بغـداد فيفضلهـم.

وقـد عـرض الأدبـاء الأندلسـيون بصاعـد كثـيرا فاتهمـوه بسرقـة الشـعر وهـدم معانيـه القديمـة ونحلهـا نفسـه. وقـد روى صاحـب النفـح كثـيرا مـن ذلـك فـان ابـن العريـف سـمع صاعـدا يرتجـل بيتـين مـن الشـعر في حـضرة المنصـور فاتهمـه بالسرقـة وخـرج مـن سـاعته الى صديـق لـه شـاعر نظـم لـه قصيـدة ضمنهـا البيتـين ثـم كتبهـا عـلى رق مغـبر بخـط قديـم وحملهـا الى المنصـور ليثبـت اختـلاس صاعـد.

ومع ذلك فقد أعجب الأندلسيون بظرف صاعد وبارع نكتته وجميل شعره فأحلوه صدور مجالسهم، ووهبه المنصور مالا جزيلا وخلع عليه فقضى بقية حياته في نعمة ورغد عيش.

من هذا العرض الموجز لبعض أخبار من تنقل بين أطراف العالم الاسلامي نستطيع أن نخلص الى أن التعاون الثقافي كان وثيقا بين مراكز الحضارة الاسلامية في المشرق والمغرب، وكانت بغداد ودمشق والقاهرة وبيت المقدس على اتصال بمراكش وقرطبة وأشبيلية وغرناطة. وأن هذا التعاون لم تؤثر فيه الخصومات السياسية أو توزع ثلاث قوى رئيسية للعالم الاسلامي. فلم يكن العالم البغدادي يعتبر نفسه غريبا في قرطبة، أو الأندلسي غريبا في الاسكندرية.

ولسنا نشك في أن هذا التعاون الفكري يرجع اليه الفضل في أن الحضارة العربية كانت جمة النشاط تنبض بالحياة، شاملة عامة. وهذا من عناصر الخلود فيها.

ونحن العرب الذين نرى أنفسنا على أبواب عصر جديد في حياتنا السياسية والفكرية والروحية حرى بنا أن نتعرف إلى الوسائل التي اتبعها أسلافنا في سبيل التعاون على أنواعه المختلفة لعلنا نستفيد منهم هديا ورشدا.

صفحات من تاريخ العرب

•••

١- عربيّ على عرش روما

نحن في القرن الثالث للميلاد، وها نحن أولاء نستعرض رقعة واسعة من العالم المعروف آنئذ، رقعة تتسع فتشمل حوض البحر المتوسط في جهاته الأربع. وهذه الرقعة تخضع لسلطة سياسية واحدة هي الإمبراطورية الرومانية.

كانت روما قد صرفت قرونا طويلة حتى ضمت كل هذه البلاد لسلطانها. فلما تم لها ذلك عنيت بتنظيم شؤونها وترتيب أمورها، فبنت الطرق وأنشأت الحصون واهتمت بالتجارة وراقبت النقود. فنعم العالم الروماني بسلم دام قرنين من الزمان. وبلغت الحضارة والرفاهية درجة لم يعرفها العالم قبل الرومان.

لكن العالم الروماني كان متباعد الأطراف مختلف المناطق الطبيعية متباين الثقافات، شرقه غير غربه، وشماله غير جنوبه. فبينما يتحدث شرقه باليونانية كان غربه يتكلم اللاتينية، وبينما كان شماله يتعرض لغزو قبائل الدانوب والراين، كان جنوبه يتعرّض لهجمات أهل الصحراء الكبرى. فكان لزاما على من يعتلي عرش روما أن يراعى هذه النواحي المختلفة. وكانت الحدود طويلة والخطر يهدّدها من الجهات العديدة، فكان من الطبيعي أن ينصرف صاحب العرش إلى الجيش ينظمه ويقويه وينميه ويتعهده. ومن الطبيعي أيضا أن يشعر الجند بالمركز الذي يشغلونه ويحسوا بفضلهم على الإمبراطورية، وبذلك

يتيهـون دلا ويحاولـون أن يقبضـوا عـلى زمـام الأمـور ويسـيروا المسـائل وفـق أهوائهـم وطبـق آرائهـم. فـإذا أنسـوا مـن إمبراطـور شـدّة أو رغبـة في إخضاعهـم أو انصرافـا عـن مصلحتهـم، لم يمتنعـوا عـن خلعـه أو قتلـه إذا كان ذلـك في إمكانهـم

وهـذا مـا حـدث في أوائـل القـرن الثالـث للميـلاد. كان هـذا قـد حـدث قبـل ذلـك، لكـن الأمـر لم يصبـح عـادة. أمـا في القـرن الثالـث فقـد نظـر الجيـش إلى قائـده الـذي يعطـف عليـه ويتصـل بـه مبـاشرة، فـإذا رضى عنـه رفعـه ولـو مكرهـا إلى العـرش وحملـه ولـو قـسرا عـلى لبـس الأرجـوان، شـعار الامبراطـور.

وهـذا مـا حـدث لديسـيوس، فانـه لم يطمـع بالعـرش ولم يرغـب فيـه ولكنـه أجـبر عـلى اعتلائـه، وألبـس الحلـة الإمبراطوريـة رغـم أنفـه، ولـو لم يقبـل لقتـل.

في هـذا الجـو المضطـرب الحائـر نشـبت حـروب متعـددة بـين الإمبراطوريـة وبـين جيرانهـا وخاصـة في الـشرق. فـان الدولـة الساسـانية كانـت حديثـة عهـد بالإحيـاء الـذي تـم سـنة ٢٢٦م. وكانـت تطمـع في توسـيع حدودهـا غربـا عـلى نحـو مـا كانـت عليـه الإمبراطوريـة الفرتيـة والإمبراطوريـة الفارسـية مـن قبـل. وقبائـل الدانـوب كانـت تتحـين الفـرص بالإمبراطوريـة الرومانيـة فـلا تلمـح فـترة انشـغال أو حـرب أو ثـورة إلا وتهاجـم الحـدود لتغنـم أو تفتـح أو تنهـب. فالحـروب بـين الساسـانيين والرومـان أتاحـت لهـذه القبائـل الفرصـة لتجديـد غزواتهـا.

كان الإمبراطـور الرومـاني فيهـا لسـنة ٢٤٠م غورديـان، وقـد وصـل هـذا إلى العـرش بعـد معـارك دموية وحـروب أهليـة أزهقـت فيهـا أرواح الألـوف مـن النـاس. وإنمـا اختـار أصحـاب الشـأن غورديـان لأنـه كان فتـى صغـيرا فيسـهل ذلـك لهـم تسـييره عـلى الشـكل الـذي يريـدون. ولكـن غورديـان قيـض لـه الحـظ معينـا مخلصـا أمينـا في شـخص ثيميزيتـوس الـذي كان رئيـس الحـرس البريتـوري، ومعنـى ذلـك أنـه كان صاحـب أكـبر منصـب في الإمبراطوريـة بعـد الإمبراطـور نفسـه. وصرف الاثنـان همهـما نحـو قبائـل الدانـوب وقـوى الإمبراطوريـة الساسـانية. فتغلبـا عـلى الأولى ثـم اتجهـا إلى الـشرق. ولقيـت قواهـما النـصر في سـوريا. فقـد أنقـذت أنطاكيـة واسـتردت نصيبـين وكـسر الجيـش الساسـاني في رأس العـين، في شـمال الجزيـرة. وصرف الإمبراطـور وصاحبـه بعـض الوقـت في ترتيـب البـلاد التـي اسـتخلصاها مـن الساسـانيين ثـم هـي الجيـش للحملـة ضـد المدائـن عاصمـة الساسـانيين، للقضـاء عـلى الدولـة. لكـن التاريـخ كان قـد احتفـظ باحتـلال المدائـن والقضـاء عـلى الدولـة الساسـانية لقـوم أعـز وأرفـع، فلـم تتـم رغبـة غورديـان. ذلـك أن معينـه تيميزيتـوس تـوفي في شـتاء ٢٤٣ م.

ووقـع اختيـار غورديـان عـلى فيلبـس العـربي ليخلـف تيميزيتـوس، فأصبـح رئيـس الحـرس البريتـوري. وفيلبـس هـذا عـربي مـن اللجـاة، في شرق سـوريا. كان أبـوه شـيخا مـن شـيوخ بـلاده، فنشـأ فيلبـس فارسـا مغـوارا شـجاعا كريمـا. وبحكـم مـا كان بـين عـرب مشـارف الشـام والرومـان مـن صـلات ومعاهـدات التحـق فيلبـس بالجيـش الرومـاني. وعـرف رؤسـاؤه فيـه مقدرتـه واكتسـب بشـجاعته وقـوة شـخصيته احترامهـم فترقـى بسرعـة

كبـيرة. والظاهــر أن فيلبــس كان يجمــع إلى الصفــات الحربيــة والخلقيــة المتينــة إحاطــة تامــة بالحيــاة الفكريــة، وخاصــة الفلســفية منهــا، التــي كانــت تشــغل بــال المتعلمــين في ذلــك الوقــت.

فلــم يكــن غريبــا والحالــة هــذه أن يكســب فيلبــس احــترام رؤســائه ومرؤوســيه وكان طبيعيــا أن يبلــغ منصــب المســاعد لرئيــس الحــرس البيريتــوري. فلــما مــات الرئيــس اختــار غورديــان فيلبــس ليخلفــه. وكان فيلبــس آنئــذ في الخامســة والأربعــين، في ســنّ الطمــوح والقــوة والنضــج مــن اليــد الملــك اي بــإدارة البريتــوري، ومعنــى ذلــك أنــه كان صاحــب أكــبر منصــب في الإمبراطوريــة بعــد الإمبراطــور نفســه. وصرف الاثنــان همهــما نحــو قبائــل الدانــوب وقــوى الإمبراطوريــة الساســانية. فتغلبــا عــلى الأولى ثــم اتجهــا إلى الــشرق. ولقيــت قواهــما النــصر في ســوريا. فقــد أنقــذت أنطاكيــة واســتردت نصيبــين وكــسر الجيــش الساســاني في رأس العــين، في شــمال الجزيــرة. وصرف الإمبراطــور وصاحبــه بعــض الوقــت في ترتيــب البــلاد التــي اســتخلصاها مــن الساســانيين ثــم هــي الجيــش للحملــة ضــد المدائــن عاصمــة الساســانيين، للقضــاء عــلى الدولــة. لكــن التاريــخ كان قــد احتفــظ باحتــلال المدائــن والقضــاء عــلى الدولــة الساســانية لقــوم أعــز وأرفــع، فلــم تتــم رغبــة غورديــان. ذلــك أن معينــه تيميزيتــوس تــوفي في شــتاء ٢٤٣ م.

ووقــع اختيــار غورديــان عــلى فيلبــس العــربي ليخلــف تيميزيتــوس، فأصبــح رئيــس الحــرس البريتــوري. وفيلبــس هــذا عــربي مــن اللجــاة، في شرق ســوريا. كان أبــوه شــيخا مــن شــيوخ بــلاده، فنشــأ فيلبــس فارســا مغــوارا شــجاعا كريمــا. وبحكــم مــا كان بــين عــرب مشــارف الشــام والرومــان مــن صــلات

ومعاهـدات التحـق فيلبـس بالجيـش الرومـاني. وعـرف رؤسـاؤه فيـه مقدرتـه واكتسـب بشـجاعته وقـوة شـخصيته احترامهـم فترقـى بسرعـة كبـيرة. والظاهـر أن فيلبـس كان يجمـع إلى الصفـات الحربيـة والخلقيـة المتينـة إحاطـة تامـة بالحيـاة الفكريـة، وخاصـة الفلسـفية منهـا، التـي كانـت تشـغل بـال المتعلمـين في ذلـك الوقـت.

فلـم يكـن غريبـا والحالـة هـذه أن يكسـب فيلبـس احـترام رؤسـائه ومرؤوسـيه وكان طبيعيـا أن يبلـغ منصـب المسـاعد لرئيـس الحـرس البيريتـوري. فلـما مـات الرئيـس اختـار غورديـان فيلبـس ليخلفـه. وكان فيلبـس آنئـذ في الخامسـة والأربعـين، في سـنّ الطمـوح والقـوة والنضـج.

ولما ولى فيلبس الأمـر تغـيرت وجهـة نظـر الجنـد في الإمبراطـور، فهـو شـاب بعـد، ولم يعـرف عنـه أنـه بـرز في عمـل خـاص، وهـذا صاحـب جنـده فـارس كريـم شـجاع مفكـر. فلـماذا لا يحـل الرجـل المجـرب المحبـب مـكان الشـاب الغـر؟ هـذا مـا فكـر بـه الجنـد. ووافـق هـذا رغبـة في نفـس فيلبـس الـذي كان يـرى نفسـه أحـق بالأمـر مـن غورديـان. ولم يكـن في تفكـير ذلـك العـصر السـياسي والخلـق مـا يمنـع ذلـك. ألم تكـن هـذه هـي الطريقـة التـي سـار عليهـا الأكثريـة مـن الأباطـرة للوصـول إلى العـرش؟ ألم يكـن الجنـد هـو الـذي يخلـع ويجلـس الإمبراطـور؟ ألم يصـل غورديـان نفسـه إلى العـرش بهـذه الواسـطة؟ إذن فليجعـل الجنـد فيلبـس إمبراطـورا.

وهـذا مـا حـدث، ائتمـر الجنـد بغورديـان فخلعـوه ونـادوا بفيلبـس إمبراطـورا سـنة ٢٢٤ وأبـدى غورديـان الكثـير مـن الخـوف والجـزع ورجـا الجنـد أن يبقـوا عليـه وليسـمحوا لـه أن يكـون تابعـا لفيلبـس يأتمـر بأمـره.

ولكـن منطـق الجنـد في ذلـك العـصر لم يكـن يسـمح بذلـك. فالإمبراطـور المخلـوع لا يؤتمـن، وإذن فيجـب أن يقتـل. وتـم ذلـك في شـمالي العـراق، في مـكان يسـميه المؤرخـون زيتـا، يقـع بـين قرقيسـيا والصالحيـة. كان الجنـد يحيطـون بالإمبراطـور السـابق كأنهـم يحرسـونه خشـية أن يهـرب لكـن نفـرا منهـم كانـوا قليـلي صـبر اغتالـوه في غفلـة مـن الحـرس.

وقـد اتهـم بعـض المؤرخـين فيلبـس بأنـه هـو الـذي دبـر قتـل غورديـان. وليـس في الوثائـق التاريخيـة التـي بـين أيدينـا مـا يثبـت ذلـك. بـل أن منطـق الحـوادث يـكاد يثبـت عكـس ذلـك. فـان فيلبـس كان مـن أتبـاع الفلسـفة الرواقيـة التـي لم يعـرف عـن تلاميذهـا مثـل هـذا، ثـم إن فيلبـس لم يلجـأ إلى الاغتيـال للتخلـص مـن خصومـه فيـما بعـد. وحتـى لما ظهـر لـه منافـس عـلى العـرش لم يلجـأ فيلبـس إلى الحيلـة في قتلـه أو إلى اغتيالـه، بـل قـاد جيشـا لمحاربتـه مـع أنـه كان يعـرف أن ثمـة خطـرا في مواجهـة خصمـه، وكانــت النتيجــة أن دارت الدائــرة عــلى فيلبــس فقتــل في تلــك المعركــة. ولنضــف إلى ذلــك أن فيلبــس احتفــل بذكــرى غورديــان بعــد عودتــه إلى رومـا وحمـل المشـيخة عـلى تاليـه الإمبراطـور المتـوفى.

نـودي بفيلبـس إمبراطـورا والجيـش بعـد في الـشرق. ولم يكـن يكفـي أن يقبـل جيشـه بـه حتـى تقبـل بـه جنـود الإمبراطوريـة. ولكـن كان مـن حسـن حظـه أن جيشـه كان أكـبر الجيـوش آنئـذ وأكثرهـا نظامـا وترتيبـا، ذلـك لأنـه كان مهيئـا للقضـاء عـلى الإمبراطوريـة الساسـانية. وكان فيلبـس يعـرف أن الحـرب بـين الرومـان والساسـانيين انتحـار لا مـبرر لـه، فالرومـان لا يسـتطيعون القضـاء عـلى تلـك الدولـة ولا يمكـن أن يحتلـوا مـن بلادهـا

شـيئا يسـتحق كل هـذا الـذي ينفـق مـن المـال والرجـال. لذلـك كان أوّل ما فعله هـو عقـد صلـح مـع سـابور الأول الساسـاني. وبحكـم مـواد هـذا الصلـح احتفـظ الرومـان بأرمينيـا الصغـرى، وهـي حـول أضنـة ومرسـين الحاليـة، وظلـت لهـم الجزيـرة العراقيـة، أي الجـزء الشـمالي مـن العـراق. ومثـل هـذا الصلـح كان في مصلحـة رومـا بقـدر مـا كان في صالـح المدائـن

وبعـد تنظيـم شـؤون الـشرق عـاد فيلبـس إلى رومـا، عاصمـة إمبراطوريتـه، ليدبرهـا مـن قبلهـا.

حكـم فيلبـس قرابـة خمـس سـنوات. وكانـت هـذه المـدة، عـلى قصرهـا، عـلى غايـة مـن الأهميـة في أواسـط القـرن الثالـث للميـلاد في تاريـخ رومـا.

عـاد فيلبـس إلى رومـا بتـاج بعـد أن غادرهـا ضابطـا كبـيرا فقـط. وانـصرف عندهـا بكليتـه إلى مشـاكل الإمبراطوريـة وواجباتـه نحوهـا يصرفهـا بمـا عنـده مـن خـبرة وحكمـة واتـزان. فـكان أوّل مـا فعلـه هـو أن أعلـن العفـو العـام عـن جميـع المنفيـين والمسـجونين لأمـور سياسـية أو بسـبب وشـايات أصحـاب المراكـز العليـا والسـلطان. ثـم نظـم طريقـة الاسـتئناف إلى الإمبراطـور ومجلسـه. فبعـد أن كانـت كل الأحـكام تسـتأنف إلى الإمبراطـور شـخصيا، فصـل فيلبـس بـين مـا يجـب أن يحمـل إليـه وبـين مـا يجـب أن تنظـر فيـه المحاكـم. فالقـرارات التـي يصدرهـا منـدو بـو الإمبراطـور الشـخصيون تسـتأنف إليـه، أمـا القضايـا الأخـرى فتنظـر فيهـا المحاكـم المختصـة. وحـدّد فيلبـس واجبـات المجلـس الإمبراطـوري وحقوقـه بحيـث لا يسـمح لـه أن يفتـات عـلى حقـوق المشـيخة أو المحاكـم. وكانـت شرور الإدارة الماليـة السـيئة قـد وصـل أثرهـا إلى جميـع أنحـاء الإمبراطوريـة.

فوضـع فيلبـس حـدا لتـصرف رجـال الخزينـة وحـدّد واجبـات النـاس مـن الضرائـب ولكـن كان أهـل الإمبراطوريـة عـلى مـا يظهـر يأملـون أن يعفـوا مـن كثـير مـن الضرائـب التـي كانـت مصاريـف الدولـة تحتاجهـا، فخـاب أملهـم

وعنـي فيلبـس ببنـاء الطـرق لأنـه كان جنديـا يعـرف قيمـة الطـرق الصالحـة للجيـش وكان يـدرك الفائـدة التـي تعـود عـلى التجـار والتجـارة مـن الطـرق الآمنـة المحروسـة. كذلـك اهتـم ببنـاء الحصـون وترميـم مـا تصـدع منهـا في الحـدود الدانوبيـة لأن تلـك الجهـة كانـت مصـدر خطـر كبـير لرومـا

وكان مــن الطبيعــي أن يهتــم فيلبــس بالجــزء العــربي مــن إمبراطوريتــه، وهــو الجــزء الــذي ولــد فيــه وشــب والــذي يســكن فيــه أهلــه وعشــيرته وقومـه. فنحـن نعـرف أن فيليـب بنـى في اللجـاة مدينـة في المـكان الـذي ولـد فيـه سـماها - فيليبـو بوليـس أي مدينـة فيليـب. كـما أنـه رفـع درجـة بـصري إلى (مدينـة رومانيـة) ومنـح نصيبـين وسـنجرا ألقـاب الـشرف وعمـر مدينـة نابلـس. وكـم كنـا نحـب لـو أن مؤرخـا سـوريا عـاش في أيـام فيلبـوس وأرّخ لـه ولعـصره ولعنايتـه بسـوريا.

وقـد شـاء القـدر أن تحتفـل رومـا بعيدهـا الألفـى أيـام كان فيلبـوس العـربي عــلى عرشــها وقــد احتفــى الامبراطــور بــه احتفــاء كبــيرا في ســنة ٢٤٧ م. فأقيمـت حفـلات الألعـاب في قاعـة الـسرك الكـبرى، وكانـت ألعـاب المجالـدة والمصارعـة مـن أجملهـا. ذلـك أن غورديـان كان قـد جمـع حيوانـات كثـيرة تحضـيرا للاحتفــاء بانتصــاره عــلى الساســانيين فاســتخدمها فيلبــوس في الذكـرى الألفيـة لرومـا. وكان فيلبـوس أنفـق في هـذه المناسـبة مـا ادخـره في

مناسبات أخرى، فنال أهل روما شيئا كثيرا من الولائم والمآدب وتمثيل الروايات. فخرج الناس بعد أيام من السرور الشامل وهم يلهجون بذكر الإمبراطور الذي يسر لهم مثل هذه النعم والخيرات.

وقد أشرنا من قبل إلى أن فيلبوس كان بين كبار مفكري ذلك العصر، وأن ثقافته كانت واسعة منوعة. وكان أثر ذلك باديا في حكمه وإدارته، فنحن عندنا وثيقة من فيلسوف أثيني زار روما نائبا عن مدينته وقدّم للإمبراطور مطالب مدينته. وقد أعجب السفير بالإمبراطور ومعرفته وسعة اطلاعه. وقبل الإمبراطور كثيرا من مطاليب أثينا إكراما لسفيرها الفيلسوف.

لكن لدينا ما هو أثمن من هذه، فهنالك خطاب محفوظ عندنا ألقاه أرسيتديس في أيام فيلبوس سماه (إلى الملك) يتحدّث أرسيتديس فيه عن الملك الصالح والحاكم المثالي. فيشير إلى أنه هو الذي يكون عادلا مؤمنا بفلسفة الرواقيين غير النفعية. ويريد أرسيتديس هذا الحاكم أن يكون مستنيرا ولو مستبدا ويجب أن يكون الإمبراطور خير رجل يمكن العثور عليه في حدود الدولة ويترتب على الملك أن يكون سيد الجند لا خادمهم. والمؤرخون متفقون على أن خطاب أرسيتديس هذا يصوّر فيلبوس وشخصيته بحيث لا يعدو الحقيقة كثيرا.

وقد كان فيلبوس بحكم هذه النظرة الواسعة بعيدا عن التعصب، فلم يضطهد النصارى على نحو ما عرف قبله وبعده، بل عاملهم معاملة فيها الكثير من الحلم وسعة الصدر. وكان في ذلك الوقت أحد آباء الكنيسة المسمى أوريغون يعيش في سوريا فكتب إلى فيلبوس وزوجه

رسـائل جـول النصرانيـة يفسرهـا ويشرحهـا، فتقبلهـا الإمبراطـور منـه. وهـذا مـا حمـل بعـض المؤرخـين عـلى القـول بـأن فيلبـوس تنـصر. ولكـن الواقـع أن الإمبراطـور لم يعتنـق النصرانيـة.

ولم يخـل حكـم فيلبـوس مـن ثـورات ضـده فادعـى العـرش ثلاثـة وثـارت قبائـل الدانـوب. وفكـر فيلبـوس في اعتـزال الحكـم حسـما للنـزاع لكـن لمـا أصبـح المنافسـون لـه ثلاثـة رأى أن يهـدئ الأمـور قبـل تـرك العـرش، وقـد أعانـه جنـد اثنـين مـن الثائريـن عـلى زعيميهـم فقتلوهـما، وأرسـل فيلبـوس جيشـا بقيـادة ديسـيوس لقمـع ثـورة الدانـوب، فلـما نجـح القائـد أجـبره جنـده عـلى أن يكـون إمبراطـورا.

والتقـى قيلبـوس بديسـيوس في معركـة دارت فيهـا الدائـرة عـلى الإمبراطـور العـربي فيلبـوس فقتـل سـنة ٢٤٨ م.

هـذا هـو العـربي الـذي حكـم الإمبراطوريـة الرومانيـة في ذلـك العـصر المضطـرب وأدارهـا إدارة حكيـم حـازم. والمؤرخـون مجمعـون عـلى أنـه مـن خـير مـن تـولى العـرش في أثنـاء هـذه الأزمـة العصيبـة في حيـاة رومـا.

٢ - يوم مؤنة من البيض النسـاء

أغـذ صاحبـاي السـير، وكانـا يجيـدان ركـوب الخيـل وقـد نشـأ عليهـا، وتبعتهـما حـذرا يقظـا، فـما أنـا مـن أهـل الطـراد إذا ثـارت ثائـرة الفـرس. لكنهـما ترفقـا بي فلـم يعرضـاني إلى مـا لا تحمـد عقبـاه. وكانـت الشـمس قـد قطعـت مـن قـوس نهارهـا جـزءا كبـيرا لمـا بـدت لنـا قبتـا مقـام جعفـر في قريـة البـزار. وكنـت قـد منيـت نفـسي بزيـارة هـذا المـكان سـنوات طويلـة،

وها هـي أمنيـة الصبا تتحقـق اليـوم، وهـا نحـن فـوق الأرض التـي شربـت دمـاء جماعـة مـن كـرام المسـلمين يـوم أن جـاءوا ليقاتلـوا الـروم في معركـة مؤتـة.

وخفـق قلبـي طربـا لزيـارة المـكان، ولم ألبـث أن تمثلـت أمامـي المعركـة بتفاصيلهـا وبـدت لعينـي التضحيـة التـي يقـوم بهـا المؤمـن بالمثـل الأعـلى الـذي يدافـع عنـه وهـو يعـرف بأنـه قـادم عـلى خطـر أقـل مـا ينشـأ عنـه المـوت، ولكنـه الإيمـان والحـق صبـا في قلـوب القـوم فـكان منهـم شـهداء مؤتـة.

وعـادت بي الذكـرى، ونحـن ننتقـل بـين قبـور الشـهداء الأبـرار، ثلاثـة عـشر قرنـا وأزيـد إلى الـوراء، فرابتنـي أذكـر أخبـار هـذه الحملـة. فقـد جهزهـا النبـي في جـمادى الأولى مـن سـنة ثمـان للهجـرة، واختـار لهـا رجـالا مـن خـيرة جماعتـه مـن الأنصـار والمهاجريـن، فقـد رأى أن الشـام ومشـارفه طريـق رسـالته إلى العـالم الخارجـي، فـأراد أن يتعـرف إلى هـذا الطريـق، وليـس مـن تثريـب عليـه أن يؤمـن لجيوشـه هـذه السـيوف المشرفيـة التـي كانـت تصنـع في تلـك الربـوع عـلى أن أمـرا آخـر كان في نفـس الرسـول لمـا جهـز هـذا البعـث: ذلـك أن رسـولا للنبـي إلى صاحـب بـصري كان قـد قتـل في تلـك الجهـات فـأراد أن يثـار لـه ويـؤدب المعتديـن عليـه.

وتجهـز القـوم وكانـوا ثلاثـة آلاف، وقـد اسـتعمل الرسـول عليهـم زيـد بـن حارثـة وقـال «إن أصيـب زيـد فجعفـر بـن أبي طالـب عـلى النـاس فـإن أصيـب جعفـر فعبـد اللـه بـن رواحـة عـلى النـاس « فلـما تهيـأوا للخـروج ودعهـم أهلهـم وتمنـوا لهـم الخـير.

والأمـراء الثلاثـة، وقـد سـموا أمـراء رسـول اللـه، هـم مـن أعـين النـاس عـلى النبـي وأحبهـم اليـه ومـن أصحـاب السـابقة بـين الصحابـة. فأمـا زيـد فقـد كان حـب النبـي، نشـأ في حجـره وكان مـن أوائـل مـن آمـن برسـالته وقبـل الإسـلام. وجعفـر بـن عـم النبـي عزيـز عليـه مقـرب لديـه، وعبـد اللـه شـاعر مـن الأنصـار لـه في الرسـول قصائـد غـرر، وهـو الـذي قـال يـوم توديـع الرسـول للجيـش:

أَنتَ الرَّسـولُ وَمَن يُحرَم شَفاعَتَهُ

يَومَ الحِسـابِ فَقَد أَزرى بِهِ القَدَرُ

فَثَبَّتَ اللَهُ ما آتاكَ مِن حَسَـنٍ

تَثبيـتَ موسى وَنصراً كَالَّذي نُصِروا

إِنّي تَفَرَّسـتُ فيكَ الخَيرَ أَعرِفُهُ

وَاللَـهُ يَعلَمُ أَن ما خانَني البَصَرُ

عـلى أنـه بالإضافـة إلى هـؤلاء الثلاثـة الأمـراء كان في الجيـش مسـعود بـن الأسـود ووهـب بـن سـعد وعبـاد بـن قيـس والحـرث بـن النعـمان وسراقـة بـن عمـرو وأبـو كليـب وجابـر ابنـا عمـرو بـن زيـد، وابنـا سـعيد بـن الحـرث وخالـد بـن الوليـد.

سـار الجيـش القليـل الفئـة، العامـرة قلـوب أهلـه بالإيمـان يقطـع فيـافي الحجـاز وقفـاره يحـدو رجالـه الأمـل ويمـلأ نفوسـهم المثـل الأعـلى الـذي خرجـوا مـن أجلـه. واسـتمروا عـلى ذلـك حتـى هبطـوا معـان في جنـوب

شرق الأردن. ومعان نقطة اتصال رئيسية بين الحجاز وجنوب سوريا من أقدم الأزمنة، وتقع على طريق شبيب إلى الكرك.

حمل إلى الجيش أن هرقل إمبراطور البيزنطيين قد نزل في أرض البلقاء في مائة ألف من رجاله الروم، وأن جماعة كبيرة من أهل تلك الجهات انضمت اليه. فأقام المسلمون في معان ليلتين يتشاورون في أمرهم، وخطر لهم أن يكتبوا إلى النبي يطلبون رأيه، ويرجون منه المدد والمعونة. لكن عبد الله بن رواحة خطب فيهم قائلا «والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة فأمن الناس على قوله ومضوا وقد زاولتهم الريبة وعاد إليهم إيمانهم. وقد قال ابن رواحة في ذلك:

جَلَبنا الخَيلَ مِن أَجَأٍ وَفَرعٍ

تُغَرُّ مِنَ الحَشيشِ لَها العُكومُ

حَذَوناها مِنَ الصَوّانِ سِبتاً

أَزَلَّ كَأَنَّ صَفحَتَهُ أَديمُ

أَقامَت لَيلَتَينِ عَلى مُعانٍ

فَأُعقِبَ بَعدَ فَترَتِها جُمومُ

فَرُحنا وَالجِيادُ مُسَوَّماتٌ

تَنَفَّسُ في مَناخِرِها السَمومُ

فَلا وَأَبي مَآبُ لَنَأتِيَنها

وَإِن كانَت بِها عَرَبٌ وَرومُ

وظاهر الأمر، مما أورده مؤرخو العرب وجغرافيوهم، أن الروم كانوا في اللجون وهو حصن روماني الأصل أو أقدم يقع شمالي الطريق الممتدة من الكرك إلى القطرانة. فتحرك الجيش الرومي جنوبا وتحرك المسلمون شمالا من معان، فالتقى الجمعان في هذا السهل الفسيح المحيط بمؤتة، والذي يمتد البصر فيه مسافات شاسعة. وانحاز الجيش العربي إلى مؤتة متخذا من التل الذي يرتفع جنوبها درعا يقيه التفاف الروم. وعبئت هذه الآلاف الثلاثة، وكان زيد على القلب وقطبة العذري على الميمنة، وعبادة الأنصاري على الميسرة. وهجموا وزيد يحمل راية التي فاقتتل الناس فقاتل زيد حتى هلك في رماح القوم فتقدّم جعفر إلى الراية فقاتل بها، فلما ألحمه القتال ترجل عن فرسه الشقراء وقاتل وقطعت يمينه وكان يحمل اللواء بها، فأخذ عبد الله بن رواحة اللواء وتقدّم به وهو على فرسه وقال:

يا نفس إلا تُقتَلي تموتي

هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت

إن تفعلي فعلهما هديت

وتقدّم فقاتل حتى قتل.

وجاء ثابت بن أرقم فتناول الراية وطلب إلى المسلمين أن يختاروا رجلا منهم يتولى أمرهم، فلما رفض هو اصطلحوا على خالد بن الوليد.

وكانت مهمة خالد شاقة جدا. فالجيش الكبير قد كاد يفتك بالجماعة الصغيرة، وأدرك هذا الرجل أنه يتحتم عليه أن ينقذ جماعته من وسط هذا العراك الذي لا تناسب فيه، فنظم قومه ودافع العدو وتحاشى الاتصال به، فأنقذ من بقي وانصرف بهم.

وبلغ خبر مؤتة النبي وأهل المدينة، فكان وقعه عليهم شديدا، وإن اختلف أثره في الناس. أما النبي فقد حزن على الذين استشهدوا هناك حزنا شديدا، فقد روى أنه دخل على أسماء زوج جعفر وقد عجنت عجينها وغسلت بنيها ودهنتهم ونظفتهم فطلب منها أن تأتيه بنى جعفر فأتته بهم فتشممهم وذرفت عيناه، فسألته عما يبكيه فأبلغها أن جعفر وأصحابه أصيبوا ذلك اليوم. فصاحت حزنا وأسى واجتمع إليها النساء وخرج النبي فقال «لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم شغلوا بأمي صاحبهم وقد ورد أن الناس عرفوا الحزن في وجه الرسول في ذلك اليوم.

وأعلن النبي الخبر إلى أهل المدينة فقال عن الأمراء الثلاثة أنهم قاتلوا فقتلوا شهداء ورفعوا إلى الجنة.

أما أهل المدينة فقد نقموا على الذين عادوا أحياء، فقد خرج النبي للقائهم فلما دنوا من حول المدينة لقيتهم الناس فكانوا يحثون التراب على الجيش ويقولون «يا فرار فررتم في سبيل الله». أما الرسول فكان يقول لهم «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله».

وتغيب سلمة بن هشام، وكان فيمن عاد من مؤتة، عن حضور الصلاة مع رسول الله ومع المسلمين، فلما سئلت زوجه في ذلك قالت «والله ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس يا فرار فررتم في سبيل الله حتى قعد في بيته فما يخرج».

وقد حفظت لنا أبيات قالها قيس بن المسحر اليعمري يعتذر مما وصنع الناس إذ تحاشوا القتال وانصرفوا:

فوالله لا تنفك نفسي تلومني

على موقفي والخيل قابعة قبل

وقفت بها لا مستحيزا فنافذا

ولا مانعا من كان حم له القتل

على أنني آسيت نفسي بخالد

ألا خالد في القوم ليس له مثل

وجاشت إليّ النفس من نحو جعفر

بمؤتة إذ لا ينفع النابل النبل

وبمناسبة معركة مؤتة، على ما يروى الطبري، سمى النبي خالدا «سيف الله »، وقد كانت التسمية صحيحة كما ثبت من أعمال هذا الرجل فيما بعد.

وقـد شـغل النـاس بشـهداء مؤتـة، فرثاهـم حسـان بـن ثابـت وكعـب بـن مالـك وغيرهـما. فمـما قالـه الأول:

تَأَوَّبَنـي لَيلٌ بِيَثرِبَ أَعسَرُ

وَهَمٌّ إِذا ما نَوَّمَ الناسُ مُسـهِرُ

لِذِكـرى حَبيبٍ هَيَّجَت ثُمَّ عَبرَةً

سَـفوحاً وَأَسبابُ البُكاءِ التَذَكُّرُ

بَـلاءٌ وَفِقدانُ الحَبيبِ بَلِيَّةٌ

وَكَـم مِن كَريمٍ يُبتَلى ثُمَّ يَصبِرُ

رَأَيتُ خَيارَ المُؤمِنينَ تَوارَدوا

شَـعوبَ وَقَد خُلِّفتُ فيماً يُؤَخَّرُ

فَـلا يُبعِدَنَّ اللَهُ قَتلى تَتابَعوا

بِمُؤتَـةَ مِنهُم ذو الجَناحَينِ جَعفَرُ

وَزَيـدٌ وَعَبدُ اللَهِ حينَ تَتابَعوا

جَميعاً وَأَسـبابُ المَنِيَّةِ تَخطِرُ

غَـداةَ غَدَوا بِالمُؤمِنينَ يَقودُهُم

إِلى المَـوتِ مَيمونُ النَقيبَةِ أَزهَرُ

أَغَرُّ كَلَونِ البَدرِ مِن آلِ هاشِـمٍ

شُـجاعٌ إِذا سيمَ الظُلامَةَ مِجسَرُ

فَطاعَنَ حَتّى ماتَ غَيرَ مُوَسَّـدٍ

بِمُعـتَرَكٍ فيهِ القَنا يَتَكَسَّرُ

فَصارَ مَعَ المُستَشـهِدينَ ثَوابُهُ

جِنـانٌ وَمُلتَفُّ الحَدائِقِ أَخضَرُ

وَكُنّـا نَرى في جَعفَرٍ مِن مُحَمَّدٍ

وَفـاءً وَأَمراً حازِماً حينَ يَأمُرُ

أمـا كعب بن مالك فكان مما قاله:

نَـامَ العُيُونُ وَدَمْعُ عَيْنِكَ يَهْمُلُ

سَـحّاً كَمَا وَكَفَ الطّبَابُ المُخْضَلُ

فِي لَيْلَـةٍ وَرَدَتْ عَلَيَّ هُمُومُهَا

طَوْراً أحِنُّ وَتَارَةً أتَمَلْمَلُ

واعتَـادَني حُزْنق فبِتُّ كَأَنَّني

بِبَنَاتِ نَعْشٍ والسّـمَاكِ مُوكَّلُ

وكَأَنّمـا بَيْنَ الجَوَانِحِ والحَشَى

ممّا تَأَوَّبني شِـهابٌ مُدْخِلُ

وَجْـداً عَلَى النَّفَرِ الذينَ تَتَابَعُوا

يوماً بِمؤتةَ أُسْـنِدُوا لم يُنقَلُوا

صـلّى الإلهُ عَليهِمُ مِنْ فِتْنَةٍ

وَسَـقَى عِظَامَهُمُ الغَمَامُ المُسْبَلُ

صَبَرُوا بِمُؤْتَةَ للإلهِ نُفُوسَـهُمْ

حَـذَرَى الرَّدى وَمَخَافَةً أن يَنْكُلُوا

وثمـة غـير هـذا كثـير مـما قيـل، ورد ذكـره في كتـب الأدب. والـذي نـراه مـن ذلـك أن يـوم مؤتـة كان يـوم حـزن في المدينـة.

ولكـن يـوم مؤتـة شيء آخـر في تاريـخ العـرب والإسـلام. كانـت معركـة مؤتـة انكسـارا لهـذا الجيـش مـن المسـلمين، إذ كان مقيـاس النـصر والانكسـار التقـدّم في الموقعـة والتراجـع. أمـا إذا اعتـبرت الناحيـة المعنويـة في القضيـة فيـوم مؤتـة يـوم أغـر في التاريـخ. لقـد كان نـصرا مبينـا. فقـد انتـصرت فيـه الفكـرة عـلى المـادة، ذلـك لأن الجماعـة التـي تقدّمـت للقتـال كانـت تعـرف منـذ أن بلغهـا نبـأ الجيـش، أنهـا لا قبـل لهـا بالغلـب عليـه، ورغـم ذلـك أقدمـت لأنهـا تسـير نحـو غايـة سـامية. ويـوم مؤتـة كان نـصرا لأنـه كان فاتحـة لمـا جـاء بعـده.

فقـد قـال النبـي عـن الجيـش العائـد ليسـوا بالفـرار ولكنهـم الكـرار إن شـاء اللـه وقـد كانـوا كـرارا. ألم يقـد أسـامة بـن زيـد حملـة ثـأر فيهـا لأبيـه، ألم يقـد ابـن العـاص وابـن الوليـد وابـن حسـنة وابـن الجـراح حمـلات ثـأرت لمؤتـة وحققـت مـا كان يرمـى اليـه النبـي مـن امتـلاك الشـام لأن الشـام طريـق دعوتـه وسـبيل رسـالته!

تلك كانت رسـالة يوم مؤتة في تاريخ العرب والاسـلام!

عدت ذلك اليوم من مؤتة وأنا أفكر بالمعركة وشهدائها. لقد اضطررنا إلى التنقل بين البيوت للوصول إلى قبور الشهداء، فلما وصلنا اليها هالنا ما رأيناه. إنه الاهمال بعينه، أيجوز ذلك؟ أيجوز أن تبقى قبور هؤلاء الناس مهملة إلى هذا الحد

يوم مؤتة ورسالته وأبطاله وشهداؤه يجب أن يكرمهم أحفادهم وورثة فكرتهم وحملة رسالتهم، فلنتقدم إلى ذلك.

٣ - معاوية يستقبل نساء العرب

ولى معاوية الخلافة سنة ٤١ للهجرة، وهو منشئ البيت الأموي، واتخذ دمشق عاصمة له. وكان قد وصل إلى منصبه بعد خلاف طويل بينه وبين علي، وقد بلغ هذا الخلاف أشدّه في معركة صفين. فلما اطمأن معاوية إلى بيعة المسلمين له في عام الجماعة عمل على تأليف القلوب فكان يحسن إلى خصومه ويلاينهم، وكانت معاملته لهم أساسها الكرم والحلم، ومعاوية من أحلم من عرف التاريخ العربي. وقد كان لهذه السياسة أكبر الأثر في نفوس الناس - مؤيديه منهم وخصومه، فالتف القوم حوله وأعاد إلى العالم العربي وحدته، ورفع شأن الدولة العربية ونجح في تثبيت قواعدها وتنظيمها نجاحا كبيرا.

وقد كان للمرأة العربية حظ كبير من سياسة تأليف القلوب هذه. ذلك أن كثيرات من النساء كن ذوات شأن في معركة صفين، وكن يقفن بين الصفوف فينا دين الرجال إلى نصرة على وآله فيحملن الجبان على القتال، والمدبر على الإقبال، والمسالم على الحرب، والفار على

الكر، والمتزلـزل عـلى الاسـتقرار. فـكان معاويـة يحـاول الاتصـال بشـهيراتهنّ فيتحـدث إليهـن ويقـضى لهـن حاجاتهـن وحاجات،قومهـنّ ولطالمـا سـمع منهـنّ قـارس الـكلام فعفـا وهـو الأمـير المقتـدر، وإنمـا العفـو عنـد المقـدرة. وقـد عنـى مؤلفـو الكتـب الأدبيـة والـرواة بأخبـار الكثـيرات ممـن اتصلـن بالخليفـة العظيـم فنقلوهـا إلينـا. وكان ممـن اجتمعـن بـه أم الخـير البارقيـة وسـودة بنـت عـمارة والزرقـاء بنـت عـدى وعكرشـة بنـت الأطـرش ودارميـة الجونيـة وبـكارة الهلاليـة وأروى بنـت الحـارث وأم سـنان المذحجيـة وليـلى الأخيليـة. وبعـض هـؤلاء اسـتدعاهن معاويـة فقـر بهـن وأكـرم مثواهـنّ، وبعضهـن وفـدن عليـه مـن تلقـاء نفوسـهن فقـضى حاجاتهـن، وبعضهـن مـر بهـنّ في سـفره، فأحسـن إليهـنّ، مـع أنـه سـمع منهـنّ مـا سـاءه.

وليـس يتسـع المقـام لعـرض كل مـا دار بـين الخليفـة وبـين هـؤلاء النسـاء الكريمـات فلنكتـف إذن ببعـض مـا كان في تلـك الاجتماعـات وليرجـع إلى الباقـي مـن شـاء في العقـد الفريـد والأغـاني وزهـر الآداب.

أمـا سـودة بنـت عـمارة فقـد وفـدت عليـه فـأذن لهـا، فلـما دخلـت سـلمت عليـه فسـألها عـن حالهـا وذكرهـا كيـف كانـت تحـرّض أخاهـا يـوم صفـين ليبطـش بمعاويـة وصحبـه وروى لهـا قولهـا:

شَـمِّر كَفِعلِ أَبيكَ يا اِبنَ عُمارَةٍ

يَــومَ الطِـعانِ وَمُلتَقى الأَقرانِ

وَاِنـصُــر عَـلِيّاً وَالحُسَينَ وَرَهطَهُ

وَاِقـصِــد لِهِـنـدٍ وَاِبـنِهـا بِهَوانِ

وابـن هنـد هـو معاويـة، فلـم تنكـر سـودة قولهـا ولم تعتـذر وكان أخوهـا قـد أبـلى بـلاء حسـنا في المعركـة فذكرتـه بالخـير، فـرأى معاويـة متانـة خلقهـا وثبـات مبدئهـا فطلـب إليهـا أن تذكـر حاجتهـا فقالـت «يـا أمـير المؤمنـين إنـك أصبحـت للنـاس سـيدا ولأمورهـم متقلـدا، واللـه سـائلك عـما افـترض عليـك مـن حقنـا. ولا تـزال تقـدم علينـا مـن ينهـض بعـزك ويبطـش بسـلطاتك......... وهـذا أبـن أرطـاة......... قتـل رجـالي وأخـذ مـالي... ولـولا الطاعـة لـكان فينـا عـز ومنعـة. فإمـا عزلتـه فشـكرنا لـك وإمـا لا، فعرفنـاك ". فنبههـا معاويـة إلى أنهـا هددتـه بقومهـا، ثـم أطـرق سـاعة، ثـم قـال لكاتبـه اكتبـوا بالإنصـاف لهـا والعـدل عليهـا «. قالـت: «إلى خاصـة أم لقومـي عامـة «. قـال: «ومـا أنـت وغـيرك «. قالـت: «هـي واللـه إذن الفحشـاء واللـؤم. إن كان عـدلا شـاملا وإلا يسـعني مـا يسـع قومـي، فقـال معاويـة: أكتبـوا لهـا ولقومهـا.

أمـا الزرقـاء فقـد ذكـرت في مجلـس معاويـة بأنهـا كانـت تقـوم يـوم صفـين بـين الصفـوف عـلى جمـل أحمـر فتوقـد نـار الحـرب وتحـرض عـلى القتـال بقولهـا:

«أيهـا النـاس الحـق كان يطلـب ضالتـه فأصابهـا. فصـبرا معـشر المهاجريـن والأنصـار. فكأنكـم، وقـد التـأم شـمل الشـتات وظهـرت كلمـة العـدل وغلـب الحـق باطلـه. فانـه لا يسـتوي المحـق والمبطـل.... فالنـزال النـزال والصـبر الصـبر ألا أن خضـاب النسـاء الحنـاء وخضـاب الرجـال الدمـاء. والصـبر خـير الأمـور عاقبـة. ائتـوا الحـرب غـير ناكصـين، فهـذا يـوم لـه مـا بعـده. وسـأل معاويـة جلسـاءه عـما يشـيرون فيهـا، فأشـاروا بقتلهـا فقـال

لهـم معاويـة «بئـس مـا أشرتـم بـه، وقبحـا لمـا قلتـم. أيحسـن أن يشـتهر عـلى أنني بعـد مـا ظفـرت وقـدرت قتلـت امـرأة قـد وفـت لصاحبهـا؟ إننـي إذن للئيـم. لا واللـه لا فعلـت ذلـك أبـدا «. ثـم كتـب إلى والى الكوفـة أن ينفـذ إليـه الزرقـاء بنـت عـدى مـع نفـر مـن عشـيرتها وفرسـان قومهـا، وأن يمهـد لهـا وطـاء لينـا، ومركبـا ذلـولا. فحملهـا الـوالي في هـودج مبطـن بالخـز ثـم أحسـن صحبتهـا. فلـما قدمـت عـلى معاويـة رحـب بهـا وأهـل وسـألها عـن سـفرتها وذكرهـا بيـوم صفـين ومـا قالتـه فيـه، فأكدتـه وذكـرت عليـا بالخـير فأعجـب معاويـة بوفائهـا لـه بعـد وفاتـه، أكـثر مـن إعجابـه بحبهـا لـه في حياتـه........ ثـم سـألها حاجتهـا فقالـت: «يـا أمـير المؤمنـين إلى آليـت عـلى نفـسي ألا أسـأل أحـدا أعنـت عليـه أبـدا «فقـال «قـد أشـار عـلى بعـض مـن عرفـك بقتلـك «فقالـت «لـؤم مـن المشـير، ولـو أطعتـه لشـاركته. قـال «كلا بـل نعفـو عنـك ونحسـن إليـك ونرعـاك «فقالـت «يـا أمـير المؤمنـين كـرم منـك. ومثلـك مـن قـدر فعفـا، وتجـاوز عمـن أسـاء، وأعطـى مـن غـير مسـألة". فأعطاهـا كسـوة ودراهـم واقطعهـا ضيعـة تغـل لهـا في كل سـنة عـشرة آلاف درهـم وأعادهـا إلى وطنهـا سـالمة وكتـب إلى والى الكوفـة بالوصيـة بهـا وبعشـيرتها.

وأمـا بـكارة الهلاليـة فقـد اسـتأذنت عـلى معاويـة، فـأذن لهـا فدخلـت عليـه وعنـده مـروان بـن الحكـم وعمـرو بـن العـاص. وكانـت امـرأة قـد أسـنت وغـشى بصرهـا وضعفـت قوتهـا وكانـت ترعـش بـين خادمـين لهـا. فسـلمت وجلسـت فـرد معاويـة السـلام وسـألها عـن حالهـا وأشـار إلى تغيـير الدهـر لهـا فقالـت «كذلـك الدهـر ذو غـير. مـن عـاش كـبر ومـن مـات قـبر «. قـال عمـرو بـن العـاص يـا أمـير المؤمنـين هـي القائلـة يـوم صفـين:

يـا زيد دونك فاحتفر من دارنا

سـيفا حساما في التراب دفينا

قـد كنت أذخره ليوم كريهة

فاليـوم أبرزه الزّمان مصونا

وروى مـروان بيتـين آخريـن قالتهـما في تلـك المناسـبة، ثـم روى سـعيد ابـن العـاص أبياتـا أخـرى وكلهـا فيهـا حملـة عـلى معاويـة فسـكت الجميـع، فالتفتـت بـكارة وقالـت «نبحتنـي كلابـك يـا أمـير المؤمنـين واعتورتنـي فقـصر محجنـي، وكـثر عجبـي وغـشى بـصري. وأنـا واللـه قائلـة مـا قالـوا لا أدفـع ذلـك بتكذيـب، ومـا خفـي عنـك منـى أكـبر فامـض لشـأنك «. فضحـك معاويـة وطلـب إليهـا أن تذكـر حاجتهـا فقالـت «أمـا الآن فـلا «.

وكان معاويـة في مجلسـه وبـين يديـه عمـرو بـن العـاص ومـروان بـن الحكـم فدخلـت عليـه أروى بنـت الحـارث بـن عبـد المطلـب وهـي عجـوز، فرحـب بهـا معاويـة وسـألها عـن نفسـها فذكرتـه بأنـه اغتصـب حقـا لم يكـن لـه ونالـت منـه ومـن أعوانـه. وأدرك عمـرو ومـروان تعريضهـا بهـما فلاماهـا وزجراهـا فوجهـت إليهـما تهـما قاسـية ولامـت معاويـة عـلى صمتـه عـن أمثـال هذيـن ورغـب معاويـة في إزالـة مـا بهـا، فاصمـت جليسـيه، وسـألها عـن حاجتهـا قالـت «تأمـر لي بألفـي دينـار، وألفـي دينـار، وألفـى دينـار «. قـال (مـا تصنعـين يـا عمـة بألفـي دينـار) قالـت: «أشـترى بهـا عينـا جاريـة في أرض منخفضـة تصلـح للزراعـة تكـون لولـد الحـارث بـن عبـد المطلـب! قـال معاويـة نعـم الموضـع وضعتهـا. فـما تصنعـين بألفـي دينـار «قالـت «أسـتعين بهـا عـلى عـسر أهـل المدينـة، وزيـارة بيـت اللـه الحـرام «قـال

«نعم الموضع وضعتها. فما تصنعين بألفي دينار «قالت «أزوج بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم قال نعم الموضع وضعتها. هي لك يا عمة أنفق هذه فيما تحبين فإذا احتجت فاكتبي إلى أحسن اعطاءك ومعونتك إن شاء الله «.

وقد كان معاوية يتقرب إلى الناس أحيانا بالعفو عن ذنوبهم التي اقترفوها أيام خلافته، لا عن خصومتهم القديمة له فحسب. فمن ذلك أن سنان المذحجية كلمت مروان بن الحكم، وهو والي معاوية على المدينة، في أمر حفيد لها حبسه مروان، فأغلظ لها وذكرها بولائها لعلى، فخرجت إلى معاوية بدمشق فدخلت عليه فانتسبت فعرفها، ورحب بها، وسألها حاجتها فقالت «يا أمير المؤمنين أن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة، وأحلاما وافرة لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو. وأن أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت «. فأمن معاوية على كلامها لكنه ذكرها ببعض ما قالته فيه فما أنكرته، وفعل بعض جلسائه مثل فعله فما أنكرته، لكنها أضافت «يا أمير المؤمنين لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقق فيك ما ظننا! لحظك الأوفر. والله ما مثلك مدح بباطل ولا اعتذر إليه بكذب. وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا...... كان على أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص....... وقد استحققت ذلك بسعة حلمك وكريم عفوك فهذا مروان في المدينة لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة، حبس ابن ابني فأتيته فأغلظ لي القول فألقمته أخشن من الحجر، وألعقته أمر من الصبر ثم رجعت إلى نفسي باللائمة وقلت لم لا أصرف الأمر إلى من هو أولى منه بالعفو عنه. فأتيتك

يـا أمـير المؤمنـين لتكـون في أمـري ناظـرا، وعليـه نـاصرا «قـال معاويـة «لا أسـألك عـن ذنبـه ولا عـن القيـام بحجتـه اكتبـوا لهـا بإطلاقـه «قالـت «يـا أمـير المؤمنـين وأنى لي بالرجعـة وقـد نفـد زادي وكلـت راحلتـي فأمـر لهـا بخمسـة آلاف درهـم وراحلـة.

وحـج معاويـة سـنة فسـأل عـن امـرأة مـن بنـي كنانـة يقـال لهـا دارميـة المجونيـة وكانـت سـوداء كثـيرة اللحـم، فأخـبر بسـلامتها، فبعـث إليهـا فجـئ بهـا فتحـدث إليهـا سـاعة يسـألها عـن حالهـا وعـن حبهـا لعـلى وكرههـا لـه (أي معاويـة) فقالـت لـه «أحببـت عليـا عـلى عدلـه في الرعيـة، وقسـمه بالسـوية، وواليتـه عـلى حبـه المسـاكين واعظامـه لأهـل الديـن! وعاديتـك عـلى سـفكك الدمـاء وشـقك العصـا وحكمـك بالهـوى. فقـد رأيتـه واللـه لم يفتنـه الملـك الـذي فتنـك ولم تشـغله النعمـة التـي شـغلتك. وكان كلامـه يجلـو القلـوب مـن العمـى، كـما يجلـو الزيـت الصـدأ.

قـال «صدقـت «ثـم سـألها حاجتهـا فاشـترطت عليـه أن يفعـل إذا سـألته، فقبـل، فطلبـت أن يعطيهـا مائـة ناقـة حمـراء فيهـا فحلهـا وراعيهـا، فسـألها عـما بهـا فقالـت «أغـذو بألبانهـا الصغـار، واسـتحي بهـا الكبـار واكتسـب بهـا المـكارم وأصلـح بهـا بـين العشـائر «فوهـب لهـا مـا سـألت وأنشـأ يقـول:

إذا لم أعـد بالحلم مني عليكم

فمـن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم

خذيهـا هنيئا واذكري فعل ماجد

جزاك على حرب العداوة بالسـلم

وكان معاوية يسير فرأى را كبا فأرسل بعص شرطه ليأتيه به دون أن يروعه. فلما قيل له ذلك قال «أمير المؤمنين أردت «فلما دنا الراكب أنزل لثامه فإذا ليلى الأخيلية الشاعرة فأنشأت تقول:

مُعاوِيَ لَمْ أَكدْ آتيكَ تَهْوي

بِرَحْلي رادَةُ الأَصْلابِ نابُ

قَرِيحُ الظَّهْرِ يَفْرَحُ أَنْ يَراها

إذا وَضَعَتْ وِلّيتَها الغُرابُ

تَجُوبُ الأرضَ نَحْوَكَ ما تَأَنَّى

إذا ما الأُكْمُ قَنَّعَها السَّرابُ

وكُنْتَ المُرْتَجى وبِكَ اسْتَغاثَتْ

لتُنْعِشَها إذا بَخُلَ السَّحابُ

فسألها حاجتها فقالت «ليس مثلى يطلب حاجة، فتخبر أنت»فأعطاها خمسين من الإبل.

هذا معاوية بن أبي سفيان، وهو من تعرفون رجاحة عقل، وسعة صدر، وسعة علم، عرف قدر المرأة العربية متينة الخلق ثابتة المبدأ، وأدرك قيمتها في تربية بنيها على قويم الأخلاق، وصادق العزيمة، والدفاع عن الحق، فرفع من شأنها ليكون له من أبنائها درع تحميه، ومؤيدون أقرباء يركن إليهم إذا جد الجد. أعاد الله إلى قومي مثل

أولئك النساء، وأعاد إليهم مثل معاوية فيعود إليهم ما كان لهم من شأن وقوة.

٤ - العرب يؤسسون مدينة

كانت البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان في مقدمة المدن التي أنشأها العرب بعد فتحهم بلاد الشرق العربي. وكانت هذه المدن، بادئ الأمر، مراكز عسكرية حربية، تتخذ قواعد للهجوم، ومنها تمتار الجنود وتزود بالسلاح والعتاد والمؤن، واليها تلجأ لتستجم. لكن العرب لم يلبثوا أن أخذوا ببناء مدن كبيرة اتخذت مراكز للإدارة المدنية، وعواصم للدول وموئلا للحضارة. وفي طليعة هذه المدن دار السلام: بغداد

والمنصور أول من مصرها وجعلها مدينة. أما قبله فقد وردت أخبارها في التاريخ العربي مرة واحدة أثناء فتوح العراق. ذلك أنه لما احتل العرب الحيرة وأخذوا يغيرون على السواد وانتفضت مصالح فارس قال أهل الحيرة للمثنى «ان بالقرب منا قرية تقوم فيها سوق عظيمة مرة في كل شهر فيأتيها تجار فارس والأهواز وسائر البلاد يقال لها بغداد ». فأخذ المثنى على البر حتى أتى الأنبار فتحصن أهلها، فاستدعى المثنى مرزبانها وأمنه فجاء فأخبره أنه ينوى الاغارة على سوق بغداد وطلب اليه أن يبعث معه أدلاء وأن يعقد له الجسر، ليعبر الفرات عليه، فعقد المرزبان الجسر فعبر المثنى مع أصحابه وبعث معه الأدلاء، فسار حتى وافى السوق صحوة فهرب الناس وتركوا أموالهم فأخذ العرب من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمله، ثم رجعوا إلى الأنبار وكان ذلك سنة ١٣ للهجرة.

واختفى اسم بغداد وسوقها من التاريخ حتى سنة ١٤٥ للهجرة (٧٦٢م)، لما رغب أبو جعفر المنصور في اتخاذ عاصمة جديدة له، ذلك أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده، وكان الراوندية قد ثاروا به، فأرسل المنصور روادا ليفتشوا له عن موضع يبنى فيه مدينة على أن يكون الموقع واسطا رافقا بالعامة والجند. وخرج المنصور بعدهم بنفسه فحرب أماكن مختلفة ثم تخير موقع بغداد. فقد روى أهل السير أنه أتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر، وذلك في صيف وحر شديد وبات اغيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيرا، فقال هذا موضع «صالح» للبناء: فان الميرة تجيئه من أرمينية وأذربيجان والموصل والشام والسند والصين والبصرة، والمادة تأتيه من الفرات ودجلة ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله، خط البناء وقدر المدينة ووضع أول لبنة بيده.

وقد أضاف غيرهم من الرواة إلى هذا قصة أخرى ننقلها لطرافتها وهي أن المنصور لما خرج يلتمس موضعا لبناء مدينته نزل الدير الذي على الصراة في العتيقة، فما زال على دابته ذاهبا جائيا منفردا عن الناس يفكر. وكان في الدير راهب «عالم» فاقترب من على بن يقطين (وهو راوية هذه القصة) وسأله عن الملك لم يذهب ويجيء، فأخبره على بأمره، فقال الراهب ان في علمنا أن الذي يبنى مدينة في هذا الموضع يسمى مقلاص، وما هو باسم ملككم هذا. فذهب على إلى المنصور يخبره بالأمر ليريحه من العناء الذي هو فيه فلما سمع المنصور ذلك منه ضحك واستبشر ونزل عن دابته فسجد وأخذ سوطه وأقبل يذرع به ثم التفت إلى على وقال «أنا كنت ملقبا بمقلاص في

صغـرى ثـم نـسى النـاس لقبـي فاعتبرهـا المنصـور وجماعتـه بـشرى خـير.

ووجـه المنصـور في حـشر الصنـاع والفعلـة مـن الشـام والموصـل والجبـل والكوفـة وواسـط والبـصرة، فأحـضروا، وأمـر باختيـار قـوم مـن ذوي الفضـل والعدالـة والفقـه والأمانـة والمعرفـة بالهندسـة فـكان ممـن أحـضر لذلـك الحجـاج بـن أرطـأة وأبـو حنيفـة النعـمان. واستشـار المنصـور نوبخـت الفلـكي عـن طالـع المدينـة فلـما اسـتم لـه ذلـك أمـر فبـدئ بالعمـل. وأحـب المنصـور أن يـرى عيانـا مـا يمكـن أن تكـون عليـه مدينتـه فأمـر أن يخـط محيطهـا بالرمـاد، وتخطـط فصلاتهـا وطرقاتهـا ورحابهـا ثـم أقبـل يدخـل مـن كل بـاب ويمـر في الطـرق، فلـما أتـم ذلـك أمـر أن يجعـل عـلى تلـك الخطـوط حـب القطـن ويصـب النفـط عليـه ثـم يشـعل، فنظـر اليـه والنـار تشـتعل ففهمهـا وعـرف رسـمها وأمـر أن يحفـر أسـاس ذلـك عـلى الرسـم. وكان ذلـك سـنة ١٤٥ للهجـرة.

وجعـل أبـو جعفـر المدينـة مـدورة، لأنـه أراد أن يكـون سـكانها عـلى بعـد واحـد مـن مركـز الملـك حيـث أقـام قـصره والمسـجد الجامـع وكان طـول المدينـة مـن البـاب إلى البـاب خمسـة آلاف ذراع أو مـا يزيـد عـلى الكيلـو متريـن، وجعـل لهـا أربعـة أبـواب وعمـل لهـا سـورين وأحـاط سـورها الخارجـي بالخنـادق وجعـل عـرض السـور مـن أسـفله خمسـين ذراعـا هاشـمية أو مـا يزيـد عـلى عشريـن مـترا.

بنيـت أسـوار بغـداد مـن اللـبن المجفـف بالشـمس وكانـت اللبنـات كبـيرة الحجـم ثقيلـة الـوزن. فقـد وجـدت فيـما بعـد لبنـة، وعليهـا بمغـرة، ان وزنهـا مائـة وسـبعة عـشر رطـلا فوزنـت فكانـت كذلـك. وربطـت اللبنـات

بعضها ببعض بالخيزران. وكان في كل دور من أدوار السور السفلى مائة ألف وخمسون ألف لبنة، ثم تناقصت هذه بارتفاع السور، لأن أعلاه كان عشرة أمتار أو يزيد. وقام أبو حنيفة النعمان بضرب اللبن وعده كله، وكان يعده بالقصب وهو أول من فعل ذلك، واستفاد الناس ذلك منه. وعمل في بنائها مائة ألف من العمال

وجاء المنصور بأبواب المدينة من واسط والشام والكوفة. وبلغت نفقات بناء بغداد، في الدور الأول، بما تقرب قيمته بعملة اليوم من نصف مليون جنيه من الذهب. أما التقدير الذي نجده عند بعض القدماء من المؤرخين بما يساوى تسعة ملايين جنيه من عملة اليوم فلعل المقصود ما أنفق عليها بعد التوسع الكبير وبعد أن نشأت حولها أرباضها وضواحيها وقصورها.

ونحن إذ دخلنا مدينة المنصور من أحد أبوابها بعد عبور الخندق كان أول ما قابلنا الباب الخارجي ثم دهليز ورحبة ثم الباب الرئيسي، وهو الذي في السور الداخلي. والرحبة ينفتح على جانبيها بابان إلى الفصيل، وهو الجزء الخالي من البناء الذي يدور بالمدينة بين سورها الخارجي والداخلي. والباب الثاني أو الداخلي عليه مجلس له درجة على السور يرتقي إليه منها وعلى هذا المجلس قبة عظيمة مزخرفة ذاهبة في السماء، وعلى رأسها تمثال تديره الريح وهكذا كانت حال كل باب. وكانت هذه القبة مجلس المنصور. فإذا أحب الماء، ورغب في مراقبة من يقبل من المشرق، جلس في قبة باب خراسان وإذا أراد النظر إلى الأرباض وما والاها جلس في قبة باب الشام، وكان مجلسه في قبة

بـاب الكوفـة إذا أحـب النظـر إلى البسـاتين والضيـاع. فـإذا كانـت لـه رغبـة إلى رؤيـة الكـرخ جلـس في قبـة بـاب البـصرة. وكان عـلى كل بـاب قائـد في ألـف. وكان لا يدخـل أحـد مـن هـذه الأبـواب إلا راجـلا.

فـإذا تجاوزنـا البـاب الداخـلي فنحـن في سـاحة هـي التـي أعدهـا المنصـور لإقامــة أبنيــة أتباعــه ورجالــه ممــن انتقــل معــه إلى عاصمتــه الجديــدة. وكان يفصـل هـذه السـاحة عـن المنطقـة الداخليـة للمدينـة جـدار. ونحـن نسـير مـن البـاب إلى مركـز المدينـة المـدورة، فتكـون عـلى جانبينـا أسـواق بغـداد ومراكـز تجارتهـا. وهـذه الطـرق الرئيسـية للمدينـة تصـل أبوابهـا بوسـطها وتنتهـي كلهـا عنـد المسـجد الجامـع والقـصر. وكانـا يتوسـطان مدينـة المنصـور وتحيـط بهـما باحـة واسـعة خاليـة مـن الابنيـة

وكان في صـدر قـصر المنصـور إيـوان طولـه ثلاثـون ذراعـا وعرضـه عـشرون ذراعـا وفي صـدر الإيـوان مجلـس وسـقفه قبـة وعليـه مجلـس مثلـه، فوقـه القبـة الخـضراء التـي يرتفـع رأسـها عـن الأرض ثمانـون ذراعـا. وعـلى رأس القبـة تمثـال فـرس عليـه فـارس. وكانـت القبـة الخـضراء تـرى مـن أطـراف بغـداد. وقـد ظلـت هـذه القبـة مائـة ونيفـا وثمانـين سـنة، وسـقطت في أيـام الخليفـة الواثـق.

أمـا المسـجد الجامـع فقـد كانـت المسـاحة التـي أقيـم عليهـا مائتـي ذراع في مثلهـا. وكان مثـل القـصر، مبنيـا مـن الآجـر وأعمدتـه مـن الخشـب.

عـلى أن بغـداد هـذه لم تلبـث أن أخـذت تتسـع. فنشـأت حولهـا قصـور ومتنزهـات وأسـواق ومـا شـاكل ذلـك حتـى شـغلت مسـاحة كانـت أضعـاف مسـاحتها الأصليـة. فكانـت محلـة الكـرخ أول اتسـاع تجـارى لبغـداد، وكان

قصر الخلد أول امتداد رسمي لها وكانت الرصافة أول محاولة للاستمتاع بخيرات الطبيعة الجميلة.

روى أن وفد على المنصور وفد ملك الروم، فأمر أن يطاف بهم في المدينة ثم دعاهم فقالوا للمنصور يا أمير المؤمنين أنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك، وفيه ثلاثة عيوب: أولها بعده عن الماء وثانيها أنه ليس في بنائك هذا بستان وثالثها أن رعيتك معك في بنائك وإذا كانت الرعية الملك فشا سره. فتجلد المنصور وقال أما قولك الماء فحسبنا من الماء مع ما بل شفاهنا، وأما البستان فانا لم تخلق للهو واللعب. وأما قولك في سرى فمالي سر دون رعيتي. ولكن بعد سفر الوفد أمر المنصور بمد قناتين من دجلة، وغرس العباسية، ونقل الناس إلى الكرخ.

ومع ما في هذه القصة من الطرافة، فنحن نرى غير هذا فما كان المنصور بحاجة إلى وفد رومي ليرشده إلى هذه الأمور، وكل ما في المسألة هو أن بناء المدينة، في سنة وبعض السنة، لم يكن من المنتظر أن يتم كله، وكانت لا تزال بحاجة إلى اتمام. وهناك ما يثبت أن مد القناتين كان لغير هذا، فانه رأى المنصور أن الماء ينقل بالروايا فتصل بغالها إلى رحابه، واتخذ فنيا بالساج. ثم زاد عدد هذه القنوات الوثيقة فكانت تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض وتجرى صيفا وشتاء لا ينقطع ماؤها في وقت. ومثل ذلك يقال في مغانيها وأسواقها. فسوق الكرخ بنيت، على رواية هي أقرب إلى المنطق، لازدياد التجار والباعة وقيامهم بالشغب وكثرة الضوضاء، فحول المنصور الاسواق خارج العاصمة نفسها. ولعله قصد أن يوسع بعض دروب مدينته الاصلية،

لأنها ضاقت، وهذا ما حدث، فانه أمر في نفس السنة بهدم بعض الدور ليتم له ما يريد. ومن لطيف ما يروى أن المنصور قال، لما نقلت الأسواق إلى الكرخ، جعلوا سوق القصابين في آخر الأسواق فإن في أيديهم الحديد القاطع. وكانت الأسواق لا غلة عليها في أيام المنصور، ولعله رمى من وراء ذلك إلى تشجيع الناس على تركيز شؤونهم حتى يستقروا.

ولم يكد يفرغ من تحويل الأسواق إلى الكرخ حتى انصرف إلى بناء قصر الخلد على دجلة. ولما وفد المهدى من الري سنة ١٥٩ بنى المنصور الرصافة، وهي التي تم بناؤها تحت اشراف المهدى نفسه.

وأصبحت بغداد عاصمة العراق وعاصمة العالم العربي والإمبراطورية الاسلامية، وظلت على ذلك نيفا وخمسة قرون، وكانت تتسع وتكبر وتنمو في كل ناحية من نواحيها. فالمكاتب والمدارس ودور العلم والمساجد كانت تشاد بالإضافة إلى القصور ودور الادارة والأسواق، وكان يقطنها من كل أصناف الناس على اختلاف مشاربهم ومنازعهم. فلم يكن مبالغة ما قيل فيها:

أعاينت في طول من الأرض أو عرض

كبغداد دارا، إنها جنة الأرض

صفا العيش في بغداد واخضر عوده

وعيش سواها غير صاف ولا غض

تطـول بها الأعمار إن غذاءها مريء

وبعـض الأرض أمرؤ من بعض

وقـد نقـل الخطيـب البغـدادي، مـؤرّخ بغـداد في القـرن الخامـس للهجـرة، طائفـة مـما قيـل في مـدح بغـداد ومحاسـن أخـلاق أهلهـا، ونقـل ياقـوت في معجـم البلـدان بالإضافـة إلى ذلـك الكثـير مـما قيـل في ذمهـا، ولـن تعـدم الحسـناء ذامـا.

فقــد روى أن ذا النــون كان يقــول: مــن أراد أن يتعلــم الظــرف فعليــه بسـقاة المـاء ببغـداد، فلـما سـئل في ذلـك قـال: انـه حمـل إلى بغـداد ورمـى ببـاب السـلطان مقيـدا فمـر بـه رجـل متـزر بمنديـل مـصري معتـم بمنديـل دبيقـي، بيـده كيـزان خـزف رقـاق وزجـاج مخـروط فسـأل عنـه: أهـو سـاقي السـلطان فقيـل لـه بـل هـو سـاقي العامـة، فأومـا اليـه فسـقاه فشـم في الكـوز رائحــة مســك فلــما هــم بــأن يدفــع اليــه أبي وقــال «أنــت أســير وليـس مـن المـروءة أن آخـذ منـك شـيئا».

وقيـل إن بغـداد صـوّرت لملـك الـروم أرضهـا وأسـواقها وشـوارعها وقصورهـا ونهارهــا غربيهــا وشرقيهــا وجســورها فــكان ملــك الــروم إذا شرب دعــا بالصـور فيـشرب عـلى مثـال شـارع سـويقة نـصر.

وكان زلـزل الضـارب غلامـا لعيـسى بـن جعفـر فحفـر بركـة للسـبيل وأحاطهـا بالمغـاني الجميلـة حتـى قيـل فيهـا:

لـو أن زهيرا وامرأ القيس أيصرا

ملاحـة ما تحويه بركة زلزل

لما وصفا سلمى ولا أم سالم

ولا أكثرا ذكر الدخول فحومل

وكان بعض الصالحين إذا ذكرت عنده بغداد يتمثل:

قل لمن أظهر التنسك في النا

س وأمسى يعد في الزهاد

الزم الثغر والتواضع فيه

ليس بغداد منزل العباد

إن بغداد للملوك محل

ومناخ للقارئ الصياد

على أن التناقض في شأن بغداد بين الكتاب والشعراء هو ما نعثر عليه دائما في شأن المدن الكبيرة والذين رأوها في عظمتها ونالوا فيها بغيتهم وسروا بها مدحوها، وخالفهم في ذلك غيرهم، وليرجع من يحب إلى تاريخ بغداد وياقوت ليرى بنفسه صحة هذا الأمر.

وقد نقل البغدادي وصفا لما كانت عليه بغداد أيام المقتدر بالله، في أوائل القرن الرابع للهجرة، يوم أن زارها وفد ملك الروم، وقد استغرق ذلك ثلاث صفحات تبدأ في الصفحة المائة من الجزء الأول، فليرجع اليها من رغب في أن يعرف ما وصلت اليه ابهة الملك والخلافة في عصر هو من أنضج العصور في التاريخ العربي.

ولعـل خـير ما اختم به هذا الفصل هـذه الأبيات التي قالها الهمذاني:

فـدى لك يا بغداد كل قبيلة

مـن الأرض حتى خطتي ودياريا

فقـد طفت في شرق البلاد وغربها

وسـيرت رحلي بينها وركابيا

فلـم أر فيها مثل بغداد منزلا

ولم أر فيهـا مثل دجلة واديا

ولا مثل أهليها أرق شـمائلا

وأعـذب ألفاظا وأحلى معانيا

وكـم قائل لو كان ودك صادقا

لبغـداد لم ترحل فكان جوابيا

يقيـم الرجال الأغنياء بأرضهم

وترمـى النوى بالمقترين المراميا

٥ - حلم المأمون

روى أهـل السـير أن المأمـون رأى فيـما يـرى النائـم كأن رجـلا عـلى كـرسي جالسـا في المجلـس الـذي كان المأمـون فيـه فتعاظمـه وتهيبـه، ثـم سـأل عنـه فقيـل لـه هـر أرسـطو طاليـس فعـن لـه أن يسـأله، فتقـدم منـه وقـال (مـا الحسـن؟) فأجـاب مـا استحسـنته العقـول، فقـال المأمـون ثـم مـاذا؟

فأجاب وما استحسنته الشريعة فقال المأمون ثم ماذا فأجاب ما استحسنه الجمهور. فلما سأله ثم ماذا أجاب ثم لا ثم وأضاف الرواة إلى ذلك أن هذا هو الذي حدا بالمأمون إلى إخراج كتب الحكماء، ونقلها إلى اللسان العربي.

ونحن لا نستبعد الحلم، لكننا نرى أنه نتيجة لتفكير المأمون في الحكمة والعلم لا سبب لذلك. فإننا نعرف أن الأحلام التي تنتابنا في ليلنا الطويل إنما هي ما تبقى من آمال النهار وأمانيه أو مخاوفه، مما لم يتح له الفرصة الكافية لمناقشته أو تحقيقه، فيظهر لنا في أحلامنا، وقد يرضينا وقد يخيفنا لأن ذلك متوقف على ما قد يرافق الحلم من أعمالنا النهارية وتفكيرنا الواعي وغير الواعي.

وحلم المأمون يظهرنا على ما كان يشغل بال الخليفة العظيم من شؤون. فهو يحاول أن يدرك وجه الحكمة في نواح ثلاث من نواحي الحياة. يريد أن يتعرف حكم العقل والمعرفة وأثر العلوم في تسيير الإنسان وتوجيهه نحو الحسن والخير. وهو يريد أن يدرك أسرار الشريعة في تعيينها الخير والشر والحسن والقبح، وهو يريد أن يسعد شعبه تحت إشرافه، ويحاول أن يتبين خير السبل للوصول إلى ذلك. وهنا نستطيع أن نلمح في المأمون شخصية قوية، تنظر إلى الأمور نظرة شاملة عامة فاحصة، لتتقرى ما ينفع فتبقيه وتتعرف إلى ما يؤذى فتقصيه. وهذا هو سبيل الحاكم العادل القوي.

وإذا عرضنا للمأمون في صفحات معدودة، فلسنا نحاول أن نرسم صورة لحياته ولكننا نأمل أن نتعرف من هذا الحلم الذي رآه الخليفة إلى

النواحـي الفكريـة التـي عـرض لهـا المأمـون في مجالسـه العامـة والخاصـة. وليـس علينـا مـن ضـير أن نسـبق ذلـك بالإشـارة إلى مـا كان عليـه العباسـيون قبلـه مـن عنايـة بأهـل العلـم والأدب والفضـل والشـعر. فقـد كان المنصـور لـه مشـاركات في الفلسـفة والنجـوم وكانـت للرشـيد مجالـس أدبيـة لا يبـلى الحديـث عنهـا جدتهـا، وكان العـرب قبـل المأمـون قـد أخـذوا أنفسـهم بدراسـة الأدب الفـارسي والعلـم اليونـاني، بـل ونقلـوا بعـض نتاجـه إلى لغتهـم، فالمأمـون نشـأ في جـو مشـبع بالحيـاة الفكريـة، وترعـرع في بيئـة صالحـة. لكـن المأمـون ترجـع مكانتـه لا إلى أنـه اسـتمر في هـذا السـنن القويـم فحسـب، ولكـن إلى أنـه زاد في الحركـة أولا والى أنـه طبـع كل شيء بطابعـه الخـاص ثانيـا فكنـت تـرى أن شـخصيته تطغـى عـلى كل مـن حولـه، وتبعـث في كل شيء قبسـا منهـا يلهبـه فيشـتد أواره وتلمـع نـاره ويصيـب كلا منـه شرر. وهـذا سر اللعـان الفكـري في أيـام المأمـون.

فهـذا محمـد بـن أيـوب والى البـصرة في أيـام المأمـون يدعـو اليـه شـاعرا ظريفـا خبيثـا ماكـرا ويحملـه عـلى الذهـاب إلى المأمـون ويـزوده في سـبيل ذلـك بنجيـب فـاره ونفقـة سـابغة. خـرج الشـاعر إلى الشـام، وكان المأمـون هنالـك فبينـا هـو في غـزاة قـرة وهـو يـروم العسـكر إذا بكهـل عـلى بغـل فـاره فتلقـاه مكافحـة ومواجهـة وهـو يـردد أرجوزتـه؛ فحيـا فـرد الشـاعر التحيـة وتبـادلا كلامـا انتسـب فيـه الشـاعر وبـين قصـده. فقـال الكهـل بينـك وبـين أمـير المؤمنـين عـشرة آلاف رامـح ونابـل وأنـت قلـت إنـك تطمـع مـن الخليفـة بألـف دينـار فأنـا أعطيكهـا إن أنشـدتني شـعرك فوجدتـه حسـنا كـما تقـول. فقبـل الشـاعر وأنشـده:

مأمـون يا ذا المنن الشريفهْ

وصاحب المرتبة المنيفهْ

وقائـد الكتيبة الكثيفه

هـل لك في أرجوزة طريفه

أظـرف من فقه أبي حنيفه

لا والـذي أنت له خليفه

مـا ظلمت في أرضنا ضعيفه

أميرنا مُؤنته خفيفه

وما اجتبى شـيئًا سوى الوظيفه

فالذئب والنعجة في سـقيفه

واللـص والتاجر في قطيفه

فلـم يعـد أن أنشـده فـإذا زهـاء عـشرة آلاف فـارس قـد سـدوا الأفـق يقولـون السـلام عليـك يـا أمـير المؤمنـين ورحمـة اللـه وبركاتـه، فاضطـرب الشـاعر لكـن المأمـون هـدأ روعـه وأمـر خادمـه بإعطائـه مـا معـه، فـكان ثلاثـة آلاف دينـار.

وفى هـذه القصـة مـا يشـعرنا بهـذه الرغبـة التـي كانـت عنـده في التعـرف إلى الجمهـور دون ضجـة ولا زهـو. والقصـة كـما أوردتهـا مختـصرة لكـن الأصـل، وهـو طويـل، فيـه مـن تبـادل النـكات البارعـة مـا يـدل عـلى معرفـة المأمـون بـالأدب وأخبـار العـرب. ولكـن أدل مـن ذلـك عـلى طـول باعـه في

الشعر هذه القصة التي رواها عنه عمارة بن عقيل إذ قال إنه أنشد المأمون قصيدة مائة بيت فيبتدئ بصدر البيت فيبادره المأمون إلى قافيته كما قفاه. حتى قال له والله يا أمير المؤمنين ما سمعها مني أحد قط، فقال هكذا ينبغي أن يكون. وعن عمارة هذا أن عبد الله بن أبي السيط قال إنه أنشد المأمون بيتا فيه فلم يتحرك له، وكان عبد الله يقصد إلى اتهام المأمون بأنه لا يتحرك للشعر الجيد لأنه لا يفقهه. فسأله عمارة عنه فرواه:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا

بالدين، والناس بالدنيا مشاغيل

فقال عمارة والله ما صنعت شيئا. هل زدت على أن جعلته عجوزا في محرابها، فإذا من الذي يقوم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها، وهو المطوّق بها. فأدرك عبد الله خطأه.

وكان للمأمون شغف كبير بعقد مجالس الأدب والمناظرة. وكانت هذه المجالس تمتاز بأمور ثلاثة: أولها أنها مثل المأمون نفسه، كانت شاملة للشعر والنثر والعلم والشريعة والطب والغناء والمنادمة. وثانيها أنها كانت تقوم على أساس المساواة في المناظرة بين المأمون وجلسائه. وثالثها وهو في نظرنا أهم ما امتازت به أنها كانت توجيهية، فقد كان المأمون يتخير هذه الفرص للفت نظر أهل المعرفة إلى مسائل هامة يجب أن يعرضوا لها.

تذاكر المأمون وجلساؤه الشعر والشعراء فقالوا: النابغة وقالوا: الأعشى وخاضوا في غيرهما فقال المأمون: لا أشعرهم إلا واحدا الحسن بن

هانئ فقالوا: صدق أمير المؤمنين، فقال الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة. فصمتوا خجلا ثم سألوا وبماذا قدمته قال بقوله:

يا شقيق النفس من حكم

نمت عن ليلى ولم أنم

إلى قوله:

ثم دبت في عروقهم

كدبيب البرء في السقم

وقد روى أن المأمون لما دخل بغداد وقربها قراره، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته وكان يعقد في صدر نهاره على لبود في الشتاء، وعلى حصر في الصيف ليس معها شيء من سائر الفرش. واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل فما زال يختارهم، طبقة بعد طبقة، حتى حصل منهم عشرة بينهم يحيى بن أكثم وابن أبي دؤاد والمريسي والأنماطي. فتغدوا عنده يوما فوضع على المائدة ألوان من الطعام كثيرة جدا، فكلما وضع لون كان المأمون ينظر إليه فيخبرهم عن صلاحه أو ضرره، وعن ملاءمته لنوع من المتطيبين، حتى رفعت الموائد. فقال يحيى بن أكثم (يا أمير المؤمنين أن خضنا في الطب كنت جالنوس في معرفته، أو في النجوم كنت هرمس في حسابه، أو في الفقه كنت على بن أبي طالب، أو ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم في جوده فسر بذلك الكلام) وقال

(يـا أبـا محمـد إن الإنسـان إنمـا فضـل عـلى غـيره مـن الهـوام بفعلـه وعقلـه وتمييـزه ولـولا ذلـك لم يكـن لحـم أطيـب مـن لحـم، ولا دم أطيـب مـن دم)

ومـع مـا قـد يكـون في كلام يحيـى مـن مبالغـة فـلا شـك في أن فيـه شـيئا كثـيرا مـن الصـدق. وقـد نقـل الـرواة كثـيرا مـن الأخبـار التـي تـدل عـلى بداهـة المأمـون وسـعة علمـه، والقصـة التاليـة ترينـا ذلـك بوضـوح، روى أن رجـلا مـن أهـل خراسـان ارتـد عـن الإسـلام فحمـل إلى المأمـون فلـما مثـل بـين يديـه قـال لـه أخـبرني مـا الـذي أوحشـك مـما كنـت بـه آنسـا مـن ديننـا. فواللـه لأسـتحييك بحـق أحـب إلى مـن أن أقتلـك بحـق، وقـد صرت مسـلما بعـد أن كنـت كافـرا ثـم عـدت كافـرا بعـد أن كنـت مسـلما. فـإن وجـدت دواء دائـك تعالجـت بـه، إذ كان المريـض يحتاج إلى مشـاورة الأطباء. فـإن أخطـأك الشـفاء، ونبـا عـن دائـك الـدواء كنـت قـد أعـذرت ولم ترجـع عـلى نفسـك بلائمـة فـإن قتلنـاك بحكـم الشريعـة ترجـع أنـت في نفسـك إلى الاسـتبصار والثقـة، وتعلـم أنـك لم تقـصر في اجتهـاد ولم تـدع الأخـذ بالحـزم. قـال المرتـد (أوحشـني مـا رأيـت مـن كـثرة الاختـلاف في دينكـم) فقـال لـه المأمـون (إن لنـا اختلافـين أحدهـما كالاختـلاف في الأذان وتكبـير الجنائـز والاختـلاف في التشـهد وصـلاة الأعيـاد وتكبـير التشريـق ووجـوه القـراءات واختـلاف وجـوه الفتيـا، ومـا أشـبه ذلـك. ومـا هـذا باختـلاف إنمـا هـو تخيـير وتوسـعة وتخفيـف مـن المحنـة، فمـن أذن مثنـى وأقـام فـرادى لم يؤثـم مـن اذن مثنـى وأقـام مثنـى، لا يتعايـرون ولا يتعايبـون، أنـت تـرى ذلـك عيانـا وتشـهد عليـه بيانـا. والاختـلاف الآخـر كنحـو الاختـلاف في تأويـل آيـة مـن كتابنـا وتأويـل الحديـث، مـع إجماعنـا عـلى أصـل التنزيـل واتفاقنـا عـلى عـين الخـبر. فـان كان الـذي أوحشـك هـذا حتـى أنكـرت

كتابنا فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع ما في التوراة والإنجيل متفقا على تأويله كالاتفاق على تنزيله. وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في ألفاظها. ولو شاء الله أن ينزل كتبه، ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج إلى تفسير لفعل. ولكننا لا نرى شيئا من الدين والدنيا دفع لنا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل وليس على هذا بنى الله عز وجل الدنيا). فقال المرتد (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن المسيح عبده ورسوله وأن محمدا صلى الله عليه وسلم صادق وأنك أمير المؤمنين حقا). فانحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجدا ثم أقبل على أصحابه فقال. (وفروا عليه عرضه ولا تبروه في يومه ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوه أنه يسلم رغبة ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه).

أليس في هذه القصة ما يدلنا على بصر المأمون بأسرار الدين والشريعة وعلى فهمه لخلجات القلوب والنفوس. كل هذا مع سعة صدر ورحابة خلق يطمئن اليها مناظره الخراساني فيحسن إيمانه بعد أن يفهم المسألة فهما جيدا.

على أن صورة للمأمون، مهما كانت مقتضبة وسريعة، لا تتم إلا بالتحدث عن عنايته بالعلوم والفلسفة. وقد تكون هذه أغزر نواحي النشاط الفكري في شخص المأمون وفى الذين التفوا حوله. فقد كان في بغداد (بيت الحكمة) ولعل الذي أنشأه الرشيد أو حتى المنصور، ولكن تاريخ بيت الحكمة والخدمات العلمية التي أداها للفكر العربي

تخص المأمون وعصره. ذلك أن هذا الخليفة تعرف إلى ما كان عند اليونان من آثار عقلية، فاهتم بنقلها إلى اللغة العربية. وكانت بينه وبين ملك الروم في بيزنطية مراسلات، وكان المأمون قد استظهر عليه، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم فأجاب بعد امتناع، فأخرج المأمون جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. وثمة رواية تقول بأن المأمون كتب مثل ذلك إلى ملك صقلية، إذ طلب منه أن يرسل إليه ما عنده من ذخائر العلوم القديمة. على أن النقل لم يقتصر على علوم اليونان. بل تعداه إلى أدب الفرس وطب الهنود وعلومهم. وأصبح بيت الحكمة هذا دار ترجمة وتصحيح وتبويب وتنقيب، وكان ممن عمل فيه حنين بن اسحق وابنه اسحق ابن حنين وبنو شاكر. وقد بلغ مما رزقه النقلة خمسمائة دينار (٢٥٠ جنيه) في الشهر للنقل والملازمة. أما حنين بن اسحق فقد كان المأمون يعطيه فيما يحكى عنه، زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية ذهبا.

أما ما ترجم في عصر المأمون فقد شمل كتب أفلاطون وأرسطو في الفلسفة والعلم وكتب أبقراط وجالينوس في الطب وكتب أقليدس وأرخميدس في الرياضيات وكتب أطباء الهنود، وكتبا أدبية فارسية وهندية. وقد بلغت الكتب التي ترجمت بضع مئات.

على أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى أن الحركة العلمية لم تقتصر على الترجمة، بل أن المشتغلين بالعلوم بدأوا، منذ أيام المأمون، بالنسج

على منوال هؤلاء القدماء في السير بالعلم والمعرفة قدما. فان المأمون جمع عددا من العلماء قاسوا له طول درجة الطول، وصنفوا له كتبا بما في وصف الأرض ورسموا له الصورة المعروفة بالصورة المأمونية. هذا إلى المناقشة في قضايا الفلسفة ومشاكلها في مجالس المأمون ومجالس العلم الأخرى التي أدت إلى ظهور آراء جديدة في آفاق التفكير العلمي والديني كان لها فيما بعد شأن كبير.

ولعل خير ما أختم به هذا الحديث هو رأى السير وليم ميور في المأمون إذ قال: «كان حكم المأمون عادلا مجيدا، وكان عصره مزدهرا بأنواع: العلوم والفنون والفلسفة، وكان هو أديبا مولعا بالشعر متمكنا منه. وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة اذ كان يقربهم ويجزل لهم العطاء على اختلاف مذاهبهم ونحلهم. وكان جماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء كثيرين في أيامه. وقد أخرجت في عصره من أديرة سوريا وآسيا الصغرى كتب الفلسفة والعلوم ترجمت إلى العربية. ولم تقتصر جهود هؤلاء العلماء على نقل العلوم إلى اللغة العربية، بل توسعوا فيها وأضافوا اليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم. فقد كان لهم في سهل تدمر مرصد مجهز بجميع الآلات اللازمة لدرس الفلك والهندسة. وصنفوا كتبا في التاريخ والرحلات والطب والكيمياء والتنجيم».

وهذا هو حلم المأمون. أليس من حقنا بعد هذا أن تأمل بأن يكثر بيننا الحالمون بمثل هذا، على أن تتحقق أحلامهم كما تحقق حلم المأمون.

٦ - ملك وخليفة

في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد قامت دولة المماليك في مصر. قامت وقلب العالم العربي، العراق وسوريا ومصر، مهدد بخطرين: من الغرب ومن الشرق. فأوروبا كانت تستولى على الساحل السوري كله، وتطمع في مصر، وترنو بعينها إلى شمال أفريقيا. والتتار كانوا قد خرجوا من بلادهم كالموج الزاخر المتدافع، يتلو بعضه بعضا، فلا تقوى الهيئات في الشرق على ردّه؛ وقد خصصت له الواحدة تلو الأخرى فلا يلبث التتار أن يحتلوا بغداد، ويقضى على الخلافة العباسية ثم هم يهمون بسوريا لولا أن لطف الله، فأوقفوا. هذا إلى خطر آخر كان يهدّد البلاد من الداخل أساسه ما كان بين السلطات المختلفة والأمراء العديدين من تنابذ وتناحر وخصومة ونزاع.

في وسط هذه الصعوبات المختلفة تولى عرش مصر وسوريا الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري أحد كبار حكام العالم الاسلامي في العصور الوسطى المتأخرة. وكان الملك الظاهر قد اشترك في رد التتار في معركة عين جالوت أيام كان أحد قواد قطز، لكنه ما عتم أن أصبح السيد الأعلى لشؤون هذه البلاد. وكان الملك الظاهر يتأثر خطى صلاح الدين في سياسته العامة، وأساسها أمران الأوّل أن تكون سوريا ومصر موحدة سياسيا وحربيا واقتصاديا بحيث تكون كل مرافقها ومصادر ثروتها وقوتها تحت إشراف دولة واحدة ورجل واحد يستطيع توجيهها عند الحاجة في الوجهة الصحيحة ويستطيع، من ناحية أخرى، أن يأمن الخلافات المحلية بين الأمراء والمتآمرين. والأساس الثاني لسياسة

صلاح الدين والملك الظاهر هو أن يضرب القلاع الصليبية في سوريا من الداخل بانتظام واستمرار، بحيث يزيلها من الوجود الواحدة بعد الأخرى، وبذلك يتيسر القضاء على المحتلين وإخراجهم من البلاد. وكان على الملك الظاهر أن يقوم بالأمر الأول - أي توحيد البلاد، قبل أن ينصرف إلى مقارعة خصوم بلاده.

كانت غارة المغول على بغداد قبل تولى الملك الظاهر بسنتين، قد انتهت بقتل المستعصم بالله آخر خليفة عباسي وقتل ولديه معه، ومعنى هذا أن الخلافة انتهى شأنها. ولكن الخلافة رئاسة دينية، فضلا عن ناحيتها السياسية، ومن ثم فهي محببة إلى قلوب المسلمين، وليس يجوز أن يظل العالم الاسلامي بدون هذا الرأس الذي اعتاد أن يتلقى منه الهدى، قرونا طويلة. لذلك فكر كثيرون من الأمراء في إعادة الخلافة وكان صاحب حلب وصاحب دمشق وقطز ممن اهتم بالمسألة، وبحث عن أحد رجال البيت العباسي ليعيد الخلافة في شخصه

لكن الذي تم له هذا الأمر هو بيبرس. فقد رأى أنه من المفيد له أن يعيد الخلافة ثم يتولى هو السلطنة بعده من الخليفة وبذلك يقوى مركزه إذ يجعله شرعيا، ويمكنه هذا من التفوق على نظرائه معنويا، ويمهد ذلك سبيل القضاء عليهم. فضلا عن أن هذا العمل يجعل لمصر قيمة خاصة في تزعم العالم الاسلامي، ومصر هي مركز عرش بيبرس وغيره. لذلك انصرف الملك الظاهر نحو هذه المسألة يوليها من عنايته وتفكيره ما تستحقه.

وقد روى المقريزي في كتاب السلوك أنه في سنة تسع وخمسين وستمائة وردت على الملك الظاهر وهو بالقاهرة مكاتبة من دمشق جاء فيها (إنه ورد إلى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر بن الإمام الظاهر ابن الامام الناصر، وهو عم المستعصم، وأخو المستنصر، ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب الخمسين فارسا، وأن الأمير سيف الدين البغدادي عرف أمراء العرب المذكورين وقال بهؤلاء يحصل المقصود). ونرى من العبارة الأخيرة بأن الملك الظاهر ونوابه كانوا يبحثون عن أحد أفراد البيت العباسي بحثا دقيقا. وأبو القاسم أحمد هذا فر من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة بالله، ونزل عند خفاجة، من عرب العراق، مدة ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر بمصر. ويجدر بنا بهذه المناسبة أن نذكر أن مصر أصبحت مأمنا لكل من نجا العباسيين فيما بعد. فقد هبطها كثيرون، لأنهم ضمنوا لأنفسهم مقاما هادئا بعيدا عن جو الدسائس والانتقام، وأكثرهم لم يشترك في مكائد البلاط الملولى في تلك الأيام، على ما كان فيها من إغراء وإثارة أطماع.

فلما بلغ السلطان خبر قدوم أبي القاسم أحمد العباسي إلى دمشق كتب السلطان إلى نوابه بالقيام في خدمته وتعظيم حرمته وأن يسير معه حجاب من دمشق، بأوفر حرية إلى جهة مصر. وخرج السلطان من قلعة الجبل بالقاهرة يوم الخميس تاسع شهر رجب إلى المطرية بظاهر مصر للقائه، وكان في صحبته الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا وقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وسائر الأمراء وجميع العسكر و جمهور أعيان القاهرة ومصر ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين. وخرج النصارى بالإنجيل. وهناك استقبل الأمير العباسي استقبالا حافلا.

فـان الملـك الظاهـر لما وقـع نظـره عـلى الأمـير ترجـل وعانقـه. ثـم سـار بـه السـلطان إلى بـاب النـصر، ودخـل إلى القاهـرة وقـد لبـس الشـعار العبـاسي وخـرج النـاس إلى رؤيتـه وكان اليـوم مـن أعظـم أيـام القاهـرة. وشـق المدينـة وصعـد إلى قلعـة الجبـل وهـو راكـب. وكان تـصرف الملـك الظاهـر في كل حركاتـه يـدل عـلى مبلـغ احترامـه للرجـل الـذي اختـاره للخلافـة، وتقديسـه للمنصـب الـذى يشـغله. فانـه لما وصـل بـاب القلعـة أبى أن يتقـدم الامـام أحمـد. وأنـزل أبـو القاسـم في مـكان جليـل هيـئ لـه، وبالـغ السـلطان في إكرامـه وإقامـة ناموسـه.

وبعـد أيـام قليلـة عقـد السـلطان مجلسـا عامـا كبـيرا في قاعـة الأعمـدة في القـصر وحـضره قـاضي القضـاة ونـواب الحكـم وعلـماء البلـد وفقهاؤهـا وأكابـر المشـايخ وأعيـان الصوفيـة والأمـراء ومقدمـو العسـاكر والتجـار ووجـوه النـاس وحـضر أيضـا الشـيخ عـز الديـن بـن عبـد السـلام. فمثلـوا كلهـم بحـضرة الأمـير أحمـد العبـاسي وجلـس السـلطان متأدبـا معـه بغـير كـرسي ولا طراحـة ولا مسـند. ثـم شـهد العربـان وخـادم مـن البغـاددة بـأن الأمـير أحمـد هـو ابـن الامـام الظاهـر بـن الامـام النـاصر، ثـم شـهد القـاضي جـمال الديـن والفقيـه علـم الديـن وغيرهـما كثـيرون بمثـل ذلـك، فقبـل قـاضي القضـاة تـاج الديـن شـهادات القـوم وأسـجل عـلى نفسـه بالثبـوت وهـو قائـم عـلى قدميـه في ذلـك المحفـل العظيـم حتـى تـم الإسـجال والحكـم.

وكان أوّل مـن بايعـه قـاضي القضـاة تـاج الديـن. ثـم قـام السـلطان وبايـع أمـير المؤمنـين المسـتنصر باللـه أبـا القاسـم أحمـد عـلى العمـل بكتـاب اللـه

وسـنة رسـول اللـه وعـلى الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر والجهـاد في سـبيل اللـه وأخـذ أمـوال اللـه بحقهـا وصرفهـا في مسـتحقها. ثـم تتابـع عـلى مبايعتـه الأمـراء وكبـار رجـال الدولـة. فلـما تمـت البيعـة قلـد الخليفـة المسـتنصر باللـه السـلطان الملـك الظاهـر البـلاد الاسـلامية ومـا ينضـاف إليهـا ومـا سـيفتح اللـه عـلى يديـه مـن البـلاد. وكتـب في الوقـت نفسـه إلى الملـوك والنـواب بسـائر الممالـك أن يأخـذوا البيعـة عمـن قبلهـم للخليفـة المسـتنصر باللـه وأن يدعـى لـه عـلى المنابـر ثـم يدعـى للسـلطان بعـده وأن تنقـش السـكة باسـمهما.

ثـم عقـب ذلـك مـا يصـح أن نسـميه حفـلات التتويـج احتفـاء بمبايعـة الخليفـة

ففـي أول يـوم جمعـة تـلا المبايعـة صـلى الخليفـة بالنـاس في جامـع القلعـة وخطـب فـترضى عـن الصحابـة، وذكـر شرف بنـى العبـاس ودعـا للملـك الظاهـر فاستحسـن النـاس منـه ذلـك، واهتـم السـلطان بأمـره ونـثر عليـه جمـلا مسـتكثرة مـن الذهـب والفضـة

وبعـد يومـين ركـب الخليفـة والسـلطان مـن قلعـة الجبـل إلى مدينـة مـصر وركبـا في الحراريـق وسـارا في النيـل إلى قلعـة الجزيـرة وجلسـا فيهـا، وأحـضرت الشـواني الحربيـة فلعبـت في النيـل عـلى هيئـة محاربتهـا العـدو في البحـر. ثـم ركبـا إلى الـبر وعـادا إلى القلعـة وقـد خـرج النـاس لمشـاهدتهما فـكان مـن الأيـام المشـهودة.

وأراد السـلطان أن تتخـذ توليـة الخليفـة لـه شـكلا رسـميا، فأقـام لذلـك حفلـة جامعـة في يـوم الاثنـين الرابـع مـن شـهر شـعبان. فضربـت لذلـك

خيمـة كبـيرة في البسـتان الكبـير خـارج القاهـرة. وركـب إليهـا السـلطان ومعـه أهـل الدولـة. وحملـت الخلـع. فدخـل السـلطان إلى خيمـة أخـرى وأفيضـت عليـه الخلـع الخليفيـة وخـرج بهـا وهـي عمامـة سـوداء مذهبـة مزركشـة ودراعـة بنفسـجية اللـون وطـوق ذهـب وقيـد مـن ذهـب عمـل في رجليـه وعـدة سـيوف تقلـد منهـا واحـدا وحملـت البقيـة خلفـه ولـواءان منشـوران عـلى رأسـه وسـهمان كبـيران وتـرس. وقـدم لـه فـرس أشـهب في عنقـه مشـدة سـوداء، وطلـب الأمـراء، واحـداً بعـد واحـد، وخلـع عليهـم وعـلى قـاضي القضـاة تـاج الديـن. ونصـب منـبر وجلـل بثـوب حريـر أطلـس أصفـر، فصعـد عليـه ابـن لقـمان، صاحـب ديـوان الإنشـاء، وقـرأ تقليـد الخليفـة للسـلطان. ولمـا فـرغ مـن قراءتـه ركـب السـلطان بالخلعـة والطـوق الذهـب والقيـد الذهـب، وحمـل التقليـد الأمـير جـمال الديـن وسـار بـه بـين يـدي السـلطان وسـائر الأمـراء ومـن دونهـم مشـاة. ودخـل الجمـع مـن بـاب النـصر وشـق القاهـرة وقـد زينـت، وبسـط أكـثر الطـرق بثيـاب فاخـرة مـشى عليهـا فـرس السـلطان... وضـج الخلـق بالدعـاء بخلـود أيامـه وإعـزاز نـصره وأن يخلعهـما خلـع الـرضى. فـكان يومـا مشـهودا تقـصر الألسـنة عـن وصفـه.

ولمـا كان التقليـد الـذي أشرنـا إليـه يعطينـا صـورة صحيحـة للإنشـاء الرسـمي في ذلـك العـصر، ويظهـر العلاقـات بـين الخليفـة والسـلطان مـن الناحيـة الرسـمية ويوضـح واجبـات السـلطان في رعيتـه رأيـت أن أختـم هـذا الحديـث بمختـارات منـه. فقـد جـاء فيـه عـلى لسـان الخليفـة، مخاطبـا فيـه السـلطان

«أمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنه لولا اهتمامك لا تسع الخرق على الراقع. وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية، وما يتجدّد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى.

فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا؛ وخلص نفسك من التبعات اليوم ففي غد تكون مسئولا لا سائلا، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا، وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا. فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدم لنفسه زاد التقوى، فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة. وابسط يدك بالإحسان والعدل، فقد أمر الله بالعدل وحث على الاحسان، وكرر ذكره في مواضع من القرآن، وكفر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما، وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما. وما سلك أحد سبيل العدل إلا واجتنيت ثماره من أفنان، ورجع الأمر به بعد تداعى أركانه وهو مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث زمانه والسعيد من تحصن من حوادث الزمان، وكانت أيامه في الأيام أبهى من الأعياد وأحسن في العيون من الغرر في أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد.

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام، وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام. فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب

عليه تنقيبا، واجعل عليه في تصرفاته رقيبا. وسل عن أحواله ففي يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا. وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق، وألا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا، وأن يوسعوهم برا وإحسانا، وألا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان لهم حرمانا، والسعيد من نسج ولاته في الخير على منواله، واستنوا بسنته في تصرفاته وأحواله، وتحملوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله

«ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضا، وهو العمل الذي يرجع به مسود الصحائف مبيضا. وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم، وأعد لهم عنده المقام الكريم، وخصهم بالجنة التي لا لغو فيها ولا تأثيم. وقد تقدمت لك في الجهاد يد بيضاء أسرعت في سواد الحساد، وعرفت منك عزمة، هي أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد، وأشهى إلى القلوب من الأعياد.

«ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له الثغور، واحتفال يبدل ما دجي من ظلماتها بالنور. واجعل أمرها على الأمور مقدما، وشيد منها كل ما غادره العدو متهدما، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع. وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا، والعدو له ملتفتا ناظرا، لا سيما ثغور الديار المصرية، فان

العـدو وصـل إليهـا رابحـا وراح خـاسرا، واسـتأصلهم اللـه فيهـا حتـى مـا أقـال منهـم عائـرا.

«وكذلـك أمـر الأسـطول الـذي تزجـى خيلـه كالأهلـة، وركائبـه سـابقة بغـير سـائق مسـتقلة. وهــو أخــو الجيــش فــان ذلــك غــدت الريــاح لــه حاملــة، وهـذا تكفلـت بحملـه المياه السـائلة. وإذا لحظهـا جاريـة في البحـر كانـت كالأعـلام، وإذا شـبهها قـال هـذه ليـال تقلـع بالأيـام.

«وقـد سـنى اللـه لـك مـن السـعادة كل مطلـب، وأتـاك مـن أصالـة الـرأي، يريـك المغيـب، وبسـط بعـد القبـض منـك الأمـل، ونشـط بالسـعادة مـا كان مـن كسـل، وهـداك إلى مناهـج الحـق ومـا زلـت مهتديـا إليهـا، وألزمـك المراشـد، ولا تحتـاج إلى تنبيـه عليهـا. واللـه يمـدك بأسـباب نـصره، ويوزعـك شـكر نعمـه فـإن النعمـة سـتتم بشـكره»

وبمثـل هـذا التقليـد الرسـمي أصبـح موقـف الملـك الظاهـر قويـا شرعـا وغـدت القاهـرة مركـز الخلافـة بعـد أن فقـد العـرب بغـداد إلى حـين.

٧ - شاعر دمشقي

الأيـام التـي يجـب عـلى العـرب أن يذكروهـا ويحيوهـا كثـيرة، وليـس ذلـك غريبـا عـلى أمـة شـغل تاريخهـا القـرون الطـوال ولا يـزال يشـغل، وامتـد سـلطانها مـن الهنـد إلى المحيـط الاطلـسي. ولسـنا الآن بسـبيل تعدادهـا، ولكـن ثمـة عهـد يزهـو عـلى غـيره مـن العهـود ويـدل بمكانتـه: هـو عـصر صـلاح الديـن. ذلـك أنـه يمثـل في تاريـخ العـرب يقظـة بعـد فتـور وقومـة بعـد هجـوع، وائتلافـا بعـد انقسـام.

كانت أيام صلاح الدين وخليفته الملك العادل أياما غراء، تكاتف فيها الأمير والجندي والعامل والزارع والناثر والشاعر والعالم والمتعلم ليدفعوا أذى وقع عليهم ويقصوا مصيبة ألمت بهم أيام حاربوا الصليبين في سورية ومصر، وجاد كل في تلك الأيام بأعز ما لديه وأفرغ جعبته، فلم يضن بالروح أو المال أو الولد. ولذلك نجح الجميع. فلما تم لهم النصر احتفوا به واستمتعوا بخيراته، وجاء خلفاؤهم فأتموا عملهم.

ليس غريبا، والنفوس ثملة بخمر النصر والأرواح نشوى بالفوز الباهر والعقول تتفتق عن رائع إنتاجها ليس غريبا أن تكثر المدارس وينتشر التعليم ويزهو الشعر ويكتب التاريخ ويزدهر الفكر. ليس غريبا أن تعد في هذا العصر جماعة من خير من ظهر في آفاق الفكر العربي كابن خلكان وابن عساكر والنيسابوري والقاضي الفاضل وعماد الدين وابن عنين.

وابن عنين الشاعر هو الذي نريد أن نتحدّث عنه الآن. فهو من أهل القرن السادس للهجرة والقرن الثاني عشر للميلاد. ولد في دمشق وبها نبه شأنه وبها مات لكنه شرق في الآفاق وغرب، فأفاد من الرحلة كما أفاد من سماعه لكبار العلماء والمحدثين والنحويين والفقهاء وهو بعد يافع في دمشق.

تفتقت شاعريته وهو بعد فتى غصن الإهاب، ولعله رغب في أن يشق طريقه إلى المجد بسرعة فنال من أهل دمشق في هجو مرير، لكنه تناول في هجوه ما ثبت على الناس. إلا أن أولئك الذين آذاهم تربصوا

بـه حتـى أوغـروا صـدر صـلاح الديـن عليـه، لأنـه نـال حتـى السـلطان بجـارح كلامـه، فحنـق عليـه ونفـاه عـن دمشـق.

وهنـا تبـدأ رحـلات ابـن عنـين التـي تمتـد سـبع عـشرة سـنة يقضيهـا متنقـلا في الشـام والعـراق والجزيـرة وأذربيجـان وخراسـان وخـوارزم ومـا وراء النهـر والهنـد واليمـن ومـصر. وكانـت هـذه البـلاد قـد أظلهـا الاسـلام برايتـه وانتـشرت في أكثرهـا اللغـة العربيـة لغـة العلـم والأدب، فـكان ابـن عنـين يقـضى بعـض وقتـه في مـدح رجـال الدولـة فيهـا لينـال منهـم مـالا، ولكـن أكـثر وقتـه كان يصرفـه في مجالـس العلـماء والأدبـاء وصحبـة أولى الأمـر والشـأن، فنـال مـن ذلـك كلـه ثقافـة واسـعة ومشـاركة في الآداب رائعـة، كانـت لـه سـندا وعضـدا لمـا آن لـه أن يسـتوزر في اليمـن وفي الشـام.

ولعـل مـن أطـرف مـا حـدث لـه وهـو في رحلاتـه أنـه كان يحـضر يومـا درسـا للإمـام فخـر الـرازي، وكان اليـوم بـاردا والأرض يكسـوها الثلـج، فبيناهـم كذلـك إذا بحمامـة تدخـل المجلـس وخلفهـا طـير مـن الجـوارح يطاردهـا فتركهـا الجـارح لمـا رأى النـاس، فارتجـل ابـن عنـين قائـلا:

يا ابنَ الكِرامِ المُطعِمينَ إِذا شَـتَوا

في كُلِّ مَخمصَةٍ وَثَلجٍ خاشِـفِ

العاصِمـينَ إِذا النُفوسُ تَطايَرَت

بَينَ الصَوارِمِ وَالوَشـيجِ الراعِفِ

مَـن نَبَّأَ الوَرقاءَ أَنَّ مَحَلكُم

حَـرمٌ وَأَنَّكَ مَلجَأٌ لِلخائِفِ

وَفَـدَت عَلَيكَ وَقَد تَدانى حَتفُها

فَحَيوتها بِبَقائِها المُسـتَأنفِ

وَلَـو انَّها تُحبى بِمالٍ لانثَنَت

مِـن راحَتَيكَ بِنائِلٍ مُتَضاعفِ

جاءَت سُـلَيمانَ الزَمانِ بِشَكوِها

وَالمَـوتُ يُلمَعُ مِن جَناحي خاطِفِ

قَـرِمٌ لَواهُ القوتُ حَتّى ظِلُّهُ

بِإِزائِـهِ يَجري بِقَلبٍ واجِفِ

والأيـام التـي تمتـع فيهـا ابـن عنـين بعـز ومجـد، وهـو مغـترب عـن دمشـق، هـي الأيـام التـي قضاهـا في اليمـن عنـد طفتكـين وهـو أخ لصـلاح الديـن ولا اليمـن فنـزل ابـن عنـين عنـده ومدحـه وأعجـب الملـك بالشـاعر وعـرف قـدره فقلـده الـوزارة وعندهـا اسـتقر ابـن عنـين سـنوات يعمـل للملـك ويمدحـه وينـال مـن عطفـه وبـره حتـى تجمـع لـه مـال كثـير. ولكـن أمريـن كانـا يحـزان في نفسـه هـذه المـدة أولهـما أنـه لم يتمكـن مـن أن يمتـدح صـلاح الديـن بمناسـبة انتصـاره في معركـة حطـين وثانيهـما أنـه لا يسـتطيع العـودة إلى وطنـه: دمشـق. وقـد نظـم ابـن عنـين كثـيرا مـن الشـعر يتوجـع فيـه لدمشـق ويحـن إليهـا. ومـن ذلـك مـا قالـه وهـو باليمـن:

وَكَم قيلَ لي في سـاحَةِ الأَرضِ مَذهَبٌ

وَعَـن وَطَنٍ لِلنَفسِ مَيلٌ إلى وَطَن

وَهَـل نافِعي أَنَّ البِلادَ كَثيرَةٌ

أَطوفُ بِها وَالقَلبُ بِالشـامِ مُرتَهَن

وَمـا كُنتُ بِالراضي بِصَنعاءَ مَنزِلاً

وَلَـو نلتُ مِن غُمدانَ ملكَ ابنِ ذي يَزَن

عَـسى عطفَةٌ بَدرِيَّةٌ تَعكِسُ النَوى

فَأَلفـى قَريرَ العَينِ بِالأَهلِ وَالوَطَن

والمشـار إليـه هنـا في قولـه هـو صـلاح الديـن. ولكـن أدل مـن هـذا عـلى شـوقه إلى دمشـق قولـه:

دِمَشـقُ فَبي شَوقٌ إِلَيها مُبَرَّحٌ

وَإِن لَـجَّ واشٍ أَو أَلَحَّ عَذولُ

دِيـارٌ بِها الحَصباءُ دُرٌ وَتُربها

عَبيرٌ وَأَنفاسُ الشَـمالِ شَمولُ

تَسَلسَـلَ فيها ماؤُها وَهوَ مُطلقٌ

وَصَحَّ نَسـيمُ الرَوضِ وَهوَ عَليلُ

فَيـا حَبَّذا الرَوضُ الَّذي دونَ عزَّتا

سُـحَيراً إِذا هَبت عَلَيهِ قَبولُ

وَيـا حَبَّذا الوادي إِذا ما تَدَفَّقَت

جَداوِلُ باناسٍ إِلَيهِ تَسـيلُ

وَفي كَبِدي مِن قاسِيونَ حَزازَةٌ

تَزولُ رَواسيهِ وَلَيسَ تَزولُ

ولكن لا شوق ابن عنين وتحرقه ولا سعى أصحابه وذوي المكانة غير من قلب صلاح الدين فلم يسمح له السلطان بالعودة إلى دمشق وهو حي. فلما توفى صلاح الدين حزم ابن عنين أمتعته وجمع ماله، وهو كثير؛ واتجه نحو الشام بطريق مصر. وكان صاحب مصر ابن صلاح الدين فلما نزلها ابن عنين طلب منه أن يدفع زكاة أمواله. فقال يهجو عزيز مصر، مقابلا بينه وبين عزيز اليمن:

ما كُلُّ مَن يَتَسَمّى بِالعَزيزِ لَها

أَهلٌ وَلا كُلُّ بَرقٍ سُحبُهُ غَدِقَه

بَينَ العَزيزَينِ بَونٌ في فِعالِهِما

هَذاكَ يُعطي وَهَذا يَأخُذُ الصَدَقَه

ولم يبرح ابن عنين مصر إلى الشام إلا بعد أن تولى القطرين الملك العادل. عندها تقدم اليه ابن عنين بقصيدة مدحه فيها وذكر شوقه إلى دمشق وطلب العفو، ونال بها رضى الملك العادل وعاد إلى وطنه وأهله، واستمتع في دمشق بمنزلة رفيعة أيام العادل وأيام خلفه الملك المعظم عيسى.

عاد الشاعر وقد علمته أسفاره فوق ما علمته دروس النحو والفقه والأدب ومجالس العلماء، ورأى فيه الملك المعظم عيسى رجلا كامل الثقافة بعيد النظر عارفا بأمور الدنيا عالما بأصول الفقه والحديث

فاصطحبـه. وخادنـه حتـى أنـه زاره في بيتـه لما مـرض. ولم يلبـث حتـى اسـتوزره، وان كان ذلـك جـاء متأخـرا. وعندهـا نـال ابـن عنـين مـا كان يأملـه – فهـو وزيـر الملـك القـوى وشـاعر البـلاط الأول ويقيـم في دمشـق ويجـرى عليـه الـرزق سـهلا يسـيرا. وإذن فليمتـع نفسـه بعمـل الخـير وخدمـة مليكـه

ومـن أجمـل مـا قالـه ابـن عنـين في مـدح الملـك المعظـم قصيدتـان أنشـدهما لمناسـبة سـيره لمسـاعدة أخيـه في مـصر لإخـراج الصليبيـين مـن دميـاط فقـد جـاء في الأولى قولـه:

ومسـتخبر عني بغير جهالة

كشـف الغطا عنه وزال ارتيابه

وذكرتـه أيام دمياط بيننا

وبـين العدا والموت يهوى عقابه

وجيـش خلطناه رحاب صدوره

بجيـش من الأعداء غلب رقابه

تركناهـم في البر والبحر لحمة

تقاسمهم حيتانه وذئابه

وقال في الثانية:

سَـلوا صَهواتِ الخَيلِ يَومَ الوَغى عَنّا

إِذا جُهِلَـت آياتُنا وَالقَنا اللُدنا

غـداةَ لَقينا دونَ دِمياطَ جَحفَلاً

مِـنَ الرومِ لا يُحصى يَقيناً وَلا ظَنا

قَـد اِتَّفَقوا رَأياً وَعَزماً وَهِمَّةً

وَديناً وَإِن كانوا قَد اِختَلَفوا لُسـنا

فَما بَرِحَت سُـمرُ الرِماحِ تَنوشُهُم

بِأَطرافِها حَتّى اِسـتَجاروا بِنا مِنّا

لَقَـد صَبَروا صَبراً جَميلاً وَدافَعوا

طَويـلاً فَما أَجدى دِفاعٌ وَلا أَغنى

سَـقيناهُم كَأساً نَفَت عَنهُمُ الكَرى

وَكَيـفَ يَنامُ اللَيلَ مَن عَدِمَ الأَمنا

ويخـص في قصيدته المعظم عيسى بقوله:

لَعَمـرُكَ ما آياتُ عيسى خَفِيَّةٌ

هِيَ الشَـمسُ لِلأَقصى سَناءً وَلِلأَدنى

سَرى نَحوَ دِمياط بِكُلِّ سـمَيذَعٍ

نَجيـبٍ يَرى وِردَ الوَغى المَورِدَ الأَهنا

فَأَجـلى عُلوجَ الرومِ عَنها وَأُفرِحَت

قُلـوبُ رِجالٍ حالَفَت بَعدَها الحُزنا

لكـن ابـن عنـين لم يقتـصر في مديحـه عـلى المعظـم. فقـد كان معجبـا بملـوك الأيوبيـين لجهادهـم في سـبيل بـلاده و بلادهـم، فلـم يتأخـر عـن مـدح أحـد منهـم، فلـما دافـع الملـك الأشرف مـوسى عـن حلـب قـال فيـه قصيـدة رائعـة، منهـا:

أنـت الذي أجليت عن حلب العدى

وحميت بالسـمر اللدان الموصلا

كـم موقف ضنك فرجت مضيقه

وطريقه لخفائه قد أشـكلا

كـم يوم هول قد وردت، وطعمه

مـر المذاق كريه نار المصطلى

ومثـل ذلك يقال في غيرهم:

ويجـدر بنـا أن نشـير هنـا إلى أن المديـح الـذي يقـوم عـلى أعـمال مـن البطولـة، والـذي أساسـه اعـتراف الشـاعر بحـق الممـدوح عليـه مديـح جميـل. وابـن عنـين إذ ينظـم قصائـده في ملـوك الأيوبيـين إنمـا يعـبر عـن رأى النـاس في سـورية ومـصر. لأن الأيوبيـين رفعـوا عنهـم عاديـة الخطـوب فحـق لهـم أن يشـكروا ويمدحـوا ووجـب عـلى الشـعراء أن يتقدّمـوا إليهـم بمثـل هـذا الشـعر العاطفـي القـوي تخليـدا لمآثرهـم واعترافـا بفضلهـم.

عـلى أن شـعر ابـن عنـين لا يقتـصر عـلى مديـح الملـوك والتوجـع لدمشـق أثنـاء أسـفاره. بـل إنـه تنـاول، شـأن جميـع الشـعراء المعاصريـن لـه، فنـون

النظـم وأسـاليب القصيـد كلهـا، حتـى أنـه نظـم في الألغـاز، مـا دامـت الألغـاز شـيئا يجـوز قـول الشـعر فيـه:

وشـاعرنا يجيـد الوصـف والرثـاء والهجـاء. فمـن جيـد وصفـه قولـه في دمشـق:

أنَّى اتّجهت رأيت ماء سـائحا

متدفقـا أو يانعا متهدلا

وكأنَّما أطيارها وغصونها

نغـم القيان على عرائس تجتلى

وكأنمـا الجوزاء ألقت زهرها

فيها وأرسـلت المجرة جدولا

ويمر معتل النسـيم بروضها

فتخـال عطارا يحرق مندلا

وأمـا هجـاؤه ففيـه خفـة ومـرح، إلا إذا كان متألمـا مـن المهجـو فإنـه يكـون مؤلمـا. فمـن النـوع الأول قولـه في الملـك العـادل وكان قـد قطـع عنـه رزقـا:

إن سـلطاننا الذي نرتجيه

واسع المال ضيق الإنفاق

هو سـيف كما يقال، ولكن

قاطع للرسوم والأرزاق

ومن ذلك قوله في كمال أي طبيب عيون كان اسـمه الصباغ:

لَـو أَنَّ طُلّابَ المَطالِبِ عِندَهُم

عِلـمٌ بِأَنَّكَ لِلعُيونِ تُعَوَّرُ

لَأَتـوا إِلَيكَ بِكُلِّ ما أَمَّلتَهُ

مِنهُـم وَكانَ لَكَ الجَزاءُ الأَوفَرُ

وَدَعـوكَ بِالصَباغِ لَمّا أَن رَأَوا

يُعـشي العُيونَ لَدَيكَ ماءٌ أَصفَرُ

وَبِكَفِّـكَ المَيلُ الَّذي يَحكي عَصا

مـوسى وَكَم عَينٍ بِهِ تَتَفَجَّرُ

ومــن شــعره قصيــدة داعــب فيهــا صديقــا لــه أثنــاء إقامتــه في مــصر. وصديقـه هـذا هـو سـليمان بـن مـوسى المـصري. أهـدى سـليمان ابـن عنـين خروفـا هزيـلا،

فبعث إليه الشـاعر بأبيات، جـاء فيها وصفه للخروف بقوله:

أَتاني خَروفٌ ما شَـكَكتُ بِأَنَّهُ

حَليفُ هَوىً قَد شَـفَّهُ الهَجرُ وَالعَذلُ

إِذا قامَ في شَـمسِ الظَهيرَةِ خلتَهُ

خَيـالاً سَرى في ظُلمَةٍ ما لَهُ ظِلُّ

المدينة في الإسلام

•••

المدينة في الإسلام

إن العـرب قبـل الإسـلام غلبـت عليهـم البـداوة في جزيرتهـم. فكانـت حياتهـم أساسـها التنقـل انتجاعـا للمراعـي، وعمادهـا بيـت يسـهل تركـه، وخيـام تـضرب في المـكان أيامـا ثـم تحمـل إلى غـيره، ومـا أحسـن مـا وصـف رحيلهـم الحـارث بـن حلـزة إذ قـال:

أَجــمَعُوا أَمرَهُم عِشاءً فَلَمَّــا

أَصبَحُوا أَصبَحَت لَهُم ضَوْضَــاءُ

مِن مُنَــادٍ وَمِن مُجِيــبٍ وَمِــن

تَصهَالِ خَيلٍ خِلالَ ذَاكَ رُغَــاءُ

فـاذا اطمأنـت جماعـة منهـم إلى مـاء لا ينضـب لـه معـين، في قلـب القفـار الشاسـعة، وأرض تنبـت الحـب والنخيـل، وتغـذو الإبـل والشـياه، أقامـت الجماعـة فيـه إقامـة مـازج بداوتهـا شيء مـن الحضـارة، ورافـق الرعـي بعـض الصناعـة، واسـتقر القـوم في قريـة أو بلـد. وهـذه واحـات نجـد تقـوم شـاهدا عـلى مـا كانـت عليـه تلـك البـلاد قبـل الإسـلام.

وقـد تقـع إحـدى هـذه الواحـات في طريـق قافلـة تحمـل المتاجـر مـن صقـع إلى آخـر، فينشـد رجالهـا مـأوى في الواحـة ومطعـما، ويألـف التجـار النـزول فيهـا والاسـتقرار، ثـم يتخذونهـا سـوقا يتبادلـون فيهـا السـلع مـع غيرهـم، بـدل أن يقطعـوا جميعهـم المسـافات البعيـدة، فيصبـح المـكان مدينـة

كبـيرة، كـما كانـت مكـة قبـل الاسـلام. فقـد جعلهـا موقعهـا عـلى طريـق القوافـل بـين الشـام واليمـن سـوقا ومتجـرا يهـرع إليـه البائـع والشـاري فيصيـب كل طرفـا وتحفـا، ويحمـل إلى أهلـه وبلـده مـن غـلات الأقاليـم النائيـة مـا عـز وغـلا. بـل إن أهـل مكـة أنفسـهم أصبحـوا يحملـون المتاجـر التـي كانـوا ينقلونهـا مـن اليمـن والشـام. فمـع أن مكـة كانـت في واد غـير ذي زرع، فقـد كان لهـا مـن تجارتهـا مصـدر ثـروة كبـيرة، وكان سـكانها أصحـاب رحلـة الشـتاء إلى اليمـن والصيـف إلى الشـام وقـد ذكـر ذلـك في القـرآن الكريـم في قولـه تعـالى: «لِإِيـلافِ قُرَيْـشٍ إِيلافِهِـمْ رِحْلَـةَ الشِّـتَاءِ وَالصَّيْـفِ فَلْيَعْبُـدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْـتِ الَّـذِي أَطْعَمَهُـم مِّـن جُـوعٍ وَآمَنَهُـم مِّـنْ خَـوْفٍ». ونحـن نلمـح آثـار هـذه النعمـة فيهـم في وصـف قوافـل التجـار التـي كانـت تنتقـل بـين مكـة ودمشـق وصنعـاء، فـما كان أشـبهها بحمـلات كبـيرة يقـوم عـلى حمايتهـا جيـش مـن الأحبـاش المأجوريـن لذلـك. ومـا يحمـى جيـش إلا قافلـة عظيمـة الغنـى، كبـيرة المتجـر.

إلى هذيـن اللونـين مـن الحيـاة العربيـة قبـل الإسـلام - لـون البـداوة المحضـة والحيـاة التجاريـة المتركـزة حـول السـوق - يمكـن أن نضيـف حيـاة متحـضرة عـلى خـير مـا عـرف العـالم القديـم. حيـاة أساسـها اسـتغلال الأراضي في الزراعـة وجمـع المـاء خلـف السـدود لإروائهـا وتوسـيع مـدى عمـل الإنسـان فيهـا، واسـتثمار سـفوح الجبـال في زراعـة الفواكـه، بـل والتنقيـب عـن الـثروة المعدنيـة في باطـن الأرض. كل هـذه الأعـمال عنـوان حيـاة حضريـة قوامهـا سـكنى المـدن وتجمـع النـاس والتعـاون بينهـم، وتنظيـم العمـل، وتبـادل المنافـع والمرافـق. وهـذه صنعـاء ومـأرب وغيرهـما مـن مـدن اليمـن نشـهد

بـأن أهـل تلـك البـلاد كانـوا يعيشـون في المدينـة والقريـة، لا في الخيـام وبيـوت الشـعر. وهـذا سـد مـأرب هـو كـما قـال فيـه الشـاعر:

رُخـامٌ بَنَتهُ لَهُم حِميَرٌ

إِذا جـاءَهُ ماؤهُم لَم يَرِم

فَأَروى الزُروعَ وَأَعنابَها

عَلى سَـعَةٍ ماؤهُم إِذ قُسِم

وكانـت للعـرب قبـل الإسـلام مـدن أخـرى في مشـارف الشـام والعـراق كانـت لهـم البـتراء وبـصرى وتدمـر والحـيرة. مـدن قامـت حيـث مـرت طـرق القوافـل، فكانـت مراكـز للتجـارة، وكانـت فضـلا عـن ذلـك مراكـز المدنيـة. فثمـة الشـوارع الجميلـة والأعمـدة البديعـة النقـوش والهيـاكل الفخمـة. وهـذه المـدن التجاريـة اعتمـدت حياتهـا عـلى مـرور المتاجريـن منهـا، فلـما انقطـع سـيلهم لسـبب مـن الأسـباب أفـل نجـم المدينـة، وخربـت، ولم يبـق منهـا أو مـن بعضهـا عـلى الأقـل، إلا الأطـلال التـي تشـير إلى أيـام الـثروة والرخـاء.

هـذه نظـرة عامـة إلى ألـوان الحيـاة مـن حيـث تجمـع النـاس في بـلاد العـرب قبـل الإسـلام. فلـما نـزل الإسـلام بـين العـرب وغـير حياتهـم هـذا التغيـير الـذي نعرفـه، والـذي حملهـم مـن قفـار بـلاد العـرب إلى سـهول الهنـد وجبـال طـوروس وشـواطئ البحـر المتوسـط، وسـواحل المحيـط الأطلـسي، كان طبيعيـا أن يتغـير لـون حياتهـم، ونظـام معيشـتهم، وطـرق توزيـع السـكان. فقـد احتلـوا بـلادا كانـت للحيـاة الزراعيـة فيهـا قبلهـم دولـة،

وفتحـوا أقطـارا كانـت تجارتهـا راسـخة، ونزلـوا أصقاعـا ثبتـت صناعتهـا علـى غـير الزمـن، وكانـت المـدن فيهـا معروفـة مأهولـة، وحيـاة المدينـة عـماد تنظيمهـا السـياسي والاقتصـادي والاجتماعـي.

انتقـل العـرب إلى محيطهـم الجديـد، ونقلـوا معهـم مثلهـم العليـا الجديـدة التـي جـاء بهـا الإسـلام، ولغتهـم الحبـة الناضجـة التـي نـزل بهـا القـرآن، ونشـاطهم وحيويتهـم وعواطفهـم. ومزجـوا ذلـك بـأدب الفـرس وعلـم اليونـان وإدارة الرومـان، فخـرج للعـالم مـن كل ذلـك المدنيـة الإسـلامية العربيـة التـي انتـشرت بدورهـا مـن المـدن التـي عمرهـا العـرب.

وهـذه المـدن التـي ازدهـرت في العصـور العربيـة المختلفـة كان بعضهـا مـما بنتـه الأقـوام السـابقة، فسـكنه العـرب وأصلحـوه وإن كان قـد أهمـل أو تهـدم وبعضهـا مـما أنشـأه العـرب مـن جديـد وهـذا هـو النـوع الـذي أريـد أن أتحـدث عنـه وأنـا واثـق مـن أن المجـال لا يتسـع لهـذا البحـث كلـه، ولذلـك فإننـي أنـوي أن أعـرض للأمـر مـن نواحيـه العامـة.

جـاء بنـاء المـدن واختطـاط المنـازل في الدولـة العربيـة أمـرا طبيعيـا بعـد احتـلال المـدن وفتـح الأقطـار، فـما كان لهـم وهـم بـدو بعيـدون عـن حيـاة الـترف والدعـة، أن يفكـروا في المـدن والأمصـار. فلـما اضطـروا إلى إدارة البـلاد المفتوحـة، وعرفـوا منـازع الحضـارة عمـروا المـدن، وكانـوا كلـما أمعنـوا في الملـك والاسـتقرار انتـشرت مدنهـم واتسـعت. وقـد خضعـت المـدن التـي أنشـأتها الـدول لأغـراض سياسـية خاصـة لقاعـدة الخـراب مـع زوال الدولـة، أمـا المـدن التـي قامـت عـلى أسـس صحيحـة مـن حيـث الموقـع والمنـاخ

فقد عمرت طويلا، ولا يزال الكثير منها قائما إلى الآن كالبصرة وعينتاب وبغداد والقاهرة.

وكانت أقدم الأمم التي أنشأها العرب البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط. ونحن إذا استعرضنا هذه المدن وجدنا أن أصلها مراكز للجند، فقد كانت البصرة معسكرا للجند قبل بنائها مدينة بنحو ثلاث سنوات ثم اختطت المدينة لتكون مركزا للجند ولإدارة جنوب العراق المفتوح وأصبحت البصرة والأبلة فيما بعد مركزا تجاريا لمنطقة شط العرب. وبعد القادسية أمر عمر سعد بن أبي وقاص باتخاذ معسكر للجند في أواسط العراق المعسكر سنتين ثم بنيت الكوفة في موضعه بناها سعد بأمر عمر. ولما فتح العرب مصر واحتلوا الإسكندرية أراد عمرو بن العاص أن يتخذها عاصمة لمصر، فكتب إلى عمر، فلما عرف الخليفة أن النيل إذا امتلأ يفصل بينه وبين المسلمين، منع عمرا اتخاذها عاصمة. وأمر أن تكون الفسطاط عاصمة مصر، فكان ذلك أصل هذه المدينة. وكذلك فتح عقبة بن نافع شمال أفريقيا. واحتاج إلى مركز للعمليات الحربية. ودار للتمرين والسلاح ولمهاجمة البلاد الباقية، فبنى القيروان بالقرب من تونس الحالية، ولما ولى الحجاج إدارة العراق، وهدأ ثورته على الأمويين، أراد أن يتخذ له مركزا لإدارته ومقرا لجنده بحيث يكون بين البصرة والكوفة. وبحيث يبقى جنده الشامي بمعزل عن جند العراق وأهله، فبنى «واسط» بين المدينتين المذكورتين واتخذها مقرا لعسكره.

وبنـاء المدينـة والادارة والفتـح أمـر طبيعـي لأن الدفـاع عنهـا أسـهل مـن الدفـاع عـن المعسـكر المكشـوف في حالـة قيـام ثـورة. وقـد عـرض ابـن خلـدون لذلـك إذ قـال «إن القبائـل والعصائـب إذا حصـل لهـم الملـك اضطـروا إلى الاسـتيلاء عـلى الأمصـار. لدفـع مـا يتوقـع عـلى الملـك مـن أمـر المنازعـين والمشـاغبين... فيعتصـم صاحـب الأمـر في المـصر ويغالبهـم. ومغالبـة المـصر عـلى نهايـة مـن الصعوبـة والمشـقة. والمـصر يقـوم مقـام العسـاكر المتعـدّدة لمـا فيـه مـن الامتنـاع ونكايـة الحـرب مـن وراء الجـدران مـن غـير حاجـة إلى كثـير عـدد، ولا عظيـم شركـه «

وينطبـق هـذا القـول بشـكل خـاص عـلى نـوع مـن المـدن عنـى العـرب بـه في العصريـن الأمـوي والعبـاسي بشـكل خـاص. ذلـك أنهـم لمـا لم يتمكنـوا مـن التغلـب عـلى الدولـة البيزنطيـة واضطـروا إلى الوقـوف في جبـال طـوروس وأرمينيـة، عمـروا مدنـا كثـيرة كانـوا يسـمونها الثغـور أو العواصـم، كانـت أكبرهـا ملطيـة. وقـد كانـت الغايـة مـن هـذه أن يقيـم فيهـا الجنـد في فصل الشـتاء حتـى إذا بـدت طلائـع الصيـف قامـوا منهـا بحمـلات عسـكرية ضـد البيزنطيـين، وهـذه بقيـت معسـكرات. والحـق أن العـرب لم ينشـؤا هنـا مدنـا جديـدة لكنهـم عمـروا بلدانـا كان العـصر قـد أنـاخ عليهـا بكلكلـه فتهدمـت وعفـت آثارهـا.

ومـما يلفـت النظـر في حيـاة المدينـة في العـالم الاسـلامي أن كل دولـة قامـت اتخـذت لهـا عاصمـة جديـدة. فقـد كانـت المدينـة عاصمـة النبـي الكريـم وعاصمـة خلفائـه الراشـدين حتـى انتقـل عـلى إلى الكوفـة. فلـما قامـت دولـة الأمويـن اتخـذت دمشـق عاصمـة لهـا ودمشـق أقـدم مـن

الأمويين لكن دمشق العربية أموية المولد والنشأة، وهو الأمر الذي حافظت عليه دمشق إلى يوم الناس هذا. أما العباسيون فلم يتخذوا مدينة قديمة خاصة وإنما أنشأ المنصور بغداد لتكون عاصمة للفكرة الجديدة والخلافة الجديدة والملك الجديد. فكانت بغداد في اختيار مكانها وتخطيطها وسكانها ممثلة للحركة التي عرفها العالم الاسلامي على أيدي العباسيين. ومثل عمل العباسيين في العراق، عمل الفاطميين في مصر فقد كانت القيروان عاصمتهم حتى فتح جوهر مصر وبنى القاهرة عاصمة الدولة الجديدة ونحن لا ننكر أن المدينة الجديدة أقيمت على مقربة من عواصم مصر الاسلامية السابقة كالفسطاط والعسكر والقطائع، لكن بناء القاهرة كان إعلانا للناس بأن عهدا جديدا قد انبثق فجره في مصر. وهكذا كانت كل من بغداد والقاهرة حصنا للدولة التي قامت بإنشائها ورمزا لسياستها.

على أن إنشاء المدن وانتقال الناس اليها واستقرارهم فيها، وعنايتهم بالصناعة والتجارة أمر طبيعي متصل بنوازع الحضارة. ونمو الملك واتساعه فكلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر الأمن في ربوعها، وتقارب الناس في مصالحهم وتعاونوا في سبيل الجماعة، كان نشوء المدن أمرا ضروريا.

وعندها يتحتم على أولياء الأمر أن يتعهدوا هذه الحركة ويوجهوها توجيها صالحا يحول دون اضطراب الأمور فيها. وقد انتبه الأمراء والخلفاء إلى ذلك، فعنى سيف الدولة بالمدن في مملكته على نحو ما حدث في بنائه عينتاب واهتم الأمويون بقرطبة ووجه بنو الأحمر

عنايتهـم الى غرناطـة. كـما عنـى الخلفـاء ببنـاء المـدن التـي كانـت الغايـة فيهـا المتعـة والـسرور، مثـل سر مـن رأى (سـامراء) والمتوكليـة والزهـراء، والزاهـرة. وهـذه أشـبه شيء بالحدائـق الغنـاء، والقصـور الفسـيحة التـي تبنـى في العـالم المتمـدن اليـوم. وكان انشـاء هـذه المـدن في عـصر نمـت فيـه ثـروة العـالم الإسـلامي، وبلغـت حضارتـه الأوج، فأصبحـت مدنـه ومدارسـه يتعلـم فيهـا العـالم المعـروف عندئـذ.

والمـدن العربيـة التـي أنشـئت في صـدر الاسـلام تعـين موقعهـا بنسـبة الغايـة منهـا. فقـد كان عمـر يعنـى بصحـة جنـده ويحـب ألا يحـول بينـه مـاء، وعـلى هـذا الأسـاس بنيـت البـصرة والكوفـة والفسـطاط وقـد روى المؤرخـون أن نفـرا مـن جنـد العـراق وفـد عـلى عمـر، فـرأى اصفـرارا في وجوههـم، ولمـا عـرف أن الهـواء الفاسـد هـو السـبب أمـر أن يفتـش عـن مـكان نقـي الهـواء يتخـذ معسـكرا لهـم، فاتخـذ معسـكر الكوفـة، ثـم بنيـت المدينـة التـي تحمـل الاسـم نفسـه بعـد ذلـك بمـدة قصـيرة.

ونحـن إذ نـروى رغبـة عمـر في ألا يفصـل بينـه وبـين المسـلمين مـاء، نـود أن نلاحـظ أن كل المـدن التـي نشـأت في صـدر الاسـلام في العـراق كانـت غـربي الفـرات أو دجلـة، مثـل الكوفـة والبـصرة وواسـط. ونعتقـد أن ثمـة أمريـن يفسران هـذه الخطـة؛ أمـا الأول فالناحيـة الصحيـة وهـي التعـرض لهـواء الصحـراء الجـاف، وهـو الـذي يغلـب عـلى تلـك الأماكـن، فلـو كانـت المـدن شرقـي النهـر كان هواؤهـا رطبـا؛ أمـا الثـاني فهـو هـذه الطبيعـة البدويـة التـي كانـت ترشـد الفاتحـين والغـزاة والقـواد في ذلـك العـصر، وهـو أن يكونـوا عـلى آخـر حجـر مـن الصحـراء وأول مـدر مـن العـراق،

وهـذا الأمـر عـلى بسـاطته يسـهل عـلى البـدوي أن ينتقـل مـن خيمتـه الى المدينـة، وبذلـك تبقـى المدينـة عـلى اتصـال بـالأم التـي يـأتي منهـا، الحـين بعـد الحـين، مـدد مـن العنـصر النشـيط. فكانـت المدينـة هنـاك كـما يقـول ابـن خلـدون، لهـا ضـواح مـن الباديـة فيهـا مـادة يفيدهـا العمـران بـترادف السـاكن مـن بدوهـا. وبذلـك تعمـر المدينـة حتـى بعـد انقـراض الدولـة التـي أنشـأتها

أمـا تخطيـط المدينـة في الاسـلام فلـم يكـن لـه قواعـد موحـدة، ذلـك أن إنشـاءها كان يتأثـر بالمـدن الموجـودة في ذلـك الصقـع نفسـه؛ فالبـصرة مثـلا كانـت مقسـمة خمسـة أقسـام تسـمى بالأخـماس، نزلـت في كل خمـس منهـا قبيلـة، وجعلـوا عـرض شـارعها الأعظـم سـتين ذراعـا وهـو المربـد، وجعلـوا عـرض كل زقـاق سـبع أذرع، وجعلـوا وسـط كل خمـس رحبـة فسـيحة مربطـا للخيـول؛ وبنيـت بيوتهـا بالقصـب أولا ثـم خيـف الحريـق فبنيـت باللـبن، وأمـر الكوفـة يشـبه أمـر البـصرة.

وقـد مـر بنـا ذكـر الغايـة التـي مـن أجلهـا بنـي عقبـة بـن نافـع القـيروان، وكانـت طريقتـه أن اختـط بهـا المسـجد، ثـم دار الأمـارة، ثـم بيـوت الجنـد. وبنـاء المسـجد أمـر أسـاسي في كل بلـد بنـاه المسـلمون.

ويمثـل بنـاء بغـداد والقاهـرة درجـة خاصـة مـن العنايـة الفنيـة التـي سـمحت بهـا الأحـوال الخاصـة التـي أحاطـت بهاتـين المدينتـين. أمـا بغـداد فقـد عنـى المنصـور بنفسـه بأمرهـا. كانـت مسـتديرة يبلـغ قطرهـا نحـوا مـن ثلاثـة آلاف مـتر إذا اعتـبر سـورها الخارجـي حـدا لهـا؛ وقـد اختطـت بالرمـاد أولا، إذ وضعـت كل مـن القطـن مغموسـة بالنفـط عـلى الأرض

واحترقـت، ثـم حفـر الخنـدق الدائـري. وقسـمت أربعـة أقسـام متسـاوية، وجعلـت للمدينـة أربعـة أبـواب يبعـد الواحـد منهـا عـن الآخـر ربـع دائـرة تمامـا. وليـس مـن شـك في أن هـذه الخطـة كانـت أمـرا جديـدا في الاسـلام، ويعـز وبعـض المؤرخـين هـذه الفكـرة الى تأثـر المنصـور بفـن البنـاء الفـارسي. وكان المسـجد والقصـور في مركـز المدينـة. وقـد اسـتقدم المنصـور المهندسـين ومهـرة العـمال مـن أقطـار العـالم العـربي وعمـل في بنـاء بغـداد مائـة ألـف عامـل وتـم بناؤهـا سـنة ١٤٥ هــ.

أمـا القاهـرة فقـد وضـع جوهـر أساسـها في الليلـة التـي دخـل فيهـا القسـطاط (١٧ شـعبان ٣٥٨ - ١٧ تمـوز ٩٦٩) بنـى جوهـر قـصر الخليفـة وأقـام حولـه السـور، ثـم اختطـت القبائـل التـي كانـت مـع جوهـر خططـا وحـارات حـول هـذه المنطقـة. وجـاء بنـاء الأزهـر متأخـرا عـن بنـاء القاهـرة قليـلا، ذلـك أن جوهـرا رأى ألا يفاجـئ المصريـين بتغيـير في مذهبهـم السـني، فاكتفـى بمسـاجدهم حتـى اسـتوثق مـن قـوة جنـد الخليفـة الفاطمـي فبنـى الأزهـر، وبـدأ ينـشر الدعـوة الشـيعية.

ولسـنا نريـد أن نعـرض في هـذا الحديـث القصـير إلى المـدن التـي أختطهـا الخلفـاء والملـوك والأمـراء للـترف والبـذخ والـسرور، والتـي قامـت وقـد بلغـت الـدول الاسـلامية غايـة في الـثراء واتسـاع الرقعـة والنعيـم الحـضري، فقـد كان طبيعيـا أن تبلـغ مـن الجـمال والأناقـة مـا بلغتـه الزهـراء وغرناطـة

عـلى أنـه بتعـين علينـا أن نلقـى نظـرة عجـلى إلى السـكان الذيـن نزلـوا هـذه المـدن عنـد إنشـائها؛ ذلـك لأن هـذه المسـألة كبـيرة الأهميـة في توضيـح الكثـير مـن نواحـي النشـاط الفكـري والعقـلي والسـياسي بـل ومـن نواحـي

الخصومـات التـي عرفـت عـن كثـير مـن المـدن العربيـة والاسـلامية في عصورهـا المختلفـة. ونحـن نـرى أن الكوفـة والبـصرة والفسـطاط قـد سـكنها أول الأمـر الجنـد الذيـن عسـكروا فيهـا ومـن انضـم إليهـم مـن قبائلهـم؛ فكانـت البـصرة يسـكنها الأزد وتميـم بكـر وعبـد القيـس وأهـل العاليـة أي بطـون قريـش، ونـزل الفسـطاط بنـو يشـكر وبنـو الأزرق وغيرهـم ولما نـزل أهـل برقـة القاهـرة اختطـوا حـارة البرقيـة، وكان سـكان واسـط العـراق جنـد الحجـاج الشـامي، لكـن هـذا الحـال لم يـدم فسرعـان مـا هبـط البـصرة أتـراك نقلـوا إليهـا مـن بـلاد مـا وراء النهـر، كـما نقـل منهـم جماعـة إلى واسـط. ونحـن نعـرف أن سياسـة نقـل السـكان كانـت مـما يلجـأ إليـه في سـبيل القضـاء عـلى الفتنـة ولا بـد أن مـدن العـراق الجديـدة نالهـا منهـم نصيـب؛ وقـد كان سـكان سـامراء بـادئ ذي بـدء أتـراكا هـم جنـد المعتصـم وحرسـه.

وأكـثر مـا يكـون اختـلاط النـاس في المـدن التجاريـة. فالبـصرة والقـيروان مثـلا اختلـط فيهـا السـكان بحكـم الموقـع التجـاري، وإن كان الاختـلاط أكـثر في الأولى منـه في الثانيـة بسـبب قربهـا مـن البـلاد المختلفـة الاجنـاس. ويمثـل نمـو البـصرة نمـو المدينـة العربيـة التجاريـة، فقـد بلـغ عـدد سـكانها سـنة خمسـين للهجـرة، أي بعـد بنائهـا بجيـل واحـد، ثلاثمائـة ألـف. واتسـعت عمارتهـا في أيـام الأمويـين حتـى بلغـت مسـاحتها وضواحيهـا سـتة وثلاثـين ميـلا مربعـا ثـم زادت ثروتهـا في أيـام العباسـيين لاجتـماع التجـار فيهـا، وكانـت تجارتهـا تمتـد الى الهنـد والصـين واقـصى المغـرب والحبشـة. وقـد قـال ابـن حوقـل في وصـف متنزهاتهـا وهـي موصوفـة بالمجالـس الحسـنة، والمناظـر الأنيقـة؛ والميادیـن العجيبـة، والفواكـه البديعـة، والـبرك الفسـيحة،

لا تخلـو مـن المتنزهـين، ولا تعـرى مـن المتطرقـين، منحدريـن ومصعديـن «.
واشـتهر أهـل البـصرة بالأسـفار التجاريـة إلى كل الجهـات حتـى ضرب المثـل
بهـم فقيـل « أبعـد النـاس نجعـة في الكسـب بـصري وخـوزي، ومـن دخـل
فرعانـة (في الـشرق) والسـوس الأقـصى (في الغـرب) فـلا بـد أن يـرى فيهـا
بصريـا أو خوزيـا».

والفسـطاط، وهـي اليـوم آثـار دارسـة، كانـت إلى قبـل بنـاء القاهـرة عظيمـة
متسـعة، إذ لم تلبـث بعـد أيـام عمـرو بـن العـاص حتـى أصبـح فيهـا عـشرون
مـن الخطـط، ثـم اتسـعت حتـى بلـغ طولهـا عـلى ضفـاف النيـل ثلاثـة
أميـال. وقـد قـال فيهـا الشريـف العقيـلي:

أحن إلى الفســـطاط شـــوقًا وإننـي

لأدعـو لها ألا يحل بها القطر

وهـل في الحيا من حاجة لحياتها

وفي كــل قطر مــن جوانبــها نهر

تبــدت عروسًا والمقطـم تاجـها

ومن نيلها عقد كما انتظــم الـدر

ولسـنا نقصـد أن نتابـع نمـو المـدن الاسـلامية في عصورهـا المختلفـة، فهـذا
أمـر تضيـق عنـه الكتـب بلـه الحديـث المقتضـب. ولعـل فيـما أشرنـا إليـه
الكفايـة.

والمدينــة تمثــل في حيــاة الدولــة العربيــة المبكــرة دورا كبــير الأثــر مــن
الناحيــة القوميــة. فقــد كانــت عصبيــة عــرب الجاهليــة قبليــة محضــة،

فلـما جـاء الاسـلام صـارت حياتهـم أساسـها الديـن ومثلـه. واهتـم الأمويـون بالعصبيــة العربيــة القوميــة وبتعريــب الادارة، وكانــت اللغــة العربيــة قــد انتـشرت في كثـير مـن الأصقـاع خصوصـا في المـدن التـي بناهـا العـرب. ولمـا عمـر العـرب المـدن وسـكنوها حلـت عصبيـة المدينـة مـكان عصبيـة القبيلـة حتـى إننـا نـرى أبنـاء القبيلـة الواحـدة في البـصرة يقاتلـون اخوانهـم مـن نفـس القبيلـة في الكوفـة.

ففــي وقعــة الجمــل كانــت الحــرب بــين البــصرة والكوفــة، فلــما نشــب القتــال تصــدرت قبائــل اليمــن البصريــة لقبائــل اليمــن الكوفيــة، ونزلــت قبائـل مـضر إلى مـضر، وربيعـة إلى ربيعـة. وكذلـك في معركـة صفـين، وهـي بـين أهـل الشـام وعـلى رأسـهم معاويـة وبـين أهـل العـراق وقائدهـم عـلى، فلـما التحـم القتـال اسـتحث عـلى مـن معـه مـن القبائـل عـلى اخوانهـم في معسـكر عـدوه.

عـلى أنـه لمـا عنـى الأمويـون بالدولـة العربيـة عـلى أسـاس عروبـة اللغـة والنسـب والفكـر والأدب والشـعر، أصبحـت المـدن مراكـز لهـذه الحركـة القوميـة التـي لم يكتـب لهـا عمـر طويـل لأن الدولـة الأمويـة قضـت سريعـا. أمــا في زمــن العباســيين فقــد أصبحــت العواصــم والمــدن الكــبرى مركــزا للتعريــب الفكــري والعقــلي والعلمــي.

والمدينــة العربيــة، شــأن كل مدينــة في العــالم القديــم والحديــث، كانــت مركــز الحيــاة الفكريــة والاجتماعيــة والسياســية: منهــا قامــت المــدارس ونشـأت الجامعـات وعقـدت مجالـس الأدب والمناظـرة؛ وفي هـذه الحلقـات المختلفـة نضجـت الحيـاة العقليـة الاسـلامية العربيـة وأتـت ثمرهـا. ومـن

هـذه المـدن في العـراق وسـورية ومـصر وصقليـة والأندلـس انتـشرت الآراء والأفـكار التـي نقلـت أوروبـا مـن عقليـة القـرون الوسـطى الى النهضـة الحديثـة. هـذه هـي الخدمـة التـي قدمتهـا المدينـة العربيـة، وهـي شـبيهة بمـا قامـت بـه المدينـة اليونانيـة والرومانيـة للتمـدن

والفـرق بـين أثـر الحضـارة اليونانيـة والرومانيـة وأثـر الحضـارة الاسـلامية في بلادنـا هـو أن هـذه الحضـارة كانـت وسـيلتها اللغـة العربيـة التـي انتـشرت في المدينـة والريـف ولذلـك تركـت لنـا وحـدة روحيـة قوميـة لا سـبيل إلى التغلـب عليهـا.

في دور العلم الإسلاميّة

كانـت دار العلـم في مقدّمـة الأمـور التـي عنـى بهـا المسـلمون، وكان المسـجد أول مـكان اتخـذ لتعليـم القـرآن الكريـم والحديـث الشريـف، فـكان أول دار علـم في الاسـلام. والحديـث عـن دور العلـم في الاسـلام حديـث طريـف لا أطمـع في أكـثر مـن اجمالـه الآن. وكلى أمـل في أن أثـير رغبـة القـراء الكـرام الى تقـصى أخبـار هـذه المؤسسـات، لعلهـم يظفـرون ببعـض المتعـة التـي ظفـرت بهـا، وأنـا أقـرأ.

وليـس مـن السـهل أن يجمـل المـرء أخبـار المـدارس التـي انتـشرت، في مـدى سـتة قـرون أو أكـثر، مـن الهنـد الى البرانيـس، ومـن طـوروس الى عـدن، في مثـل هـذه الصفحـات القليلـة. هـذه المـدارس التـي كانـت منـارا يهتـدى بـه في ظلـمات الجهـل الحالكـة، التـي كانـت تكتنـف العـالم الخـارج عـن نطـاق الـدول الاسـلامية في القـرون الوسـطى.

بـدأت دور العلـم في الاسـلام في المـشرق، بالعناية بالقـرآن وعلـوم الشريعـة واللغـة. فلـما تعـرّف العـرب الى علـم اليونـان وفلسـفتهم ومنطقهـم نقلـوا عنهـم، وعربـوا مـا أخـذوه، فصـار جـزءا مـن حياتهـم الفكريـة؛ ان تعليـما وان كتابـة. فصـارت دور العلـم تعنـى بالرياضيـات والطـب والفلـك عنايتهـا باللغـة. فلـما طغـى الأتـراك وغيرهـم عـلى المـشرق، بعـد القـرن السـادس الهجـري، اتخـذوا مـن بعـض دور العلـم وسـيلة للدعايـة السياسـية والتقـرب مـن الجماهـير، فضعفـت الحيـاة العلميـة في دور العلـم، وغلـب عليهـا لـون مـن التعليـم الدينـي والسـياسي.

أمـا في الأندلـس، التـي تتعـرض لمثـل هـذا المؤثـر، فقـد بقيـت دور العلـم فيهـا مراكـز للبحـث العلمـي الخالـص الى آخـر عهـد العـرب في البـلاد، بـل قـد اسـتمرت التقاليـد العلميـة التـي أورثتهـا جامعـات تلـك البـلاد حيـة هنـاك قرونـا عديـدة، بعـد زوال الملـك العـربي.

وقـد تركـزت دور العلـم في عواصـم الاسـلام الكـبرى في بغـداد والقاهـرة وقرطبـة، وفى عواصـم الأقاليـم والدويـلات التـي نشـأت في ظـلال الخلافـة العباسـية مثـل نيسـابور ودمشـق والقـدس والقـيروان وغرناطـة وأشـبيلية.

كانـت علـوم الديـن واللغـة تشـمل بالإضافـة الى مـا يتبـادر الى الذهـن مبـاشرة، التشريـع والتاريـخ والمسـائل الماليـة، لأن كل هـذه كانـت جـزءا أساسـيا لازمـا لفهـم القـرآن الكريـم وأحكامـه في الإدارة والجزيـة والـزكاة. وكانـت العلـوم الأخـرى، التـي سـميت العلـوم المنقولـة، تشـمل الرياضيـات والطـب والفلـك. وهـذان العلـمان كانـا يدرسـان دراسـة علميـة عمليـة في البيمارسـتانات أي المستشـفيات والمراصـد.

كان المسجد أول دار للعلم كما قلنا قبلا. لكن ذلك لم يطل. فقد لوحظ أن المناقشة قد تؤدى الى الخروج عن الأدب الذي تجب مراعاته لبيت الله، فخرج الناس الى غيره لمثل هذه المحاولات. وكان ذلك في القرن الرابع الهجري. وفى زمن نظام الملك الوزير السلجوقي، أي في القرن الخامس الهجري، بنيت المدارس الرسمية. لكن قبل ذلك كان قد بنى الخلفاء والأمراء دورا للعلم والحكمة، كانت تحوي كل منها مكتبة تفتح لطلاب العلم وأهله، وبعضها يجرى فيها أرزاق على المشتغلين بالعلم، وبعضها كانت مراكز للنقل والترجمة، ونلاحظ أنه منذ أواخر القرن الرابع الهجري كان لكل جامع كبير مكتبة. وكانت هذه المكتبة تسمى (خزانة الحكمة). ثم زيد التعليم على هذه الخزائن. فمن ذلك ما روى ياقوت في الارشاد أن أبا القاسم الفقيه الموصلي، أسس دارا للعلم في بلده وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، ووقفها على طلاب العلم، فلم يمنع أحد من دخولها، وإذا جاءها غريب يطلب الأدب، وكان من المعسرين، أعطاه ورقا وورقا. وكان أبو القاسم نفسه يجلس فيها، ويجتمع اليه الناس فيملى عليهم شعره وشعر غيره وحكايات وطرفا من الفقه.

وتلا فترة خزائن الحكمة هذه عصر زهت فيه دور للعلم كانت مراكز للبحث. وفي مقدمتها بيت الحكمة البغدادي ودار العلم القاهرية. أما الأول فقد أنشأه الرشيد وعظم شأنه في زمن المأمون، ثم تضاءل بعده. وقد استخرج الدكتور خليل طوطح أن الفلسفة والعلم كانا الموضوعين الرئيسيين في برامج دروسه. على أن رسالة بيت الحكمة الأساسية كانت ترجمة الكتب اليونانية الى العربية على يد ابن ماسويه وابن إسحق.

وقد كان سلم خازن بيت الحكمة في زمن المأمون. وممن حاضر فيه الخوارزمي.

وأما دار العلم القاهرية فقد أنشئت في زمن الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ. وأمر فحملت اليها الكتب من خزائن القصور المعمورة، ودخل سائر الناس اليها يقرءون وينسخون، واقيم لها خزان وبوّابون ورتب فيها قوم يدرسون للناس العلوم وقد روى المقريزي أخبار دار العلم هذه، ومن طريف ما وصل إلينا على يديه ميزانيتها. فقد كان ينفق عليها مائتان وسبعة وخمسون دينارا (أي نحو مائة وثلاثين جنيها) في العام الواحد منها تسعون دينارا ثمن الورق وثمانية وأربعون دينارا أجرة الخازن وخمسة عشر دينارا للفراشين والباقي للحبر والأقلام ولمرمة الكتب والأستار ولطنافس الشتاء وثمن الماء.

أما المدارس التي عرفها الشرق الإسلامي فيما بعد فأهمها النظامية التي أنشأها نظام الملك السلجوقي وكان الغرض منها نشر المذهب الشافعي، ولذلك كان اتجاهها دينيا فقهيا قبل كل أمر آخر. وتمثل النظامية دورا جديدا في المدرسة الاسلامية من حيث اشراف الدولة عليها اشرافا تاما فقد كانت نفقاتها من الخزانة الرسمية كما كان اختيار أساتذتها ومدرسيها بيد الخليفة. ومن كبار من درّس فيها الغزالي وبهاء الدين صاحب كتاب المحاسن اليوسفية في حياة صلاح الدين الأيوبي

وقد زار ابن جبير المدرسة النظامية في القرن الخامس وترك لنا صورة طريفة للتدريس بها رأيت أن أنقلها لكم قال فأول من شاهدنا

مجلسـه منهـم (أي فقهـاء بغـداد) الشـيخ الإمـام رضي الديـن القزوينـي رئيـس الشـافعية وفقيـه المدرسـة النظاميـة والمشـار اليـه بالتقـدّم في العلـوم الأصوليـة. حضرنـا مجلسـه بالمدرسـة المذكـورة إثـر صـلاة العـصر مـن يـوم الجمعــة... فصعــد المنــبر وأخــذ القــراء أمامــه في القــراءة عــلى كــراسي موضوعـة، فتوقـوا وشـوقوا وأتـوا بتلاحـين معجبـة ونغـمات مطربـة... ثـم اندفـع الشـيخ الامـام المذكـور (القزوينـي) فخطـب خطبـة سـكون ووقـار وتـصرف في أفانـين مـن العلـوم مـن تفسـير كتـاب اللـه عـز وجـل وإيـراد حديـث رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم والتكلـم عـلى معانيـه. ثـم رشـفته شـآبيب مـن المسـائل مـن كل جانـب فأجـاب ومـا قـصر، وتقـدم ومـا تأخـر، ودفعـت اليـه عـدة رقـاع فيهـا فجمعهـا جملـة في يـده وجعـل يجـاوب عـلى كل واحـدة منهـا وينبـذ بهـا الى أن فـرغ منهـا وحـان المسـاء فنـزل وافـترق الجمـع.

فـكان مجلسـه مجلـس علـم ووعـظ. وحـضر ابـن جبـير مجلسـه يـوم الجمعـة التـالي والـذي يخيـل الينـا أن هـذا المجلـس، الـذي كان أسـبوعيا، لم يكـن يقصـد بـه طلبـة العلـم النظاميـون، بـل كان مـن نـوع المحـاضرات العامـة والمناقشـات التـي تقـوم بهـا الجامعـات الآن رغبـة في تيسـير العلـم للجمهـور. والظاهـر أن مثـل هـذه المجالـس كان شـائعا في المـدارس الكـبرى، فضـلا عـن الـدروس التـي كان الطـلاب يتلقونهـا بانتظـام.

وفي السـنة ٦٣١هــ (١٢٣٤م) أنشـأ الخليفـة العباسي المسـتنصر بالله المدرسـة التـي عرفـت باسـمه. وقـد تـرك لنـا الرحالـون المؤرخـون أخبـار المسـتنصرية فحصلنـا لهـا عـلى صـورة تـكاد تكـون تامـة. فقـد فاقـت كل مـا سـبقها مـن

حيث فخامة البناء وسعته، وجمال التأسيس وأناقته، وكان فيهما أربعة أروقة كبيرة كل واحد منها خاص بواحد من المذاهب السنية الأربعة. ولكل فقيه خاص يرأسه.. كان عدد طلابها ثلاثمائة موزعين بالتساوي على الأروقة الأربعة، كلهم كانوا يتلقون العلم بالمجان، ويعطى لكل طالب دينار واحد بالشهر نفق منه على شؤونه. أما الطعام فكان يتناوله الجميع من مطبخ المدرسة الكبير. لكن العناية بالطلاب لم تقتصر على الأكل والمسكن بل كانت الأقلام والمحابر والأوراق والمصابيح تقدم لهم، وكان في المدرسة مكان تحفظ فيه المياه الباردة للشرب. أضف الى كل هذا الحمام الذي كان مفتوحا للطلبة والمستشفى التابع للمدرسة لمعالجة المرضى منهم، وكان له طبيب خاص

والظاهر أن المدرسة المستنصرية سلمت من يد هولاكو لما احتل بغداد ودمرها سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨ م). فقد رآها ابن بطوطة بعد ذلك بنحو مائة عام ووصفها بقوله «وفى آخر سوق الثلاثاء المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله... وبها لكل مذهب إيوان... (ويكون) جلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد عليه المدرّس وعليه السكينة والوقار. لابسا ثياب السواد معتما وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة ”

ويقول ابن الفرات: أن كل أنواع الكتب المختلفة كانت موجودة في مكتبة المدرسة المستنصرية.

وكان للقاهـرة نصيـب في حفـظ الـتراث العلمـي العـربي الاسـلامي مثـل نصيـب بغـداد. إن لم يـزد عليـه. فقـد كان هنـا الأزهـر، أقـدم جامعـات العـالم الموجـودة الآن. أنشـئ الأزهـر سـنة (٣٧٨هـ) (٩٧٢م) لنـشر الدعـوة الشـيعية. لكنـه لم يلبـث بعـد زوال الخلافـة الفاطميـة، أن أصبـح مركـزا للدراسـات الفقهيـة واللغويـة فيـه أربـع مـدارس لـكل مـن المذاهـب الأربعـة واحـدة. ومـع أن الأزهـر معـروف عنـه أنـه جامعـة دينيـة قبـل كل شيء، فعندنـا روايـة عـن عبـد اللطيـف البغـدادي أنـه حـاضر في الطـب في الأزهـر في القـرن السـابع الهجـري.

وقـد ازدهـرت دور العلـم في الأندلـس في عهـد العـرب، فقـد كانـت مكتبـة صاحـب الأندلـس في القـرن الرابـع الهجـري يتألـف فهرسـها مـن أربـع وأربعـين كراسـة، في كل منهـا عـشرون ورقـة ولم يكـن بهـا سـوى أسـماء الكتـب. ومـع أننـا لا نعـرف إلا الـشيء اليسـير عـن جامعـة قرطبـة التـي بلغـت شـأوها في زمـن عبـد الرحمـن النـاصر والحكـم، فهـذا اليسـير الـذي وصـل إلينـا يدلنـا عـلى الـدور الـذي لعبتـه في توجيـه الحيـاة الفكريـة في الأندلـس، وتهيئـة الجـو العلمـي للترجمـة مـن اللغـة العربيـة الى اللغـات الأوروبيـة التـي تمـت في إسـبانيا في القـرون التـي تلـت ذلـك. وكان طلابهـا يعـدون بـالآلاف ويفـدون اليهـا مـن إفريقيـا وإسـبانيا وبقيـة أوروبـا. ولم يقتـصر التعليـم فيهـا عـلى العلـوم الدينيـة واللغويـة، بـل تنـاول مواضيـع الطـب والرياضيـات والفلسـفة، وفروعـا أخـرى مـن العلـم. وكان مـن كبـار أسـاتذتها أبـو بكـر بـن معاويـة والقـالي صاحـب الأمـالي وابـن القوطيـة.

وقـد أنشـئت جامعـة أخـرى كبـيرة في غرناطـة في أواسـط القـرن الثامـن الهجـري وكان يوسـف النـاصري أوّل مـن درّس بهـا.

ومـن طريـف أخبـار دور العلـم في إسـبانيا مـا وصـل الينـا عـن جامعـة أشـبيلة التـي أنشـأها ليـون الحكيـم في القـرن الثالـث عـشر الميـلادي. فقـد بنـى مدرسـة وعـين رئيسـا لهـا أبـا بكـر الريقـوتي مـن أعلـم أهـل زمانـه، فـكان يحـاضر طلابـه في أرض مملكـة قشـتالة الاسـبانية في جميـع أنـواع العلـوم باللغـة العربيـة. وهـذه المدرسـة ظهـرت فيهـا أول جماعـة مـن التراجمـة الذيـن نقلـوا مـن العربيـة الى اللاتينيـة وغيرهـا علـوم أهـل الأندلـس وخصوصـا الفلـك. فهـذه الجامعـة العربيـة اللاتينيـة كانـت حجـرا أساسـيا في نـشر الحركـة العلميـة في اسـبانيا ومـن ثـم في أوروبـا.

ودور العلـم الإسـلامية كانـت في الغالـب غنيـة لأن بانيهـا كان يقـف عليهـا الأرض أو العقـار أو جـزءا مـن ضريبـة المدينـة، فقـد كانـت حصـن الأكـراد في لبنـان موقوفـا دخلهـا عـلى المـدارس.

وقـد حفـظ لنـا المؤرخـون أخبـار دور العلـم والمـدارس ونحـن إذا ضممنـا مـا ذكـروه الى بعضـه البعـض وجدنـا أنهـا قاربـت الأربعمائـة عـددا. فقـد كان في القـدس مثـلا أربـع وأربعـون مدرسـة، وفي بغـداد أربعـون وتجـاوزت مـدارس دمشـق المائـة. وقـد كان في دمشـق في القـرن السـادس الهجـري مثـلا ثـلاث مـدارس فنيـة اثنتـان للطـب وواحـدة للهندسـة وكان في حلـب مدرسـة للطـب.

وكانـت المـدارس الحكوميـة تعطـى فيهـا للأسـاتذة مرتبـات ثابتـة، لكـن بعـض العلـماء كان يرفـض أخـذ الأجـر ثمنـا للتعليـم، فقـد امتنـع النـووي في القـرن الثامـن أن يأخـذ رزقـا لتدريسـه في المدرسـة الأشرفيـة. وكان بعـض العلـماء يـورق ويـأكل مـن كسـب يـده. إلا أن التعليـم صـار عـلى تـوالى الأيـام مهنـة يعيـش منهـا المشـتغلون بهـا. وقـد أورد الجاحـظ أن النحـوي العـروضي كان يكتفـى بسـتين درهـما أجـرة للتعليـم في الشـهر. أمـا مؤدبـو الأمـراء فلـم يرضـوا بأقـل مـن ألـف درهـم كيحيـى بـن ثعلـب. وكان قائـد لعبـد اللـه بـن طاهـر مـؤدب رزقـه في الشـهر سـبعون دينـارا، وذلـك في القـرن الثالـث الهجـري. وكان ابـن دريـد في القـرن الرابـع الهجـري يتنـاول أربعـين دينـارا في الشـهر.

الأسواق الإسلامية

الأسـواق، بمـا يعـرض فيهـا مـن سـلع، وبمـن يؤمهـا مـن متاجريـن؛ تصـف الدرجـة التـي وصلـت إليهـا التجـارة خاصـة والحيـاة الاقتصاديـة عامـة. فـاذا رافـق الاتجـار لـون مـن ألـوان الأدب، واحتفـال بالمواسـم الدينيـة، كانـت الأسـواق صـورة للحيـاة العقليـة والاجتماعيـة كذلـك. وكلـما تعـدّدت الأسـواق، وازداد مـا يعـرض فيهـا وكـثر التبـادل فيهـا دل ذلـك عـلى وجـود النشـاط في حيـاة الجماعـات، وركـود الأسـواق عـلى العكـس مـن ذلـك دليـل عـلى اضطـراب شـؤون المعـاش والأحـوال الماليـة وغيرهـا في الدولـة.

وإذا عرضنـا الأمـم والشـعوب وجدنـا أن البـدوي منهـا لـه أسـواق موسـمية تقـام في أماكـن معينـة، مـرة في السـنة أو الفصـل أو الشـهر أو الأسـبوع. والسـنوي أو الفصـلي منهـا أعـم وأشـبع لارتباطـه بالإنتـاج الزراعـي

والحيـواني. أمـا الجماعـات الحضريـة فتغلـب عليهـا الأسـواق الثابتـة، لأن لـكل مدينـة أسـواقها تبـاع فيهـا مصنوعاتهـا وغلاتهـا وتحمـل إليهـا مـا تحتـاج إليـه مـما تنتجـه البـلاد الأخـرى.

كان العـرب في الجاهليـة تغلـب عـلى تجارتهـم الأسـواق الموسـمية وكانـت تقـوم في ملتقـى الطـرق التجاريـة الكـبرى فيفـد إليهـا النـاس مـن أطـراف الجزيـرة مثـل عـكاظ ودومـة الجنـدل، وقـد يأتيهـا قـوم مـن الخـارج مثـل أسـواق عـدن وصنعـاء.

ولم تكـن أسـواق العـرب في الجاهليـة تقتـصر عـلى التجـارة، بـل كان يقصدها طالـب الأمـن يسـتجير، ويؤمهـا طالـب الفـداء يحمـل فـداء أسـيره فيفكـه، وقـد عقـد الصلـح غـير مـرة بـين المتخاصمـين في الأسـواق. لكـن المزيـة التـي اختـص بهـا كثـير مـن أسـواق العـرب الحوليـة الكبـيرة، هـي كونهـا سـوقا أدبيـة. فقـد كان الشـعراء يتناشـدون فيهـا شـعرهم، متنافسـين متنافريـن وكانـت قبائـل العـرب تحتفـل بالشـاعر الفائـز احتفـالا كبـيرا

وقـد وصلـت إلينـا أخبـار كثـيرة عـن هـذه الأسـواق وأيامهـا، وعـما كان يـدور فيهـا مـن المفاخـرة والمعاظمـة والمنافـرة، وعمـن كان يقصدهـا مـن الماجنـين والمتماجنـين، وهـذه الأخبـار ثـروة أدبيـة في قراءتهـا متعـة ولـذة. وعـكاظ أشـهر الأسـواق التـي حفـظ لنـا التاريـخ والأدب أخبارهـا ولا ريـب في أنهـا كانـت أكـبر الأسـواق التـي وصلـت إلينـا أنباؤهـا وهـي تـربى عـلى عشريـن. فقـد كانـت مـع تجارتهـا الواسـعة مجتمعـا أدبيـا لـه محكمـون تـضرب لهـم القبـاب ويتناشـد الشـعراء بـين أيديهـم وحكمهـم لا يحتمـل تجريحـا بـل ثمـة مـن كان يـأتي عـكاظ ببناتـه بقصـد تزويجهـن وفيهـا كان

الرجل يستلحق آخر بنسبه، أو يتبرأ منه. ويلي عكاظ في المقام المجنة وذو المجاز. وهذه الأسواق الثلاث كانت تقام في موسم الحج.

أما بعد الاسلام، وبعد الفتوح التي مكنت العرب من أقطار من الأرض غنية واسعة فقد كفوا مؤونة الترحال، ومصروا الأمصار وسكنوا المدن، فصار لهم في الأسواق الثابتة غنى عن الأسواق الموسمية. لكن الذي نود أن نوجه النظر إليه هو أن بعض الأماكن القريبة من منازل البداوة بقيت لها نزعة بدوية؛ فكانت تقام في نواحيها الأسواق التي يؤمها أهل الترحال المستمر، يبيعون فيها ويشترون، شأن سوق المربد في البصرة، وأسواق بزاعة الى الشرق من حلب، وسوق زاوية ابن أدهم في جبله. والسوقان الأخيرتان روى خبرهما المتأخرون من الرحالين العرب. فالأول ذكره ابن جبير، والثاني حدثنا عنه ابن بطوطة.

والمربد سوق البصرة؛ أنشئ لما مصرت في زمن عمر بن الخطاب. والأصل فيه أنه متسع للإبل تعرض فيه للبيع، واتسعت تجارته في عهد الراشدين فشملت السلاح والثمر، وصار مركزا للدباغين. ثم أصبح على عهد الأمويين سوقا عامة تتخذ فيها المجالس، وتتعدد الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز، ويؤمها الأشراف، فيتناشدون ويتهاجون ويتشاجرون المربد الى التجارة الأدب والسياسة. فقد نزلت فيه عائشة وهكذا جمع أم المؤمنين بعد مقتل عثمان تطالب بدمه وتؤلب الناس على عليّ. وكان والى البصرة لعلى ينقض قولها، حتى وقعت بين الفريقين معركة بالحجارة، تضرر منها كثيرون. وفى المربد تهاجى جرير والأخطل والفرزدق. أما في العصر العباسي فكان المربد مدرسة يقصدها

الشعراء كبشار وأبي نواس ليأخذوا عن أعرابه الملكة الشعرية، وكان يؤمه اللغويون، يأخذون عن أهله ويدوّنون ما يسمعون. لكن هذه السوق كانت فذة في الإسلام.

فلسنا نعرف لها شبيها. ولا شك أن موقع البصرة، على أوّل مدر من العراق وآخر حجر من الصحراء، كان له تأثير كبير في طبعها بهذا الطابع الخاص.

أما أسواق المدن الثابتة، فقد كانت تتأثر في شكلها وتنظيمها وتنسيقها، وموقعها وسلعها وأعمالها بالإقليم والمدينة، والمكان الذي تحتله الأسواق من المدينة كان يتوقف على عوامل كثيرة، فدمشق وحلب، وهما من المدن القديمة، بقيت أسواقهما حيث كانت قبلا. ولما بنى أبو جعفر المنصور بغداد صير الأسواق في طاقات مدينته من كل جانب، فلما قدم عليه وفد ملك الروم أمر أن يطاف بهم في المدينة، ثم دعاهم، وسألهم كيف وجدوها، فقال رئيسهم «رأيت أمرها كاملا إلا في خلة واحدة، فان عدوّك يخترقها متى يشاء وأنت لا تعلم، لأن الأسواق فيها، وهذه غير ممنوع عنها أحد «.

فزعموا أن المنصور أمر عندها بإخراج الأسواق إلى الكرخ، وكانت الدكاكين في أسواق مصر وغرب آسيا تمتد على طول الشارع من الجانبين، على كل جانب صف منها. وكانت أسواق حماة أيام أن زارها ابن جبير حسنة التنظيم، بديعة الترتيب والتقسيم. أما في المدن الإيرانية فكانت الأسواق الجزء التجاري المنفصل عن المدينة الرسمية وعن القلعة. ولذلك جمعت الدكاكين في مكان واحد.

وبنـى عضـد الدولـة أسـواقا عنـد مدينـة جامـع رام هـر مـن غايـة في الحســن، كانــت نظيفــة مبلطــة مبربقــة مظللــة.

والغالـب عـلى الأسـواق أن تسـقف وتظلـل. فقـد روى ابـن جبـير أن أسـواق منبـج فسـيحة، وسـككها متسـعة، ودكاكينهـا وحوانيتهـا كأنهـا الخانـات والمخـازن اتسـاعا وكـبرا، وأعـالي أسـواقها مسـقفة. وعـلى هـذا الترتيـب أسـواق أكـثر المـدن في شـمال سـوريا. وقـال عـن أسـواق حلـب أنهـا مسـقفة بالخشـب. وروى فـون سـوخم الفرنـسي أن عـكا كانـت في القـرن الثالـث عـشر. (قبـل وقوعهـا بأيـدي المماليـك) ذات أسـواق مظللـة بالحريـر وغـيره مـن ثمـين القـماش.

وكان يراعـى في اختيـار أسـماء الأسـواق أمـور كثـيرة. فهنـاك سـوق الثلاثـاء في شرقـي بغـداد. وهـذا يـدل عـلى أن السـوق كانـت أصـلا أسـبوعية، ومثـل ذلـك سـوق القـيروان التـي كانـت تعقـد في يومـي الأحـد والخميـس. وربمـا كان قـوام كثـير مـن هـذه الأسـواق في بـادئ الأمـر دكاكـين لا تمتلـئ وتعمـر إلا في يـوم السـوق، ثـم تغـيرت طبيعتهـا واحتفظـت باسـمها. وثمـة الأسـواق التـي كانـت تسـمى باسـم منشـئها، فقـد سـميت سـوق أسـد) بالكوفـة نسـبة الى أسـد ابـن عبـد اللـه القـسري، وسـميت سـوق وردان بالفسـفاط باسـم منشـئها. وهنـاك الأسـماء التـي ترجـع إلى القـوم النازلـين فيهـا، كسـوق البربـر في الفسـفاط. ولكـن الغالـب عـلى التسـمية أن نعـرف السـوق باسـم السـلعة التـي تغلـب عليهـا أو العمـل الـذي يتـم فيهـا. ومثـل ذلـك سـوق الخشـب في الاسـكندرية، وسـوق الصرافـين بأصفهـان، وكان يجلـس فيهـا مائتـان منهـم، وسـوق العطاريـن والبزازيـن في جامـع رام هرمـز، وسـوق

الرقيـق في سـامراء، وسـوق الأرز في عـكاء، وسـوق الوراقـين - وجميـع هـذه الأسـواق، أسـماؤها تابعـة لسـلعها ومتاجرهـا.

وكانـت الأسـواق مراكـز للصناعـة كـما كانـت للتجـارة، ومـن ثـم كانـت أسـواق للجوهريـين وللدباغـين والصيادلـة والغزالـين والمرجـان وغـير ذلـك. وقـد بنـى عضـد الدولـة بـن بويـه بمدينـة كاز، دن دارا جعلهـا لنسـج الكتـمان، وكان دخلهـا في كل يـوم عـشرة آلاف درهـم (أي أقـل مـن أربعمائـة جنيـه بقليـل).

وفي رحلـة كل مـن نـاصر خـسرو وابـن جبـير وابـن بطوطـة وغيرهـم، وفيـما تركـه جغرافيـو العـرب كثـير مـن المعلومـات عـن الأسـواق الإسـلامية وأوصافهـا.

فلـما وصـل ابـن جبـير إلى الاسـكندرية اسـتوقف نظـره (حسـن وضـع البلـد واتسـاع مبانيـه) حتـى أنـه مـا شـاهد بلـدا أوسـع مسـالك منـه ولا أعـلى مبنـى، ولا أحفـل، وأسـواقه في نهايـة الاحتفـال، وتـأتى أهليـه الخـيرات مـن جميـع البـلاد، فينصرفـون في الليـل بالبيـع والـشراء كتصرفهـم بـه في النهـار. وكان في الاسـكندرية اثنـا عـشر ألـف دكان، ويصـف ابـن بطوطـة رحلتـه مـن الاسـكندرية إلى مـصر ويذكـر مـروره بسـمنود والمحلـة الكـبرى ثـم يقـول: (والأسـواق متصلـة بـين الاسـكندرية ومـصر) وهـذه الأخـيرة مركـز الـوارد والصـادر، وكانـت بغـداد مشـتبكة أرضهـا بالعـمارة وأسـواقها رائجـة التجـارة - فيهـا مـا تشـتهى الأنفـس وتلـذ الأعـين، إذ أنهـا في نهايـة الاحتفـال، وقـد جمعـت أخـلاط التجـار إلا سـوق الصاغـة فيهـا فإنـه منفـرد بالفـرس وقـد بلغـوا مـن الإجـادة أنهـم رصعـوا الزجـاج بالجوهـر، وكانـت

سـوق الجـواري فيهـا الحبشـيات والروميـات والجرجيـات والشركسـيات. وكان الـدلال ينـادى بمـن حولـه مـن المشـترين ويصـف الجـواري بمـا لهـنّ مـن الأوصـاف الحسـان وهـم يتسـابقون إلى شرائهـن.

ويـرى المحدثـون مـن الباحثين أن الاسـكندرية وبغـداد كانتـا تعينـان أسـعار الحاجيـات عـلى الأقـل فيـما يختـص بالكماليـات

•وقـد تركـت دمشـق أثـرا جميـلا في نفـس ابـن جبير فقـال عنهـا (وأسـواق هـذه البلـدة مـن أحفـل أسـواق البـلاد وأحسـنها،انتظاما، وأبدعهـا وصفـا، ولا سـيما قيسـارياتها، وهـى مرتفعـات كأنهـا الفنـادق، مثققـة كلهـا بأبـواب حديـد كأنهـا أبـواب القصـور، وكل قيسـارية منفـردة بصيغتهـا وأعلاقهـا الجديـدة. ولهـا كذلـك سـوق تعـرف بالسـوق الكبـيرة، تجتـاز المدينـة مـن بـاب الجابيـة إلى بـاب شرقـي).

وكان البيـع والـشراء يتـمان بالمقايضـة وتغلـب المنـاداة بأسـماء البضائـع قبـل الاتفـاق كالـذي عرفنـاه عـن سـوق الجـواري ببغـداد، والمنـاداة بسرمـين عـلى مـا رواه ياقـوت وابـن بطوطـة. وقـد روى أن المقايضـة كانـت أساسـا للبيـع والـشراء في بعـض الأحـوال كـما أن ياقـوت يذكـر بلـدة بالمغـرب الأقـصى اسـمها البـصرة عرفـت « ببـصرة الكتـان « لأن البيـع والـشراء كان أساسـه قـماش الكتـان لكـن اسـتعمال النقـود كان القاعـدة الشـائعة والغالبـة في الاتجـار في العـالم الإسـلامي. بـل إن التعامـل المـالي في العـالم الإسـلامي عـرف نظـام الصرافـين. فلـم يكـن عـن الـصراف غنـى في سـوق البـصرة. وكان العمـل أن كل مـن معـه مـال يعطيـه للـصراف ويأخـذ منـه رقاعـا ثـم

يشـترى مـا يلزمـه ويحـول ثمنـه عـلى الـصراف ولا يعطـون شـيئا غـير الرقـاع مـا دامـوا في المدينـة.

وتدلنـا الأمثلـة التاليـة عـلى الأمـوال الطائلـة التـي كانـت تـروّج في الأسـواق وكان في القــرن الثالــث الهجــري بمدينــة همــدان خــان كبــير تبــاع فيــه الأمتعـة المختـارة مـن قـدر صاحبـه دخلـه منـه بمليـون ومائتـي ألـف مـن الدراهـم (نحـو أربعـين ألفـا الجنيهـات). واشـترى تاجـران في عـصر المأمـون غـلات العـراق فأشرفـا عـلى ربـح عـشرة ملايـين درهـم ثـم اتضـع السـعر فخـسرا سـتة ملايـين درهـم. وروى ياقـوت انـه كان في قيسـارية البـز في حلـب في القـرن الخامـس للهجـرة عـشرون دكانـا للـوكلاء يبيعـون فيهـا كل يـوم متاعـا قـدره عـشرون ألـف دينـار (نحـو عـشرة آلاف جنيـه) وأن ذلـك مسـتمر منـذ عشريـن سـنة.

وكان المتحصـل مـن مكـس القمـح بدمشـق في أواخـر القـرن الثامـن الهجـري يزيـد عـلى مليـون مـن الدراهـم. وكانـت رسـوم الذبـح في طرابلـس الشـام في الوقـت عينـه ثمانـين درهـما في اليـوم الواحـد.

وروى ابــن بطوطــة لطيفــة عــن أســواق سرمــين بــين حــماة وحلــب، جــاء فيهـا: (وبهـا (أي سرمـين) يصنـع الصابـون... ويجلـب الى مـصر والشـام... وأهلهـا سـبابون يبغضـون العـشرة... حتـى أنهـم لا يذكـرون لفـظ العـشرة، وينـادى سـماسرتهم بالأسـواق عـلى السـلع فـاذا بلغـوا الى العـشرة قالـوا تسـعة وواحـد). ونقـل المحدثـون عـن الثعالبـي أن أكـثر مـا كان يبـاع مـن الثـمار في الأسـواق البطيـخ، ولذلـك كانـت سـوق بيـع الفاكهـة تسـمى دار

البطيخ. وروى أن شاعرا مدح وزيرا بقصيدة أكثر فيها من ذكر الفاكهة فسماها عامة بغداد «دار البطيخ «تشبيها لها بمكان بيع الفواكه.

زار بتاحيا اليهودي الأوروبي العراق في عصره الزاهي وروى أن التاجر إذا وصل الى بغداد أو غيرها، وضع أمتعته في بيت رجل من الناس ورجع، فيحملون هذه الأمتعة الى جميع الأسواق للبيع. فاذا دفع فيها ثمنها المقرر كان بها، وإلا حملوها الى جميع السماسرة، فإن رأوا أنها أقل قيمة باعوها بهذا الثمن القليل وكل هذا مع غاية الأمانة والذمة.

ولعل من أغرب ما روي عن طريقة الاتجار هو أنه كان وراء سجلماسة من أرض المغرب وبأقاصي خراسان مما يلي الترك قوم يتبايعون من غير مشاهدة ولا مخاطبة. فيتركون عند كل متاع ثمنه من أعمدة الذهب. فاذا جاء صاحب المتاع اختار الذهب وترك المتاع إذا وافقه وإلا أخذ سلعته وترك الذهب.

تنظيم المعايش في الإسلام

إن الرقعة التي رفرف عليها علم العروبة والإسلام متباعدة الأطراف.. متسعة الأرجاء، متباينة الوضع الجغرافي. مختلفة العامل الطبيعي من أودية وارقة الظلال إلى أحواض أنهار يانعة، إلى سهول منبسطة غنية، إلى جبال مرتفعة إلى صحار قاحلة. فكان من الطبيعي أن تتنوع موارد الرزق في ربوعها. وتتعدد مصادر العيش في أنحائها، وتبع ذلك اختلاف في وسائل العيش وطرق الارتفاع، وسبل تنظيمها. ولست أريد أن أتعرض لهذه النواحي المتعدّدة، كما أنني لست أنوي أن أتناول النظام المالي في الدولة الإسلامية بالدرس والتحليل. وكل غرضي أن أنقل

إليكـم شـذرات مختلفـة عـن تنظيـم المعايـش تسـقطتها في كتـب الأدب والتاريـخ. لـون الي العـوالي مالـك.

لم يلبـث العـرب بعـد اسـتقرارهم في البـلاد التـي فتحوهـا أن سـكوا النقـود. ولذلـك كانـت المعامـلات التجاريـة في أنحـاء العـالم الاسـلامي، إلا في النـادر مـن الأحـوال، تعتمـد عـلى النقـد لا عـلى المقايضـة. وقـد كانـت الدنانـير الذهبيـة والدراهـم الفضيـة معـا أسـاس النقـد. وبذلـك كان النظـام النقـدي ثنائيـا. هـذا بالإضافـة إلى فـروق محليـة في وزن الدرهـم. ويمكـن القـول إجـمالا أن الدينـار كان ينقـص قليـلا عـن نصـف الجنيـه الإنكليـزي الآن. أمـا الدرهـم فـكان يسـاوى أربعـين مـلا (أربعـين مليـما أو أربعـين فلسـا). والدرهـم المقصـود هنـا هـو الدرهـم النقـرة الـذي يكـون ثلثـاه مـن الفضـة الخالصـة وثلثـه مـن النحـاس. وهـو الدرهـم الـذي كان اسـتعماله شـائعا في سـوريا ومـصر حـول القـرن الخامـس الهجـري. أمـا الدرهـم المقـري فقـد كانـت قيمتـه ثلـث قيمـة الدرهـم النقـرة. وقـد عـرف النـاس النقـود النحاسـية في زمـن مبكـر في الدولـة الإسـلامية لكنهـا لم تكـن في وقـت مـن الأوقـات تعـدّ أساسـا للمعاملـة التجاريـة. عـلى أنهـا راجـت في السـوق في القـرن الثامـن الهجـري وكانـت ثمانيـة وأربعـون فلسـا منهـا تسـاوى درهـما واحـدا. لكنهـا لم تلبـث أن فقـدت قيمتهـا فأصبحـت تقـوم الحاجيـات بـوزن مـن النقـود عـلى أنهـا نحـاس لا عـلى أنهـا نقـد.

وكانـت وحـدة الـوزن متباينـة في أنحـاء العـالم الإسـلامي. ففـي مـصر كان الرطـل مائـة وأربعـة وأربعـين درهـما عـلى نحـو مـا نعرفـه اليـوم. أمـا في سـوريا فقـد اختلـف وزنـه بـين سـتمائة درهـم في دمشـق وصفـد وطرابلـس

وبـين سـبعمائة وعشريـن درهـما في حلـب وحـماة وغـزة، وهـو عـلى كل حـال أقـل مـن وزن الرطـل المسـتعمل الان في أنحـاء سـوريا. كذلـك كانـت وحـدة المكاييـل تختلـف في القطـر الواحـد عنهـا في القطـر الآخـر اختلافـا بينـا. وإن كانـت تتفـق قطـرا قطـرا مـع المسـتعمل منهـا إلى الآن. فالقـدح والويبـة والأردب كانـت مسـتعملة في مـصر والمـد والكيـل والغـرارة كانـت شـائعة في سـوريا منـذ القـرن السـادس الهجـري

والتحـدث عـن تنظيـم المعايـش يقتـضي الإشـارة إلى أسـعار الأشـياء وكسـب النـاس، لبيـان العلاقـة بـين مـا يكسـبه المـرء ومقـدار مـا ينفقـه عـلى شـؤون العيـش الضروريـة. ودفعـا للبـس والتكـرار اللذيـن يمكـن أن ينشـأ مـن ذكـر أثمـان وحـدات الكيـل والـوزن المختلفـة رأيـت أن أورد الـوزن بالكيلـو غـرام. والسـعر بالمـلات. والمـل الفلسـطيني يقابـل الفلـس العراقـي عـلى التحقيـق والمليـم المـصري عـلى وجـه التقريـب. فالسـعر المألـوف للقمـح في سـوريا ومـصر كان ملـين للكيلـو الواحـد ومثلـه لـلأرز. أمـا الشـعير فـكان ثمـن الكيلـو الواحـد مـلا ونصـف المـل. وكان ثمـن كيلـو اللحـم نحـو أربعـين مـلا وثمـن الدجاجـة يتفـاوت بـين ثمانـين مـلا ومائـة مـن المـلات. أمـا في العـراق فقـد كان القمـح أغـلى. لذلـك بلـغ ثمـن الكيلـو الواحـد ثلاثـة مـلات. وروى أن ثمـن حمـل حـمار مـن القصـب في مراكـش كان نحـو خمسـة عـشر مـلا، هـذه هـي الأسـعار العاديـة. أمـا في الأزمـات مثـل القحـط أو انتشـار الوبـاء أو الحـروب فقـد كانـت الأسـعار ترتفـع خمسـة أضعـاف وقـد بلـغ ثمـن رغيـف الخبـز في زمـن المسـتنصر الفاطمـي في مـصر خمسـة عـشر دينـارا.

أمـا الأجـور والمكاسـب فقـد تـرك لنـا السـلف الكثـير مـن أخبارهـا. ومـما لا

ريب فيه أن العمال ومن جرى مجراهم لم يكونوا يتمتعون بحبوحة من الرزق، فقد كان النساج يتداول في بعض الأحيان نصف درهم في اليوم. وقد نقل الأستاذ متر عن صاحب مصارع العشاق أن الرجل وزوجه في عصر الرشيد كان يكفيهما ثلاثمائة درهم في السنة للعيش المتوسط. أما أصحاب الأرضين فكانوا يؤجرون الفدان الواحد من الأرض الجيدة بأربعين درهما في السنة في أوقات الرخاء. وقد روى لنا القلقشندي الكثير عن أرزاق أصحاب الوظائف نكتفي الآن بالإشارة إلى بعضها. كان رزق الوزير في مصر خمسة آلاف دينار في الشهر ينفق منها على حاشيته، وكانت وظائف القصر المختلفة تتفاوت أرزاقها بين عشرة دنانير ومائة دينار في الشهر. وكان الشيخ الكبير في مجلس السلطان بتونس يتقاضى نيفا وألفا وثلاثمائة درهم نقرة في الشهر الواحد. وروى أن محتسب مصر كان يتقاضى ثلاثين دينارا في الشهر وأن قضاة مصر تباينت مرتباتهم بين الثلاثين والمائة والستين من الدنانير. وأن معلم النحو والعروض كان يتناول ستين درهما في الشهر. ولا شك أن هذه الأرقام تعيننا على تفهم العلاقة بين الإيراد والمصروف وقد نالت المعاملات التجارية والمالية حظا وافرا من العناية والترتيب.

فكانت السفاتج وسيلة نقل الأموال من مكان إلى آخر. فقد روى ناصري خسرو أنه لما ترك أسوان حمل معه سفتجة من صاحبه هناك إلى وكيله في عيذاب فدفع له المبلغ لقاءها. وقد بلغت قيمة بعض السفائج والصكوك ثلاثين أو أربعين ألفا من الدنانير. هذا إلى الخانات العديدة التي كانت مقصد التجار الغرباء يضعون بضائعهم ودوابهم

في أسـفلها وينامـون في أعلاهـا، ويقفلـون غرفهـم بأقفـال روميـة. وبعـض هـذه الفنـادق كان فيـه أربـع أو خمـس طبقـات. ولعـل فنـادق الإسـكندرية كانـت مـن أكـبر مـا عـرف في العـالم الإسـلامي.

ولم تكـن الدولـة تـشرف عـلى تنظيـم الحيـاة الاقتصاديـة العامـة، لكننـا مـع ذلـك نجـد أن أولى الأمـر كانـوا يراقبـون شـؤون المعـاش مراقبـة دقيقـة في بعـض الأحيـان، رغبـة في ضبـط الأمـور ومنـع الغـش. فمـن ذلـك أن المكاييـل والموازيـن كانـت خاضعـة لمراقبـة المحتسـب الشـديدة. وقـد روى المقريـزي أنـه كان في كل سـوق مـن أسـواق مـصر عـلى أربـاب كل صنعـة مـن الصنائـع عريـف يتـولى أمرهـم. وكان العريـف أحـد المشـتغلين بالبيـع في السـوق فـإن عريـف الخبازيـن بمـصر كان لـه دكان يبيـع الخبـز بهـا ويظهـر مـن قصـة رواهـا المقريـزي أن العريـف كان يعزلـه الوزيـر إذا وقـع الظـن أنـه أنكـر شـيئا. ونعـرف مـما نقلـه الأسـتاذ مـتر أن تجـار الكتـان في دلتـا مـصر لم يكونـوا يسـتطيعون أن يبيعـوا مـا ينسـج باسـمهم إلا للسـماسرة الذيـن تعينهـم الحكومـة. أمـا في فـارس فقـد كان غسـل خيـوط الكتـان في نهـر معـين يقتـضي الحصـول عـلى إذن مـن ناظـر النهـر. ومتـى تـم النسـيج عـين السـماسرة الرسـميون ثمـن الأقمشـة وختمـوا اللفائـف وسـلموها إلى التجـار الأجانـب.

ومـن هـذا القبيـل مـا عـرف عـن نظـام الاحتـكار الـذي لجـأ إليـه الفاطميـون والمماليـك وكان القصـد منـه زيـادة واردات السـلطان. فمـن المعـروف عـن الفاطميـين مثـلا أنهـم منعـوا تصديـر الأقمشـة المصريـة إلى العـراق، وقـد يكـون أسـاس هـذا العمـل سياسـيا لا اقتصاديـا. لكننـا نـرى مـن الجهـة

الأخـرى، أنـه لكـثرة التمـر في كرمـان كان يعطـى للمصدريـن جوائـز. فـكان الجمالـون يحملـون التمـر مناصفـة إلى خراسـان ويعطـى السـلطان كل جمـل دينـارا.

وعـرف صناع العـالم الإسـلامي مـا يصـح أن نسـميه «الماركـة المسجلة «فقـد كانـت البـلاد المشـهورة تنقـش عـلى مـا يصنـع فيهـا (عمـل مدينـة كـذا) عـلى أن ذلـك لم يمنـع الغـش. إذ صنعـت بعـض البـلاد ثيابـا غـير جيـدة، وكتبـت عليهـا اسـم بغـداد لـتروّج سـوقها

وبـين الوظائـف التـي يذكرهـا القلقشـندي نـوع يسـميه (الوظائـف الصناعيـة). وقـد أورد أنهـا كانـت معروفـة في مـصر والشـام. ومنهـا رئيـس الجراحيـة والكحالـين والأطبـاء ونحـن نرجـح أن هـذا النـوع مـن التنظيـم كان يرمـى

فيـه إلى تنظيـم الناحيـة الخلقيـة الأدبيـة أكـثر مـن تنظيـم الناحيـة المعاشـية أضـف إلى كل ذلـك نوعـا مـن النقابـات التـي كانـت تـشرف عـلى العمـل والتجـارة التـي نشـأت عـن تجمـع الحـرف وأصحابهـا في أجـزاء معينـة مـن السـوق، فاقتـضى الوضـع ضبطـا وتنظيـما خاصـين. ولعـل أصحـاب البنـوك كانـوا في مقدمـة مـن نظـم النقابـات هـذه.

وثمـة ناحيـة مـن نواحـي تنظيـم المعايـش في الإسـلام حريـة بعنايتنا، ولاسـيما في هـذه الايـام هـذه الناحيـة هـي الوسـائل التـي لجـأ إليهـا أهـل الحـل والعقـد في تفريـح أزمـات القحـط ومـا يتبـع ذلـك مـن ارتفـاع الأسـعار. وقـد وقعـت عـلى أخبـار كان رواهـا المقريـزي عـن مـصر، رأيـت في نقلهـا لـذة ومتعـة ودرسـا عمليـا.

أصاب مصر في أواخر القرن الرابع الهجري قحط كان سببه نقص ماء النيل، فارتفعت الأسعار وازدحم الناس على الخبز يطلبونه ويقتتلون من أجله. فجمع متولي السعر خزاني الغلال والطحانين والخبازين. وقبض على ما بالساحل من الغلال وأمر ألا تباع إلا للطحانين، وسعر القمح والشعير والحطب وسائر الحبوب والمبيعات، وضرب جماعة بالسياط وشهر بهم وشدّد في ذلك وكبست عدة حواصل وفرق ما فيها على الطحانين بالسعر الرسمي فنرى من هذا أن وزير الحاكم بأمر الله لجأ إلى التسعيرة الجبرية وحظر توزيع الغلال إلا على الطحانين ليحول دون الاستغلال وأصبحت التسعيرة الجبرية وسيلة يلجأ إليها في الأزمات في مصر في القرون التالية لزمن الحاكم بأمر الله.

وثمة وسيلة أخرى لجأ إليها الوزير المصري في سبيل تخفيف الويلات في القرنين الرابع والخامس للهجرة، وهي ختم الغلال. فقد أمر الحاكم بأمر الله بفرض ما يحتاج إليه من الغلال على أرباب الغلات وخيرهم بين أن يبيعوا بالسعر الذي يقرره بما فيه الفائدة المحتمة لهم وبين أن يمتنعوا فيختم على غلاتهم ولا يمكنهم بيع شيء منها إلى حين دخول الغلة الجديدة فاستجابوا لقوله وأطاعوا أمره وانحل السعر. ثم وقع غلاء في أيام الأمر بأحكام الله الفاطمي في القرن الخامس للهجرة ختم القائد أبو عبد الله بن فاتك على مخازن الغلال وأحضر أربابها وخيرهم بين أن يبيعوا على سعر الدولة وبين أن يختم على غلاتهم. فمن أجاب باع ومن رفض ختم على ما عنده ونظر في حاجة السوق وفى المقدار المتيسر الحصول عليه وباع ما نقص إلى الطحانين بالسعر

مـن غـلات ديـوان الدولـة. فلـما دخلـت الغلـة الجديـدة بيعـت الغلـة المختـوم عليهـا بسـعر قليـل وأصـاب أصحابهـا خسـارة كبـيرة.

وقـد كان مـن عـادة السـلطان بمـصر أن يحتفـظ باحتياطـي مـن الحبـوب القصـد منـه تفريـح الأزمـات إذا أصـاب البـلاد الجـدب. فـكان يبتـاع لـه في كل سـنة غلـة بمائـة ألـف دينـار وتجعـل متجـرا. وفى زمـن اليـازوري جعـل الخشـب والصابـون والعسـل بـين مـا يخـزن في متجـر السـلطان. واليـازوري هـذا هـو الـذي حـاول أن ينظـم توزيـع الغـلات في مـصر بحيـث لا يظلـم مشـتريها ولا يـثرى بائعهـا بغـير حـق. فقـد كان المعاملـون أي عـمال النواحـي يطالبـون الفلاحـين بدفـع الخـراج قبـل وقتـه، فـاذا عجـزوا ابتاعـوا منهـم غلاتهـم، قبـل إدراكهـا بالثمـن البخـس، ثـم يقومونهـا عـلى الديـوان بالسـعر الرائـج ويربحـون الفـرق بـين السـعرين. فأمـر اليـازوري عـمال النواحـي بتحريـر مبلـغ الغلـة الـذي وقـع الابتيـاع عليـه وتقويـم مـا وزنـه التجـار للديـوان وختـم المخـازن وإخبـاره بمبلـغ مـا يحصـل تحـت أيديهـم. ثـم جهـز المراكـب وحمـل الغـلال إلى المخـازن السـلطانية بمـصر وقـرر أثمـان الحبـوب وسـلم إلى الخبازيـن حاجتهـم لعـمارة الأسـواق، ووظـف مـا يحتـاج إليـه لبلـدان القاهـرة ومـصر وغيرهـما واسـتمر تدبـيره هـذا عشريـن شـهرا حتـى قتـل.

ولعـل الغـلاء الـذي وقـع بمـصر أيـام المسـتنصر كان شر مـا عرفـه القطـر الشـقيق في زمـن الفاطميـين. وقـد تـرك لنـا المقريـزي صـورا حيـة ناطقـة عـما أصـاب النـاس مـن الضنـك وانعـدام القـوت، حتـى بلـغ ثمـن الرغيـف الواحـد خمسـة عـشر دينـارا. ومـع ذلـك فقـد وجـد مـن حـاول أن يسـتغل

الضنـك ويربـح عـلى حسـاب المعوزيـن والمحتاجـين فأنـذر المسـتنصر الـوالي بقطـع رأسـه إن لم يخفـف البـلاء. فذهـب الـوالي إلى الحبـس وأخـرج منـه قومـا وجـب عليهـم القتـل وأفـاض عليهـم ثيابـا واسـعة وعمائـم مـدوّرة وطيالـس سـابلة وجمـع تجـار الغلـة والخبازيـن والطحانـين وعقـد مجلسـا عظيـما وأمـر بإحضـار المحبوسـين فدخـل في هيئتـه العظيمـة حتـى إذا مثـل بـين يـدي الـوالي قـال لـه (ويلـك مـا كفـاك أنـك خنـت السـلطان واسـتوليت عـلى مـال الديـوان إلى أن أخربـت الأعـمال ومحقـت الغـلال فـأدى ذلـك إلى اختـلال الدولـة وهـلاك الرعيـة. اضرب يـا غـلام رقبتـه (فضربـت في الحـال. واسـتدعى الـوالي آخـر فقـام إليـه الحـاضرون مـن التجـار والطحانـين والخبازيـن وقالـوا (أيهـا الأمـير! في بعـض مـا جـرى كفايـة ونحـن نخـرج الغلـة ونديـر الطواحـين ونعمـر الأسـواق بالخبـز وترخـص الأسـعار عـلى النـاس). وبعـد ضراعـة قبـل مـا قدمـوه ووفـوا بالـشرط.

الشَّرق العربيّ في صبح الأعشى

•••

١ - المؤلِّف والكتاب

عاش القلقشندي في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع للهجرة، في عصر المماليك البرجية. ويمتاز هذا الوقت بالنضج في الحياة العلمية في مصر والشام والعناية بالمدارس ونواحي الحياة الفنية المختلفة. ولبعض المؤلفات التي وصلتنا من هذا العصر ميزة خاصة هي الاحاطة والشمول، أو ما يجوز أن نسميه كتابة الموسوعات. فقد اهتم المؤلفون بإخراج كتب تشمل اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ وأصول الشرع والادارة وقواعد المخاطبات السلطانية، وغير ذلك مما يحتاجه أرباب الدواوين وأصحاب الوظائف والعمال. وكتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» في مقدمة هذه الموسوعات العربية التي خلفها لنا عصر المماليك.

والمؤلف هو شهاب الدين أحمد القلقشندي، ولد في قلقشندة من أعمال قليوب في دلتا مصر، وأقام في الإسكندرية حيث تفقه ومهر، وتعاطى الأدب وكتب في الانشاء وأجيز بالفتيا والتدريس ولم تكن سنه إذ ذاك تتعدى إحدى وعشرين سنة، وتصدر للإفادة فانتفع الكثيرون من علمه. ثم نزل القاهرة والتحق بديوان الانشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفى منصبه هذا ألف كتابه صبح الأعشى، وهو أشهر كتبه وأعظمها قيمة على أنه وصلت الينا من مؤلفاته «ضوء الصبح

المسفر وجنى الدوح المثمر» وكتاب « الغيوث الهوامع» و«نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب».

والكتاب الذي نحن بصدده اليوم هو صبح الأعشى، كتبه المؤلف وهو بديوان الانشاء بمصر. وقد تناول الكاتب في خطبة الكتاب بالتفصيل الغاية التي من أجلها كتب وألف. وهذه الخطبة هي في الوقت ذاته نقد فني لمن سبقه من المنشئين، فهو يقول «والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف، وتباينت مواردهم في الجمع والتأليف. ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدها وأخرى جنحت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها... ولم يكن فيها تصنيف جامع لمقاصدها... بل أكثر الكتب المصنفة في بابها والتآليف الدائرة بين أربابها، لا تخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه، أو الألفاظ الرائقة فيما وقع الاختيار عليه «. ثم يعرض القلقشندي لكتابين فينقدهما: الأوّل التعريف بالمصلح الشريف الشهابي بن فضل الله العمري، والثاني تثقيف التعريف لا بن ناظر الجيش فيقول عن الأول « أنه قد أهمل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسوغ تركها كالبطائق واللطفات» وأما الثاني فقد ترك الوصايا والأوصاف ومراكز البريد وأبراج الحمام. ثم يجمل القول في الاثنين فصار كل من الدستورين منفردا عن الآخر بقدر زائد، ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا في معنى واحد».

وقد وضع صبح الأعشى على درجتين: أما الأولى فكانت لما استقر المؤلف بديوان الانشاء إذا أنشأ مقامة بين فيها حاجة الانسان إلى حرفة

يتعلـق بهـا ومعيشـة يتمسـك بسـببها. وأوضـح أن الكتابـة هـي الصناعـة التـي لا يليـق بطالـب العلـم مـن المكاسـب سـواها. وفضـل فيهـا كتابـة الانشـاء، ورجحهـا عـلى كتابـة الأمـوال. ثـم نبـه فيهـا عـلى مـا يحتـاج إليـه كاتـب الانشـاء مـن المـواد، وضمنهـا أصـول الصنعـة وقوانـين الكتابـة. لكـن القلقشـندي أدرك بعـد حـين أن مقامتـه وقعـت موقـع الوحـي والإشـارة، ومالـت إلى الايجـاز فاكتفـت بالتلويـح عـن واسـع العبـارة «. فـرأى أن يفصلهـا ويوضـح أبوابهـا فأتبعهـا بمصنـف مبسـوط اشـتمل عـلى قواعدهـا وتكفـل بحـل رموزهـا. فـكان مـن هـذه المحاولـة أن أخـرج المؤلـف صبـح الأعـشى في صناعـة الانشـاء

والكتـاب مرتـب عـلى مقدّمـة وعـشر مقـالات وخاتمـة بناهـا بالإجـمال عـلى التعريـف بحقيقـة ديـوان الانشـاء وأصلـه في الاسـلام وانتشـاره بعـد ذلـك في العـالم الاسـلامي. وتنـاول مـا يحتـاج إليـه كاتـب الانشـاء مـن الأمـور العلميـة والعمليـة. فالخـط وتوابعـه ولواحقـه فيـه موضحـة ومعرفـة المسـالك والممالـك فيـه مبوبـة، ومشـاركة المكاتبـات والولايـات والألقـاب والأسـماء والكنـى والمواضـع فيـه مبوبـة، هـذا إلى وصـف الولايـات وطبقاتهـا والبيعـات والعهـود، وذكـر الوصايـا الدينيـة ومـا يكتـب فيهـا، والاقطاعـات وأصلهـا في الـشرع وعقـود الأمانـات.

وتكلـم فيـه عـن البريـد ووضعـه في الجاهليـة والاسـلام وبـين معالمـه ومواضعـه.

والحـق أنـه عـلى قـول مصححـه الأسـتاذ المرحـوم محمـد عبـد الرسـول إبراهيـم. كتـاب ممتـع ودائـرة معـارف أدبيـة كـبرى، يشـهد لمؤلفـه بالفطنـة والـذكاء وطـول البـاع في فـن كتابـة الانشـاء ”

ونحـن نـدرك أن صبـح الأعـشى لا يمكـن أن يلـم بـه المـرء في حديـث أو اثنـين لذلـك نكتفـي بناحيـة أو اثنتـين مـن نواحيـه المتعـدّدة نتناولهـا بـشيء مـن التفصيـل. فنحـن نجـد أن الفصـل الثالـث مـن البـاب الأول مـن المقالـة الأولى يتنـاول معرفـة الأزمنـة والأوقـات وأيـام الشـهور والسـنين عـلى اختـلاف الاسـم فيهـا، وتفاصيـل أجزائهـا والطـرق الموصلـة اليهـا ومعرفـة أعيـاد الأمـم. وهـو يتنـاول كل هـذه بتفصيـل مـن الناحيـة الشرعيـة والناحيـة الفلكيـة، فيحـكى المذاهـب المختلفـة ثـم يلاحـظ في دقـة أن اليـوم ينظـر إليـه باعتباريـن.“ أمـا الطبيعـي فالليـل مـن لـدن غـروب الشـمس إلى طلوعهـا وظهورهـا مـن الأفـق، والنهـار مـن طلـوع نصـف قـرص الشـمس إلى غيبوبتـه. وأمـا الشرعـي فالليـل مـن غـروب الشـمس إلى طلـوع الفجـر الثـاني والنهـار منـه إلى غـروب الشـمس. وتـراه ينتقـل مـن الأيـام إلى الشـهور فيذكـر أنواعهـا ويقـارن الشمسـية منهـا بالقمريـة، ويعـين ابتـداء القبطيـة منهـا بالنسـبة للشمسـية. والسـنة عنـده إمـا طبيعيـة وهـي القمريـة، وإمـا اصطلاحيـة وهـي الشمسـية. ويتنـاول في هـذه مصطلحـات القبـط والفـرس والسريـان ثـم مصطلـح المنجمـين، ويوضـح علاقاتهـا ببعضهـا البعـض. ويعقـد صاحبنـا فصـلا في التوفيـق بـين السـنين وعلاقـة ذلـك بالخـراج والأعشـار لارتبـاط المنتـوج الزراعـي بالسـنين عـلى اختـلاف الاصطـلاح. وهـذا الفصـل مـن خـير مـا عـثرت عليـه عنـد كتـاب العـرب عـن الموضـوع.

وإذ ينقلنا إلى الحديث عن الفصول نشعر أن المؤلف دقيق الاحساس رقيقه، هذا إلى طول باع في رواية الشعر الرفيع. فهو يتحدث عن الفصول ويروي فيها الأشعار والقصائد.

وتنال المواسم والأعياد حظها من عناية صاحبنا، فهو لا يترك منها موسما أو عيدا إلا ويعين موعده ويرده إلى أصله

والمقالة الثانية من كتاب الصبح في المسالك والممالك. فيها تعرض المؤلف لذكر الأرض على وجه الإجمال فتعرف إلى شكلها وإحاطة البحر بها وأقاليمها الطبيعية وأنواع البحار وحدّثنا عن كيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها. ثم بحث الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم وما انطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم وما كانت عليه من الترتيب إلى عصره. ووصف وظائف أرباب الأقلام والسيوف ثم تناول دول الأرض دولة دولة. فبدأ بالمملكة المصرية ومضافاتها ووضعها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وزرعها ورياحينها ومطعومها وحيوانها وطيورها وقواعدها. ثم فصل كورها ومدنها وأخبارها وملوكها جاهلية وإسلاما، وترتيب أحوالها في معاملاتها ونقودها وأنواع أراضيها ودواوينها وجيوشها ومواكب أمرائها وملوكها. وانتقل من المملكة المصرية إلى بقية أقطار العالم الاسلامي أولا ثم إلى ما خرج عنه. وهو في أخباره وأنبائه دقيق الملاحظة، شديد العناية بإسناد ما ينقله عن غيره، سريع إلى النقد. فيقول مثلا « أما شكل الأرض فقد تقرر في علم الهيئة أن الأرض كرية الشكل...... وقيل هي مسطحة وقيل كالترس وقيل كالطبل. والتحقيق هو الأول «. ويحدّثنا عن خطوط الطول

والعـرض ثـم يلاحـظ أن أكـثر المعمـور مـن الأرض إنمـا هـو في النصـف الشـمالي والعـمارة فيـه فيـما بـين خـط الاسـتواء إلى نهايـة سـت وسـتين درجـة ونصـف في العـرض. ويقسـم المعمـور مـن الأرض إلى أقاليـم سـبعة ينقلهـا وحدودهـا عـن أبي الفـداء

ويحظـى البحـر المتوسـط بقسـط وافـر مـن عنايـة الكاتـب، وهـو يسـميه، مثـل بقيـة الجغرافيـين المعاصريـن لـه، بحـر الـروم، ولكنـه يذكرنـا أنـه يسـمى البحـر الشـامي أيضـا. فالمـدن الموجـودة عليـه تذكـر كلهـا، وتعـين أعراضهـا وأطوالهـا وتبـين المسـافات التـي تفصـل بينهـا.

فـاذا خلـص الكاتـب إلى الخلافـة قـدم لهـا بأخبـار الفتـوح باختصـار ومـر بمقـرات الخلافـة في المدينـة والشـام والعـراق ومـصر، لأن الـذي يعنـى بـه هـو الخلافـة عـلى أنهـا نظـام للحكـم. فـيروى لنـا مـا كانـت عليـه ترتيباتها في أيـام الراشـدين والأمويـين والعباسـيين وينقـل عـن ابـن الأثـير وصفـا لموكـب الخليفـة المقتـدر لمـا وصلـت رسـل ملـك الـروم إلى بغـداد سـنة (٣٥٠) إذ كان عـدد العسـكر مائـة وسـتين ألفـا والحجـاب كانـوا سـبعمائة والخـدم سـبعة آلاف هـذا فضـلا عـن أنـواع الأسـلحة والزينـة والسـتور والبسـط. فقـد كان عـدة البسـط اثنـين وعشريـن ألـف بسـاط.

وشـعار الخلافـة وهـي الخاتـم والـبردة والقضيـب وثيـاب الخلافـة والأعـلام والخلـع بألوانهـا مفصلـة في هـذا البـاب. كـما نجـد تفصيـل الوظائـف الوزاريـة وغيرهـا كالمجابـة وهـي حفـظ بـاب الخليفـة والاسـتئذان للداخلـين عليـه، وولايـة المظـالم، والنقابـة عـلى ذوي الأنسـاب والقضـاء والحسـبة والولايـة عـلى المسـاجد. فـإذا فـرغ مـن ذكـر الترتيبـات عـلى مـا عرفـت

قبـلا، أي قبـل انتقـال الخلافـة إلى مـصر، تخلـص إلى ذكـر مـا أصابهـا بعـد ذلـك، فقـال « والـذي اسـتقر عليـه حـال الخلفـاء بالديـار المصريـة أن الخليفـة يفـوّض الأمـور العامـة إلى السـلطان ويكتـب لـه عنـه عهـد بالسـلطنة ويدعـى لـه قبـل السـلطان عـلى المنابـر، إلا في مصـلى السـلطان خاصـة. ويسـتبد السـلطان بمـا عـدا ذلـك، مـن الولايـة والعـزل وإقطـاع الإقطاعـات حتـى الخليفـة نفسـه، ويسـتأثر بالكتابـة في جميـع ذلـك. ولسـت أشـك في أن خاتمـة كتـاب صبـح الأعـشى هـي أمتـع فصـول الكتـاب كلـه. فهـي تتنـاول الـكلام عـلى البريـد ومطـارات الحـمام الرسـائلي وهجـن الثلـج ومراكبـه والمنـاور والمحرقـات

فمعنـى البريـد مسـافة معلومـة مقـدّرة باثنـي عـشر ميـلا وهـي أربعـة فراسـخ، وقـد كان البريـد معروفـا عنـد الأكاسرة والقيـاصرة أمـا في الاسـلام فـأوّل مـن وضعـه معاويـة وأحكمـه عبـد الملـك. وقـد أهمـل أمـره أواخـر عهـد الدولـة الأمويـة وأوائـل عهـد العباسـيين حتـى عنـى بـه المهـدى واتبعـه في ذلـك الرشـيد فعـاد إلى البريـد أثـره في تسـهيل مهـام الحكـم. ومـع أن البويهيـين أهملـوه ليحولـوا دون الخلفـاء وأخبـار الأمصـار، فقـد أعـاده السـلاجقة وشـمله الزنكيـون بالعنايـة، فأعـادوا لـه النجـب المنتخبـة

وكان للبريـد ألـواح مـن فضـة مخلـدة بديـوان الانشـاء تحـت أمـر كاتـب الـسر بالأبـواب السـلطانية منقـوش عـلى وجهـي اللـوح نقشـا مزدوجـا مـا صورتـه «لا إلـه إلا اللـه محمـد رسـول اللـه أرسـله بالهـدى وديـن الحـق ليظهـره عـلى الديـن كلـه ولـو كـره المشركـون. ضرب بالقاهـرة المحروسـة. وعـلى الوجـه الآخـر» عـن لمولانـا السـلطان الملـك الفـلاني فـلان الديـن

والدنيا خلد الله ملكه «وفى ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين يجعلها البريدي في عنقه متى خرج إلى جهة من الجهات، فكل من رأى اللوح والشرابة علم أنه بريدي وبواسطة ذلك تذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد.

ومراكز البريد التي تقف فيها خيل البريد لتغييرها فرسا بعد فرس ليست كلها على المقدار المحرر - أي على بعد اثني عشر ميلا - بل هي متفاوتة الأبعاد إذا ألجأت الضرورة إلى ذلك، تارة لبعد الماء، وتارة للأنس بقرية حتى أنك لترى في بعض المراكز البريد الواحد بقدر بريدين.

ويختم المؤلف حديثه عن البريد بذكر طرقه في مصر وبلاد الشام وما جاورهما. ثم ينتقل إلى ذكر الحمام الرسائلي. فيعدد أنواعه ويذكر ألوانه ويبين صفة الطائر الفاره؛ ويقص أخبار من اعتنى به من خلفاء بني العباس كالمهدى، وتنافس رؤساء الناس وفى العراق في اقتنائه، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منه سبعمائة دينار وثمن البيضتين منه عشرين دينارا. وكان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب. وكان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيها، والإخبار عنها والوصف لأثرها. وبعد أن يعرض المؤلف إلى استخدام الحمام في الرسائل أيام زنكي وخلفائه والتصانيف عن الحمام الرسائلي يروى أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البلجيكية، وأنه يجب أن يراها. فكان بدمشق حمام من مصر، وبمصر حمام من دمشق، فكتب

الوزير بطاقة إلى دمشق يأمر فيها أن يجمع ما هناك من الحمام المصري ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البلجيكية ويرسلها إلى مصر. فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية. فجمعه الوزير وطلع به إلى العزيز في يومه، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه.

وآخر فصل في صبح الأعشى يتناول نقل الثلج من الشام إلى مصر. فقد كانت له هجن تنقله في البر وسفن تنقله في البحر، حتى يصل إلى قلعة القاهرة. وقد كانت هذه المراكب ثلاثا في السنة في أيام الملك الظاهر بيبرس ثم أخذت في الزيادة حتى بلغت أحد عشر مركبا. والمراكب تأتي دمياط في البحر ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل إلى الشرابخانة الشريفة. وقد جرت العادة أن المراكب إذا سفرت سفر معها من يتداركها من ثلاجين لمداراتها

ومما حدث في زمن الدولة الناصرية استعمال الهجين لنقل الثلج وكانت هذه الهجن تخرج من دمشق إلى الصنين ثم إلى بانياس ثم إلى أربد ثم إلى بيسان بجنين فقاقون فاللد فغزة فالعريش فالواردة فالمطيب فقطيا ثم منها إلى الصالحية فبلبيس. والمستقر في كل مركز ست هجن، خمسة للأحمال وهجين للهجان؛ تكون كل نقلة خمسة أحمال. ولا تستقر هذه الهجن بالمراكز إلا أوان حمل الثلج وهي من حزيران إلى تشرين وعدة نقلاته إحدى وسبعون نقلة متقارب مدد ما بينها. ويجهز مع كل نقلة بريدي يتداركها ويجهز معها ثلاج خبير.

ليس الذي عرضنا له واستشهدنا به إلا القليل مما عند القلقشندي وليس باستطاعتنا أن نفعل غير ذلك. فثمة فصول وأبواب لم نشر حتى إلى أسمائها كالفصول التي تناول فيها المؤلف الايمان وأحكامها في الشرع وأثرها في المعاهدات، وتلك التي بحث فيها الخط ورسم الحروف وقواعد الكتابة وتطوّر الخطوط وفى الكتاب مئات من الرسائل البليغة كان المؤلف كتبها في مناسبات مختلفة فاستشهد بها وضمنها كتابه

وقد أقبل الأدباء والمتأدبون على صبح الأعشى إقبالا كبيرا قال فيه المؤلف «لكني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي ونفاق سلعته، والمسارعة إلى استكتابه قبل انقضاء تأليفه. حتى أرى قلمي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس إلى اكتتابه، ومرتقب نجازه للاستنساخ ويساهمها في ارتقابه، فضلا من الله ونعمة ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»

ولا بد لنا في مختتم هذا الحديث من الاشارة إلى أن الطبعة المتداولة من صبح الأعشى هي طبعة دار الكتب وهي في أربعة عشر جزءا. ولا ريبة عندي، وعند من أتاحت له ظروفه أن يتعرّف إلى صبح الأعشى، في أن هذا الكتاب في مقدمة الكتب التي وصلت إلينا من السلف الصالح.

٢ - مصر

نالت مصر من عناية القلقشندي الحظ الكبير. ولا غرابة في ذلك فهو مصري، ومصر كانت في ذلك الوقت مقر الخليفة والسلطان وفيها العاصمة

ومنها تدار الأقطار التابعة للمماليك.

يبدأ المؤلف بحثه عن مصر بذكر فضائلها ومحاسنها، وخواصها وعجائبها وآثارها، ويعرض للنيل من مبدئه إلى مصبه ويتابعه في زيادته ونقصه، ثم يتناول خلجان مصر وبحيراتها وزروعها ورياحينها ومواشيها ووحوشها وطيورها. فاذا انتهى من ذلك روى تاريخها مختصرا وما مر عليها من أدوار وانتقل إلى ترتيبها وإدارتها في عصره. وهنا تظهر قيمة صبح الأعشى كمصدر للتاريخ، على اختلاف اتجاه الكتاب. فهو يحدثنا عن المعاملات والأثمان والتنظيم الاقتصادي ومصادر الثروة، وسياسة الدولة المالية في دخلها وخرجها. وهذه المسائل هي التي سنحاول تلخيصها في هذا الحديث

فمصر «مع ما اشتملت عليه من الفضائل، وحذت به من المآثر، أعظم الأقاليم خطرا، وأجلها قدرا، وأفخمها مملكة، وأطيبها تربة، وأخفها ماء، وأخصبها زرعا، وأحسنها ثمارا وأعدلها هواء وألطفها ساكنا. ولذلك ترى الناس يرحلون إليها وفودا، ويفدون عليها من كل ناحية، وقل أن يخرج من دخلها، أو يرحل عنها من ولجها، مع ما اشتملت عليه من حسن المنظر، وبهجة الرونق ولا سيما في زمن الربيع، وما يبدو بها من الزروع التي تملأ العين وسامة وحسنا، وتروق صورة

ومعنـى. وبعـد أن يعـدّد نباتهـا ورياحينهـا وفواكههـا يقـول «وأمـا أصنـاف المطعـوم ففيهـا مـا يسـتطاب مـن الألبـان والأجبـان، والعسـل الـذي لا يسـاوى حسـنا ولا يشـبهه غـيره مـن سـائر الأعـمال، والسـكر الكثـير مـن المكـرر والتبـع والوسـط والنبـات، ومنهـا يجلـب إلى أكـثر البـلاد».

وقـد أقـام القلقشـندي زمنـا في كل مـن القاهـرة والاسـكندرية فوصـف المدينتـين وصفـا خلابـا. فالقاهـرة « قـد اتسـعت خططهـا وزادت العـمارة حولهـا وصـار مـا هـو خـارج سـورها أضعـاف مـا هـو داخلـه... وهـذه عمارتهـا تتزايـد ومعالمهـا تتجـدد حتـى صارت عـلى مـا هـي عليـه في زماننـا (أي زمـن المؤلـف) مـن القصـور العليـة والـدور الفخمـة والمنـازل الرحيبـة والأسـواق الممتـدة والمناظـر النزهـة والجوامـع البهجـة والمـدارس الرائقـة والخوانـق الفاخـرة، مـما لم يسـمع بمثلـه في قطـر مـن الاقطـار، ولا عهـد نظـيره في مـصر مـن الأمصـار، وغالـب مبانيهـا بالآجـر، وجوامعهـا ومدارسـها وبيـوت رؤسـائها مبنيـة بالحجـر المنحـوت، مفروشـة الأرض بالرخـام، ومؤزرة الحيطـان بـه وغالـب أعاليهـا مـن أخشـاب النخـل والقصـب المحكـم الصنعـة، وكلهـا أو أكثرهـا مبيضـة الجـدر بالكلـس الناصـع البيـاض، ولأهلهـا القـوة العظيمـة في تعليـة بعـض المسـاكن عـلى بعـض حتـى أن الـدار تكـون مـن طبقتـين إلى أربـع طبقـات بعضهـا عـلى بعـض، في كل طبقـة مسـاكن كاملـة بمنافعهـا ومرافقهـا، وأسـطحة مقطعـة بأعلاهـا بهندسـة محكمـة وصناعـة عجيبـة. أمـا الاسـكندرية فيقـول المؤلـف في وصفهـا وهـي الآن بالنسـبة إلى مـا تشـهد بـه التواريـخ مـن بنائهـا القديـم جـزء مـن كل، وهـي مـع ذلـك مدينـة رائقـة المنظـر، حسـنة الترصيـف، مبنيـة بالحجـر والكلـس

مبيضة البيوت ظاهرا وباطنا كأنها حمامة بيضاء، ذات شوارع مشرعة، كل خط قائم بذاته كأنها رقعة الشطرنج، يستدير بها سوران منيعان، يدور عليهما من خارجهما خندق في جوانب البلد المتصلة بالبر، ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربي مما يلي الشمال إلى المشرق... وبهما أبراج حصينة عليها الستائر المستترة والمجانيق المنصوبة. «و بمثل هذا الأسلوب الظريف؛ يصف المؤلف مراكز النيابات والولايات والموانئ التجارية على البحر الأحمر وغيره. وإن كنا نأسف لشيء، فنحن نأسف لأنه لم يذكر عدد السكان في هذه المدن، أو في مصر كلها.

ومع أن القلقشندي لم يكتب فصلا خاصا في موارد الثروة المصرية، فإننا نستطيع أن نعثر على الذي نريد تحت أبحاث المال الخراجي وواردات بيت المال وما شابه ذلك. فالمصدر الأصلي لثروة المصريين في ذلك الوقت الزراعة والتجارة. فهو يعدّد أنواع الأرض فيصل إلى ثلاثة عشر نوعا أحسنها الباق وهو أغلاها سعرا لأنه يصلح لزراعة القمح والكتان، وأردوها السباخ وهو الأرض التي يغلب عليها الملح حتى لم ينتفع بها في زراعة الحبوب. وهو عند ذكر كل نوع يبين غلاته وعلاقة ذلك بالماء والري. وهو إلى ذلك يجعل في بدء مقاله عن مصر ما تنتجه البلاد وما يجود فيها وحاجته إلى الماء وأساليب الري. ويذكرنا بأن مصر (لا يوجد فيها الجوز والفستق والبندق والإجاص إلا مجلوبا بعد جفافه. وإن زرع بأرضها شيء من ذلك لم يفلح. والزيتون فيها بقلة، ولا يستخرج منه زيت البتة وإنما يؤكل ملحا.

ويتنـاول التجـارة عنـد ذكـره المكـوس، فيعطينـا صـورة واضحـة للنشـاط التجـاري إذ يصـف عيـذاب والقصـير والطـور والسـويس والاسـكندرية ودميـاط وقطيـا.

ولم يغفـل المؤلـف معـادن مـصر، فيسـتخرج الزمـرد بالقـرب مـن قـوص، والشـب في بـلاد الصعيـد والواحـات، وقـد بيـع منـه في الاسـكندرية وحدهـا ثلاثـة عـشر ألـف قنطـار وثمنـه يقـرب مـن سـبعين ألـف دينـار (حـول ٤٠ ألـف جنيـه) والنطـرون موجـود فيهـا بكـثرة، ومعـدن النفـط يجمـع عـلى سـاحل بحـر القلـزم.

وصبـح الأعـشى غنـي في الصـور الدقيقـة التـي يعـرض فيهـا المؤلـف للتنظيـم المـالي والادارة في عـصره. فالأمـوال الديوانيـة تقابـل فيـه مـا نسـميه مـوارد الدولـة في أيامنـا. وهـذه مفصلـة هنـاك، وهـي مقسـمة إلى شرعـي وغـير شرعـي، والشرعـي مـا اقتضتـه ظـروف الادارة وأحـوال العمـران وتنظيـم الملـك الاسـلامي. والأمـوال الديوانيـة الشرعيـة هـي المـال الخراجـي ومـا يتحصـل مـما يسـتخرج مـن المعـادن والـزكاة والجـوالي أي الجزيـة، ومـا يتحصـل مـن دار الـضرب بالقاهـرة، والمواريـث الحشريـة ومـا يؤخـذ مـن تجـار الأوروبيـين الواصلـين إلى الديـار المصريـة بالبحـر. وهـذه الأنـواع السـبعة مبوبـة كلهـا مبينـة أحكامهـا. ومـما يجـدر ذكـره هـو أن المـال الخراجـي في الوجـه القبـلي أي الصعيـد يدفـع إلى بيـت المـال عينـا أي مـن غـلات الأرض أمـا الوجـه البحـري أي الدلتـا فغالـب خراجـه دراهـم. وكانـت المعـادن حكـرا للسـلطان. أمـا الأمـوال الديوانيـة غـير الشرعيـة بالديـار

المصريـة فهـي المكـوس، سـواء في ذلـك مـا اختـص بالديـوان السـلطاني ومـا كان تابعـا للإقطاعـات

فـاذا رغبنـا في التعـرف إلى مصروفـات السـلطان وجدنـا أن القلقشـندي كفانـا مؤونـة البحـث في مختلـف الأماكـن. فقـد جمعهـا تحـت عنـوان عـادة السـلطان في إجـراء الأرزاق. وهـذه عنـده عـلى ضربـين الجـاري المسـتمر والانعـام ومـا يجـرى مجـراه. فالإقطاعـات ورزق أربـاب الأقـلام مـن الـضرب الأول. والخلـع والتشـاريف والخيـول التـي تهـدى مرتـين في العـام للأمـراء، والكسـوة والحوائـص والمأكـول والمـشروب مـن الـضرب الثـاني. والإقطاعـات في هـذه المملكـة تجـرى عـلى الأمـراء والجنـد، وعامـة إقطاعاتهـم بـلاد وأراض يسـتغلها مقطعهـا ويتـصرف فيهـا كيـف شـاء، وربمـا كان فيهـا نقـد يتناولـه مـن جهـات، وهـو القليـل، وتختلـف باختـلاف حـال أربابهـا. أمـا رزق أربـاب الأقـلام فيتوقـف مقـداره عـلى العمـل، فالوزيـر لـه في الشـهر مائتـان وخمسـون دينـارا. والى الاقطاعـات والأرزاق توجـد الرواتـب الجاريـة لمـن بالحـضرة السـلطانية مـن اللحـم والتوابـل والخبـز والعليـق والزيـت والسـكر والكسـوة. أمـا الخلـع والتشـاريف فقـد نقـل المؤلـف عنهـا قـول صاحـب المسـالك «ولصاحـب مـصر في ذلـك اليـد الطـولى حتـى بقـى بابـه سـوقا ينفـق فيـه كل مجلـوب ويحـضر النـاس اليـه مـن كل قطـر، حتـى كاد ذلـك ينهـك المملكـة ويـودى بمتحصلاتهـا عـن آخرهـا».

أشـار المؤلـف إلى التغيـير الـذي أدخلـه صـلاح الديـن عـلى ترتيـب المملكـة ثـم قـال «وجـاءت الدولـة التركيـة - وهـو يعنـى المماليـك - وقـد تنفحـت

المملكـة وترتبـت، فأخـذت في الزيـادة في تحسـين الترتيـب وتنضيـد الملـك وقيـام أبهتـه. ونقلـت عـن كل مملكـة أحسـن مـا فيهـا، فسـلكت سـبيله ونسـجت عـلى منوالـه حتـى تهذبـت وترتبـت أحسـن ترتيـب، وفاقـت سـائر الممالـك وفخـر ملكهـا عـلى سـائر الملـوك». وهـذا الترتيـب والتهذيـب الـذي يشـير إليـه القلقشـندي هـو التنـوع والتعقيـد في الادارة الحكوميـة الـذي اقتضتـه أحـوال الدولـة الاسـلامية في القـرن الثامـن الهجـري. ونحـن نـدرك هـذا إذا تذكرنـا الأمـور التاليـة:

١ - كانـت مـصر فيهـا ثـلاث نيابـات للإسـكندرية والوجـه القبـلي والوجـه البحـري.

٢ - وكانـت مقسـمة إلى ثمانيـة عـشر عمـلا تـدار إدارة مدنيـة هـذا فضـلا عـن العربـان الذيـن كانـت لهـم نظمهـم الخاصـة.

٣ - إننـا إذا عرضنـا لوظائـف أربـاب السـيوف وجدناهـا خمسـا وعشريـن في الحـضرة السـلطانية وإحـدى وعشريـن خـارج الحـضرة السـلطانية.

٤ - أنـه كانـت هنـاك خمـس وظائـف دينيـة رئيسـية أهمهـا قضـاء القضـاة وكانـت الوظائـف الدينيـة الخارجـة عـن الحـضرة السـلطانية لا حـصر لهـا.

٥ - كانـت الـوزارة في مقدمـة الوظائـف الديوانيـة لكنـه كان بالإضافـة اليهـا مـا يزيـد عـلى عشريـن مـن الوظائـف الهامـة. هـذا وحـده يرينـا دقـة الاداة الحكوميـة، فـإذا أردنـا أن نعـد هـذه الوظائـف طـال بنـا الحديـث، لكـن إجـمال الأعـمال التـي كانـت تقـوم بهـا الدولـة مجتمعـة تكفينـا. فقـد كانـت تشـمل النيابـة عـن السـلطان وتنظيـم شـؤون الجنـد والإشراف

عـلى ديـوان الرسـائل والمحجابـة وشـد الدواويـن الماليـة وولايـة الحسـبة والشرطـة والقضـاء والنظـر في الأمـلاك السـلطانية والعنايـة بخزائـن السـلاح وقضـاء العسـكر وإفتـاء دار العـدل. ولنذكـر نوعـين مـن الأعـمال لهـا علاقـة خاصـة بالحيـاة الاجتماعيـة: أولهـما تـولى شـؤون الأطبـاء والكحالـين ومـن شـاكلهم، وثانيهـما الإشراف عـلى التداريـس المختلفـة مـن الفقـه والحديـث والتفسـير والنحـو واللغـة وغـير ذلـك مـما لا ناظـر لـه خـاص بـه.

وتتمثـل الحضـارة المصريـة بقـدر مـا يصورهـا لنـا صاحـب الصبـح، وهـو ليـس مـؤرّخ حضـارة بالمعنـى الفنـي الدقيـق، تتمثـل في حديثـه عن الجسـور ووصـف حواصـل السـلطان والمـدارس والمواكـب والأسـمطة التـي يعطينـا عنهـا الـشيء الكثـير، وإنمـا ذكرنـا الجسـور لعلاقتهـا بالـري. فالجسـور تـوزع الميـاه عـلى الأرض، وهـي عـلى نوعـين السـلطانية والبلديـة. والأولى جاريـة مجـرى سـور المدينـة فيجـب عـلى السـلطان الاهتـمام بعمارتهـا والنظـر في مصلحتهـا وكفايـة العامـة أمـر الفكـرة فيهـا. وأمـا البلديـة فخاريـة مجـرى الآدر والمسـاكن التـي داخـل السـور. وينكـر القلقشـندي عـلى النـاس إهـمال الجسـور البلديـة والسـلطانية. وفى هـذا الانـكار مـا يـدل عـلى تـرك الدولـة شـأن الـزراع مـع أنهـا كانـت تعنـى بالتاجـر.

أمـا حواصـل السـلطان، فـإن دلتنـا عـلى شيء، دلتنـا عـلى درجـة الحضـارة الماديـة التـي نعـم بهـا المماليـك في قصورهـم، والتـي نـرى صورهـا معكوسـة في قصـص ألـف ليلـة وليلـة. فمـن هـذه الحواصـل أو البيـوت بيـت الـشراب المشـتمل عـلى أنـواع الأشربـة وأوانيهـا النفيسـة مـما تسـاوى الآنيـة الواحـدة منهـا ألـف درهـم، ومنهـا بيـت الطشـت حيـث تغسـل الأيـدي

والقـماش ويحفـظ فيـه مـا يلبسـه السـلطان ومنهـا بيـت الفـراش وفيـه الفـرش والبسـط والخيـام ومنهـا بيـت السـلاح أو بيـت الـزرد وفيـه تحفـظ السـيوف والقـسي والنشـاب والرمـاح والـدروع الزرديـة وغـير ذلـك، هـذا إلى المطبـخ وبيـت الطبـل وغيرهـما

وعنايــة المماليــك بالمــدارس معروفــة، فقــد اتخذوهــا وســائل للتقــرب إلى النـاس وللتكفـير عـن أخطائهـم. وقـد بنـى برقـوق مدرسـته الظاهريـة أيـام القلقشـندي، فجـاءت في نهايـة الحسـن والعظمـة وجعـل فيهـا خطبـة وقـرر فيهـا صوفيـة عـلى عـادة الخوانـق ودروسـا للأئمـة، ونظـم الشـعراء فيهـا، واقـترح بعـض الأكابـر عـلى المؤلـف نظـم شيء في المدرسـة فقـال:

وبالخليـلي قد راجت عمارتها

في سرعـة بنيت من غير ما مهل

كم أظهرت عجبا أسـواط حكمته

وقـد غدت مثلا ناهيك من مثل

وكـم صخور تخال الجن تنقلها

فإنهـا بالوحا تأتي وبالعجل

ومواكــب الســلطان أو هيئاتــه كــما يســميها القلقشــندي تصــوّر عظمتــه وفخامـة حاشـيته إلى درجـة كبـيرة وتتنـاول مواكـب الأكل والجلـوس للنظـر في المظـالم وحضـور صـلاة العيديـن والجمعـة والركـوب لكـسر الخليـج عنـد وفـاء النيـل.

«فأعظم أسمطة السلطان تكون بالإيوان الكبير أيام المواكب. إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخدمة، مد السماط بالإيوان الكبير من أوله إلى آخره بأنواع الأطعمة المنوعة الفاخرة، ويجلس السلطان على رأس الخوان والأمراء يمنة ويسرة على قدر مراتبهم في القرب من السلطان. فيأكلون أكلا خفيفا ثم يقومون ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة ثم يرفع الخوان. وأما في بقية الأيام فيمد الخوان في طرفي النهار لعامة الأمراء... ففي أول النهار يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان شيئا، ثم سماط ثان قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل، ثم سماط ثالث بعده، الطارئ، ومنه مأكول السلطان... وفى أخريات النهار يمد سماطان... وقد يؤتى بثالث... وأما في الليل فيبيت بالقرب من مبيت السلطان اطباق من أنواع المآكل المختلفة والمشروب الفائق، ليتشاغل أصحاب النوب بالمأكول والمشروب عن النوم».

وجلوس السلطان بدار العدل الخلاص المظالم تناوله المؤلف بما مؤداه من عادة هذا السلطان إذا كان بالقلعة في غير شهر رمضان أن يجلس بكرة يوم الاثنين بإيوانه الكبير المسمى بدار العدل... ويكون جلوسه على الكرسي الذي هو موضوع تحت سرير الملك. ويجلس عن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة هما الشافعي والمالكي وعن يساره الحنفي والحنبلي. ويحضر مجلسه قضاة العسكر ومفتو دار العدل ووكيل بيت المال والناظر في الحسبة والوزير وأمراء المشورة ويقف من وراء السلطان مماليك صغار... ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب لإحضار قصص أرباب الضرورات المساكين، وتقرأ

عليـه القصـص في احتـاج فيـه إلى مراجعـة القضـاة راجعهـم فيـه، ومـا كان متعلقـا بالعسـكر تحـدّث فيـه مـع الحاجـب وناظـر الجيـش، ويأمـر في البقيـة بمـا يـراه.

وقـد يركـب السـلطان لكسر الخليـج عنـد وفـاء النيـل. وفي هـذه الحالـة يقتـصر عـلى السـناجق... ويتوجـه الموكـب إلى المقيـاس فيمـد هنـاك سـماط لـلأكل وتكـون حراقـة السـلطان قـد زينـت بأنـواع الزينـة وكذلـك حراريـق الأمـراء وقـد شـحن البحـر بمراكـب المتفرجـين... حتـى يـأتي الجمـع الخليـج ويصـل السـد، فيقطـع بحضـوره ويركـب ويتـصرف إلى القلعـة.

هـذا قـل مـن كـثر مـما في صبـح الأعـشى عـن مـصر، وقراءتـه فيهـا متعـة ولـذة، فضـلا عـن المعلومـات، وأنني أرجـو مـن حـضرات القـراء أن يسـتمتعوا بـه متـى قـرأوه.

٣ - العراق

في السـنة ٨٠٣ للهجـرة (١٤٠٠ للميـلاد) غـزا تيمورلنـك سـوريا واحتـل شـمالها ودمـر مدنـه ونهـب سـكانه. وكانـت مملكـة تيمـور واسـعة النطـاق تشـمل العـراق وإيـران وأواسـط آسـيا (تركسـتان) فضـلا عـن بـلاد أخـرى كانـت لـه عليهـا سـلطة. وبعـد مـوت تيمـور بـدأت الدسـائس تلعـب دورا كبـيرا في الوراثـة فقتـل أحـد خلفائـه وسـجن الآخـر حتـى وصـل الـدور إلى ابنـه شـاه رخ الـذي وجـه همـه إلى الإصـلاح وتقريـر الأمـن، وعنـى برفاهيـة شـعبه في مـدة الثـماني والثلاثـين سـنة التـي حكـم فيهـا. وعـادت بعـده الفـوضى وأخـذت الدولـة في الضعـف حتـى تغلـب عليهـا الصفويـون في السـنة ٩٠٥ (١٤٩٩).

والصـورة التـي يرسـمها القلقشـندي للعـراق ترجـع إلى القـرن الثامـن للهجـرة ذلـك أن المؤلـف لم يعـرف العـراق معرفـة شـخصية، فاضطـر إلى نقـل معلوماتـه عـن المصـادر التـي وصلـت إليـه: مثـل مسـالك الأبصـار للتاريـخ، وياقـوت وأبي الفـدا للوصـف الجغـرافي. لكنـه يـورد بـين آن وآخـر بعـض أخبـار سـمعها مـن التجـار وغيرهـم. وعندهـا تكـون أخبـاره حديثـة العهـد.

ويعتـبر الكاتـب العـراق جـزءا مـن إحـدى ممالـك بنـي جنكيـز خـان، أي مملكـة إيـران، التـي يقسـمها قسـمين الجنـوبي والشـمالي. والجنـوبي منهـا فيـه سـتة أقاليـم. الجزيـرة الفراتيـة والعـراق وخوزسـتان والأهـواز وفـارس وكرمـان وسجسـتان والرنـج. والـذي نعنـى بـه الآن الاقليـمان الأول والثـاني - أي الجزيـرة الفراتيـة والعـراق - اللـذان يكونـان العـراق كـما نفهمـه اليـوم.

يتنـاول صاحـب صبـح الأعـشى كل اقليـم فيتحـدث عـن مدنـه وقواعـده ثـم يشـير إلى الأنهـار المشـهورة ويبحـث في الطـرق الموصلـة إلى قواعـده ويذكـر بعـض المسـافات ويعنـى بالنفائـس العليـة القـدر والعجائـب الغريبـة الذكـر والمتنزهـات المرتفعـة الصيـت. ثـم يـورد أخبـار مـن ملكـه في الجاهليـة والإسـلام مشـيرا إلى العـمال. ويختـم فصولـه بالمعامـلات والأسـعار ورزق أصحـاب المناصـب والجنـد وترتيـب أمـور السـلطان وديـوان الإنشـاء.

فالجزيـرة يحيـط بهـا الفـرات مـن حـدود بـلاد الـروم، وهـو طـرف الحـد الغـربي الجنـوبي، حتـى الأنبـار ثـم يعطـف الحـد إلى تكريـت عـلى دجلـة ثـم إلى الموصـل بجزيـرة ابـن عمـر فآمـد فحـدود أرمينيـة. أمـا العـراق فيقـع جنـوبي الجزيـرة إلى بحـر فـارس ويحـدّه مـن الغـرب الباديـة ومـن

الـشرق بـلاد الجبـال الفارسـية. ووصـف المؤلـف لنهـري العـراق الكبيريـن - دجلـة والفـرات - ومـا يصـب فيهـما مـن الروافـد، هـذا الوصـف دقيـق للغايـة، يلاحـظ فيـه اتجـاه الأنهـار وانحدارهـا والاسـتفادة منهـا في الـري والمواصـلات.

والقواعـد التـي يذكرهـا القلقشـندى هـى بابـل ونينـوى الاشـورية والمدائـن الفارسـية قبـل الاسـلام والكوفـة وواسـط حتـى يصـل إلى بغـداد وسـامراء. وتنـال المـدن مـن عنايـة المؤلـف الـشيء الكثـير. فهـو بالإضافـة إلى تعيـين موقعهـا الجغـرافي يذكـر متنزهاتهـا ومـا اشـتهرت بـه. فقـد قـال عـن حصـن كيفـا مثـلا» والـذي أخـبرنى بـه بعـض قصـاد صاحبهـا فى سـنة تسـع وتسـعين وسـبع مائـة أن الملـك القائـم بهـا يومئـذ اسـمه سـليمان بـن داود... وذكـر أنـه يقـول الشـعر فنظمـت لـه أبياتـا وبعثـت بهـا إليـه صحبـة قاصـده أولهـا.

سـليمان الزمان بحصن كيفا

لـه في الملك آثار كرام

زكا أصـلا، فطاب الفرع منه

وطـاب الغصن إذ طاب الكمام

بنـو أيوب أبقوا منه ذخرا

ونعـم الذخر والقيل الهمام

وكانـت حـران مدينـة عظيمـة أمـا اليـوم فخـراب، وشمشـاط بلـدة الأشـجار، خصوصـا شـجر البنـدق. ونصيبـين « مخصوصـة بالـورد الأبيـض لا يوجـد

فيهـا وردة حمـراء وفى شـماليها جبـل عظيـم يقـال إنـه الجـودي الـذي استقرت عليـه سـفينة نـوح عليـه السـلام، منـه ينـزل نهرهـا حتـى يمـر عـلى سـورها وعليـه بسـاتينها... وبهـا عقـارب قتالـة. « وليـس بالجزيـرة نخـل إلا في سـنجار «. ويذكرنـا أن عانـة الواقعـة عـلى جزيـرة في وسـط الفـرات، مثـل الحديثـة، وإنهـا (أي عانـة) تشـتهر بالخمـر المذكـور في الأشـعار. (وسـعرت) كثـيرة الأشـجار مـن « التـين والرمـان والكـروم جميـع ذلـك عـذي لا يسـقى. ومـن المـدن الأخـرى التـي في الجزيـرة - آمـد وتكريـت البلـدة التـي ولـد فيهـا صـلاح الديـن، وبرقعيـد والعماديـة وحـاني. ويلفـت المؤلـف نظرنـا إلى أن بعـض البـلاد الواقعـة في الجزيـرة طبيعيـا هـي تابعـة لحلـب مـن الناحيـة السياسـية، أي أنهـا في ملـك المماليـك، مثـل الرهـا وقلعـة جعـبر ومـا والاهـما.

وتحتـل بغـداد مكانـا كبـيرا في نفـس الكاتـب، فيقـص تاريخهـا منـذ أن بناهـا المنصـور إلى أن دخلهـا هولاكـو، ويشـير إلى مـا أضافـه خلفـاء العباسـيين مـن القصـور أو الأسـواق أو الأسـوار والأبـواب وينقـل مـن مسـالك الأبصـار أنـه كان بـين جانبـي المدينـة. القائمـين عـلى ضفتـي دجلـة“ جـسران منصوبـان عـلى النهـر شرقـا بغـرب عـلى سـفن وزوارق أوقفـت في المـاء. ومـدت بينهـا السلاسـل الحديديـة المكعبـة بالمكعبـات الثقـال، وفوقهـا الخشـب المـدود وعليهـا الـتراب يمـر عليهـا أهـل كل جانـب إلى الآخـر بالحمـر والجـمال والحمـول وعـلى ضفتـي دجلـة قصـور الخلافـة والمـدارس والأبنيـة العليـة بالشـبابيك والطاقـات المطلـة عـلى دجلـة، وبناؤهـا بالآجـر».

« ومـن بيوتهـا مـا هـو مفـروش بالآجـر أيضـا ملصـق بالقـير وهـو الزفـت ولهـم الصنائـع العجيبـة في التزويـق بالآجـر، وبهـا وجـوه الخـير مـن الجوامع والمسـاجد والمـدارس والخوانـق والربـط والبيمارسـتان والصدقـات الجاريـة ووجـوه المعونـة، وناهيـك أنهـا كانـت دار الخلافـة ومقـر ملـوك الأرض. ومنهـا قلائـد الأعنـاق، وترابهـا لمـى القبـل وأثمـد الأحـداق «. والظاهـر مـن روايـة صاحـب المسـالك « أن أوقافهـا ظلـت جاريـة في مجاريهـا لم تعترضهـا أيـدي العـدوان في دولـة هولاكـو ولا فيـما بعدهـا بـل كل وقـف مسـتمر بيـــد متوليـه، ومـن لـه الولايـة عليـه. وانمـا نقصـت الأوقـاف مـن سـوء ولاة أمورهـا لا مـن سـواها. ويجـدر بنـا في هـذا المقـام أن نذكـر أن ابـن بطوطـة الـذي زار بغـداد بعـد هولاكـو بنحـو مائـة عـام وصـف المدرسـة المسـتنصرية مـما يـدل عـلى أنهـا سـلمت مـن أيـدي التخريـب.

وتحيـط ببغـداد «البسـاتين المونقـة والحدائـق المحدقـة وبهـا تمـر النخـل المفضلـة عـلى سـواها مـن الرطـب والثمـر وبهـا أنـواع الرياحـين والخـضراوات والغـلال». وسـعرها متوسـط في الغالـب لا يـكاد يرخـص. ولا يفـوت القلقشـندي أن يلاحـظ أن بغـداد « وان كانـت أم الممالـك ودار الخلافـة، فقـد أغفـل ملـوك التـتر الالتفـات إليهـا وصرفـوا عنايتهـم إلى تبريـز والسـلطانية وغيرهـما».

وأمـا سر مـن رأى فقـد خربـت عـن قريـب مـن عمارتهـا ولم يبـق فيهـا عامـر سـوى مقـدار يسـير كالقريـة.

ويـروى أخبـار الكوفـة والبـصرة عمـن سـبقه مـن الجغرافيـين، ويشـير إلى المربـد - مربـد البـصرة - نقـلا عـن ياقـوت. « والأبلـة، في الجنـوب، مدينـة في

فوهتها نهر طوله أربعة فراسخ (نحو عشرة كيلو مترات) شقه زياد بينها وبين البصرة، على جانبيه قصور وبساتين ومدن على خط واحد كأنها بستان واحد. وهو أحد متنزهات الدنيا الأربعة وهي نهر الأبلة وشعب بوان وصغد سمرقند وغوطة دمشق... ونهر الأبلة يتسلسل مجراه، وتتهلل بكره وعشاياه، ويظله الشجر وتغنى به زمر الطير» وفيه يقول القاضي التنوخي:

وإذا نظرت إلى الأبلة خلتها

من جنة الفردوس حين تخيل

كم منزل في نهرها إلى السرو

ر بأنه في غيرها لا ينزل

وكأنَّما تلك القصور عرائس

والرّوض حلي وهي فيه ترفل

وعبادان بلدة من العراق... وتقع على بحر فارس، وهو محيط بها لا يبقى منها في البر إلا القليل. وعندها مصب دجلة... وفي جنوبها وشرقيها علامات للمراكب بحر فارس لا تتجاوزها المراكب، وهي خشب منصوبة عند حد الجزر. « وعبادان في طريق العراق من الجنوب مثل الأبلة كما أن حلوان من الشرق وهيت والقادسية من الغرب.

واهتمام القلقشندي بالطرق والمسافات لا يقل عن اهتمامه بالمدن أما الطرق فينقلها عن ابن خرداذبه، متخذا حلب مبدأ لها. وانما اتخذ حلب لأنها آخر المملكة المضافة إلى الديار المصرية من جهة

الشرق. فالطريق من حلب إلى الموصل تمر بمنبج ورأس عين ونصيبين. وتتصل بعد الموصل بالطريق المؤدية إلى تبريز والسلطانية. ومن حلب إلى السلطانية ثلاثون يوما. ومن الموصل إلى بغداد عن طريق الحديثة وسر من رأى والقادسية وقد كانت ثمة طريق أخرى تتجه من ماردين إلى بغداد. وتستمر هذه الطريق إلى البصرة مجتازة واسط والبطائح

ويعين صاحب الصبح المسافات على أساس الفراسخ والمراحل والأيام. وقد يستعمل مرحلة خفيفة أي أقصر من المرحلة العادية، على نحو ما نعرف عن الادريسي أنه يستعمل اليوم الطويل.

ولم يذكر القلقشندي نفائس عن العراق، إلا أنه أشار إلى مغاص اللؤلؤ يبحر فارس وقال عنه أنه من أحسن المغاصات وأشرفها وأعلاها قدرا ونقل عن مسالك الأبصار أن الماردينى الأبيض من أفخر أنواع القماش.

وثمة وصف عام لما كانت عليه مملكة إيران قبيل أيام تيمور جاء فيه: «ثم هم (أي بنو جنكيز خان) في دهماء مظلمة، وعمياء مقتمة، لا يفضي ليلهم إلى صباح، ولا فرقتهم إلى اجتماع، ولا فسادهم إلى صلاح. في كل ناحية هاتف يدعى باسمه، وخائف أخذ جانبا إلى قسمه، وكل طائفة تتغلب وتقيم قائما تقول هو من أبناء القان، ثم يضمحل أمره عن قريب، ولا تلحق دعوته حتى يدعى فلا يجيب».

وأمراء مملكة إيران التي كانت العراق جزءا منها، على أربع طبقات أعلاها النوين وهو أمير عشرة آلاف، ثم أمير الألف فأمير المائة فأمير العشرة يحيط بالسلطان أربعة أمراء يعرفون بأمراء الألوس وهؤلاء لا يفصل أمر إلا بهم، ولا يمضون أمرا إلا بالوزير. أما الوزير فيمضي الأمر

دونهـم. والوزيـر هـذا هـو حقيقـة السـلطان وهـو المنفـرد بالحديـث في المـال والولايـة والعـزل حتـى في جلائـل الأمـور. فمتحصـلات البـلاد ودخلهـا وخرجهـا إلى الوزيـر، وإليـه يرجـع أمـر كل ذي قلـم، ومنصـب شرعـي، ولـه العطـاء والمنـع. ولا يشـاور السـلطان إلا فيـما جـل مـن المهـمات، وقـل مـن الأمـور. أمـا السـيف فيقطـع فيهـا كبـير أمـراء الألـوس. وقـد كان الجيـش الاحتياطـي لمملكـة إيـران مائتـي ألـف جنـدي، لكنهـم كانـوا يسـتطيعون تجنيـد عـدد أكـبر مـن هـذا بكثـير.

أمـا القضـاة في هـذه المملكـة فيعينهـم قـاضي قضـاء المالـك الـذي يكـون في صحبـة السـلطان. أمـا بغـداد فقـد كان لهـا قـاضي قضـاء مسـتقل بهـا يـولى فيهـا وفى بلادهـا، مـن جميـع عـراق العـرب

ومـن هـذه الملاحظـات ومـن غيرهـا نسـتنتج أمريـن رئيسـيين عـن إدارة المملكـة. الأول أن إدارتهـا كانـت مـن النـوع اللامركـزي، أي أننـا نجـد في أنحـاء مختلفـة عـدة ملـوك يحكمـون بالنيابـة عـن القـان الأكـبر، وهـم لـه كالعبيـد منقـادون إليـه وداخلـون تحـت طاعتـه. والثـاني أن إدارة هـذه المملكـة كانـت إدارة عسـكرية فيهـا شيء مـن النظـام الإقطاعـي. ومـن ثمـة نلاحـظ أن العـراق قلـت غلاتـه، رغـم اتسـاع سـواده، تحـت إدارة لم تعـن بغـير الجيـش والضريـة.

ويؤكـد لنـا صحـة هـذا الاسـتنتاج المرتبـات الكبـيرة التـي كانـت تـصرف لقـواد الجيـش فلـكل نويـن أي أمـير العـشرة الآلاف، سـتون ألـف درهـم وقـد يصـل ثلاثـة ملايـين درهـم. والجنـدي الواحـد كان لـه سـتمائة درهـم. وأضـف إلى ذلـك «أنـه كان لـكل طائفـة أرض لنزولهـم توارثهـا الخلـف عـن

السلف منذ ملك هولاكو البلاد، فيها منازلهم ولهم بها مزدرع لأقواتهم لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع ويقول في مكان آخر «والذي للأمراء والعسكرية لا يكتب به مرسوم لأن كل طائفة ورثت مالها من ذلك عن آبائها على الجهات وهم التي قررها لهم هولاكو لم تتغير بزيادة ولا نقص. وفي هذه المملكة ما لا يحصى من الإدرارات والرسومات... وهذه تبقى لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف شاء من بيع وهبة ووقف لمن أراد.

وقد تناول صاحب الصبح المغول كشعب فذكر ما كانت عليه شرائعهم، وما اتصفوا به من تسامح وعاداتهم في المؤاكلة وطاعتهم لملكهم. «فهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لا لمال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم، حتى إنه إذا كان أمير في غاية من القوة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب من أذنب ذنبا يوجب عقوبة، وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ألقى نفسه بين يدي الرسول ليأخذه بموجب ذنبه، ولو كان فيه القتل...... ورعاياهم قائمون بما يلزمون به من جهة السلطان طيبة به نفوسهم. وإن غاب أحد من الرجال قام النساء بما عليهم».

نرى من هذه الصورة أن العراق الذي كان قلب العالم العربي الخفاق قرونا طويلة، قد أخذته في هذه الفترة سنة من الكرى. فقد أصبح تابعا لدولة غريبة عنه، غريبة الوجه واليد واللسان، على نحو ما قال المتنبي في شعب بوان. لكن الذي بقي في العراق على حاله ولم تتغير هو عروبة الأدب وعروبة اللغة وعروبة الشعور. وهذا لن يتغير أبدا.

٤ - الجزيرة العربية

يحد جزيرة العرب من جهة الغرب بحر القلزم «البحر الأحمر» ومن جهة الجنوب بحر الهند ومن جهة الشرق بحر فارس ومن جهة الشمال الفرات. فهي تحتوي الحجاز ونجدا وتهامة واليمن واليمامة والبحرين وقطعة من بادية الشام وقطعة من بادية العراق. هذه الجزيرة العربية على ما حدّدها القلقشندي وقسمها.

وقد نال الحجاز الحظ الأوفى من عناية المؤلف وذلك لسببين: أما الأول فوجود مكة المكرمة والمدينة المنورة فيه، وأما الثاني فان الحجاز كان عندها من مضافات المملكة المصرية، ويلي الجاز اليمن. أما ما تبقى من أجزاء الجزيرة فيعرض له عرضا بسيطا مقتضيا. يلاحظ الكاتب أن جميع أرض الحجاز جبال وأودية ليس فيها بسيط من الأرض، وجباله أكثر من أن تدخل تحت العد ويأخذها الحصر، وأشهرها جبال مكة والمدينة والينبع. وليس بالحجاز، بل بجزيرة العرب جملة، نهر يجرى فيه مركب. وإنما فيه العيون الكثيرة المتفجرة من الجبال المعتضدة بالسيول والأمطار، الممتدة من واد إلى واد، وعليها قراهم وحدائقهم وبساتينهم مما لا يحصى. واليمن كثير الأمطار وأكثر مطره في أخريات الربيع إلى وسط الصيف. وهو إلى الحرّ أميل وبه الأنهار الجارية والمروج الفيح والأشجار المتكاثفة في بعض الأمكنة أما الأجزاء الباقية من جزيرة العرب فلا يعطينا القلقشندي وصفا عاما لها، لكنه إذ يعرض لمدينة خاصة أو منطقة معينة يذكر شيئا عن جوها. فعمان شديدة الحرارة واليمامة نجاد من الرمال والاحساء جمع حسي وهو

الرمل الذي يغوص فيه الماء «حتى إذا صار إلى صلابة الأرض أمسكته فتحفر عنه العرب وتستخرجه».

والحجاز له فضله وخواصه وعجائبه. يروى القلقشندي عنه حديثا نقله عن مسلم هو «غلظ القلوب والجفاء في المشرق والإيمان في أهل الحجاز» ثم يضيف قوله: وفى ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه، وذلك أن هواء كل بلد يؤثر في أهله بحسب ما يقتضيه الهواء... وناهيك بفضل الحجاز وشرفه أن به مهبط الوحي ومنبع الرسالة...» وبعد تعديد عجائبه يتناول زرعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه. فالبر والشعير والذرة والبطيخ والرطب هي بعض غلاته الزراعية، وخيله يفوق الوصف حسنها ويعجز البرق إدراكها. واليمن ينتج مثل الحجاز أو يزيد. وعمان كثيرة النخل والفواكه. واليمامة كثيرة الحنطة والشعير.

ويحدثنا المؤلف عن الوضع السياسي في جزيرة العرب. فالحجاز من مضاقات المملكة المصرية، ولمكة أمراء علويون وصاحب الأمر منهم عندئذ حسن بن أحمد، والمدينة مثلهم وأمرتها متداولة بين بني عطية وبنى جماز. وإمرة مكة إمرة إعرابية يمشى أميرها فيها على قاعدة أمراء العرب دون عادة الملوك في المواكب وغيرها. وأتباعه عرب، وأكثرهم من بنى الحسن أشراف مكة، وربما استخدم المماليك الترك.

أما اليمن فمقسوم بين بني رسول حكام التهائم وبين أئمة الزيدية حكام النجود، وإمارة الزيدية أعرابية وأئمتهم على مسكة من التقوى وترد بشعار الزهد يجلس أحدهم في ندى قومه كواحد منهم. وهو

(أي الإمـام) يعتقـد في نفسـه ويعتقـد أشـياعه فيـه أنـه إمـام معصـوم، مفـترض الطاعـة تنعقـد بـه عندهـم الجمعـة والجماعـة.

وأمـا اليمامـة فقـد غلـب عليهـا قيـس عيـلان كـما غلـب بعـرب بـن قحطـان عـلى البحريـن.

تغلـب عـلى المؤلـف كـما أشرنـا قبـلا، العنايـة بالمـدن وأرباضهـا. وذلـك لأن الحيـاة في جزيـرة العـرب تتركـز في هـذه الواحـات التـي تنشـأ حولهـا المـدن والقـرى، فـاذا أردنـا أن نرسـم لأنفسـنا صـورة واضحـة لجغرافيـة بـلاد العـرب في أي وقـت كان يتحتـم علينـا أن نعـرف مواقـع مدنهـا معرفـة دقيقـة عـلى أنـا لا نسـتطيع أن نفعـل ذلـك السـاعة، فنكتفـى ببعـض المـدن التـي عـرض لهـا لعلنـا نظفـر ببعـض الـذي نريـد

وليـس الغريـب أن تشـغل مكـة والمدينـة جـزءا كبـيرا مـن الفصـول الخاصـة بجزيـرة العـرب. فالمؤلـف يصـف البيـت الحـرام ومشـاعر الحـج والمسـجد النبـوي وصفـا دقيقـا يعتمـد عـلى أصـح المصـادر وأوثـق الـرواة. فمعامـلات مكـة تقـوم عـلى أسـاس الدنانـير والدراهـم النقـرة، ونـوع آخـر مـن الدراهـم المربعـة الشـكل. وأسـعارها في الغالـب مرتفعـة عـن أسـعار الشـام. وأكـثر متحصـل أموالهـا مـما يؤخـذ مـن التجـار الوارديـن مـن الهنـد واليمـن وغيرهـما. « وأمـا تجهيـز ركـب الحجيـج إليهـا ففـي كل سـنة يجهـز إليهـا المحمـل مـن الديـار المصريـة بكسـوة البيـت مـع أمـير الركـب، ويكـسى البيـت بالكسـوة الجديـدة (المجهـزة مـع المحمـل) ويأخـذ سـدنة البيـت الكسـوة القديمـة (التـي كانـت عـلى البيـت) فيهـا دون الملـوك وأشراف

الناس... ومن عادة أمير مكة أنه إذا وصل المحمل إلى ظاهر مكة خرج لملاقاته، فاذا وافاه ترجل عن فرسه... خدمة لصاحب مصر..

أما المدينة فتقع في مستو من الأرض والغالب على أرضها السباخ. وفى شماليها جبل أحد وفى جنو بها جبل عير. ونقودها مثل نقود مكة، لكن مقاييسها الذراع الشامي. أما أسعارها فنحو أسعار مكة، بل ربما كانت مكة أرخى سعرا منها لقربها من ساحل البحر بجدة.

جدة فرضة مكة على ساحل بحر القلزم. وهي ميناء عظيمة، محل حط وإقلاع، إليها تنتهي المراكب. ونخل هي قرى مجتمعة ذات عيون وحدائق ومز درع، وغالب فواكه مكة وقطانيها وبقولها منها. والطائف بلد خصيب كثير الفواكه المختلفة مما يشابه فواكه الشام وغيرها، وهي طيبة الهواء إلا أنها شديدة البرد حتى أنه ربما جمد بها الماء لشدة بردها.

ومدن اليمن التي يتحدّث عنها كثيرة، فتعز حصن في الجبال مطل على التهائم، أي المنخفض من بلاد اليمن، وفوقها متنزه يقال له مهلة قد ساق له صاحب اليمن المياه من الجبال التي فوقها، وبنى فيها أبنية عظيمة في غاية الحسن في وسط بستان هناك. منها قبة ملوكية ومقعد سلطاني فرشهما وأزرهما من الرخام الملون... أما البستان ففيه أشجار نقلت اليه من كل مكان تجمع بين فواكه الشام والهند... «لا يقف ناظر على بستان أحسن منه جمعا، ولا أجمع. منه حسنا، ولا أتم صورة ولا معنى. وعدن على ساحل البحر ذات حط وإقلاع وهي أعظم المراسي باليمن... وبها قلعة حصينة، وهي خزانة مال ملوك

اليمـن إلا أنـه ليـس بهـا زرع ولا ضرع، وهـي فرضـة اليمـن ومحـط رحـال التجـار، ولم تـزل بلـد تجـارة مـن زمـن التبابعـة وإلى زماننـا. عليهـا تـرد المراكـب مـن الحجـاز والسـند والهنـد والصـين والحبشـة. ويمتـار أهـل كل إقليـم منهـا مـا يحتاجـون إليـه مـن البضائـع... ولا يخلـو أسـبوع مـن عـدة سـفن وتجـار واردين عليهـا وبضائـع شـتى ومتاجـر متنوعـة. والمقيـم بهـا في مكاسـب وافـرة وتجـائر مريحـة. ولحـط المراكـب عليهـا وإقلاعهـا مواسـم مشـهورة. فـاذا أراد ناخـوذة أي (وكيـل السـفينة) السـفر بمركـب إلى جهـة مـن الجهـات، أقـام فيهـا علـما برنـك خـاص بـه، فيعلـم التجـار بسـفره، ويتسـامع النـاس. فيبقـى كذلـك أيامـا، ويقـع الاهتـمام بالرحيـل وتسـارع التجـار في نقـل أمتعتهـم، وحولهـم العبيـد بالقـماش السـري والأسـلحة النافعـة، وتنصـب عـلى شـاطئ البحـر الأسـواق ويخـرج أهـل عـدن للتفـرج هنـاك... والمقيـم في عـدن يحتـاج إلى كلفـة في النفقـات لارتفـاع الأسـعار بهـا في المآكل والمشـارب ويحتـاج المقيـم بهـا إلى مـا يتـبرد بـه في اليـوم مـرات في زمـن قـوة الحـر... لكـن أهلهـا لا يبالـون بكـثرة الكلـف، ولا بسـوء المقـام، لكـثرة الأمـوال الناميـة

وتشـبه صنعـاء دمشـق بكـثرة مياههـا وأشـجارها، واعتـدال هوائهـا، تتقـارب فيهـا سـاعات الشـتاء والصيـف ويقـع بهـا الأمطـار والـبرد... وعمارتهـا متصلـة، وليـس في بـلاد اليمـن أقـدم منهـا عـمارة ولا أوسـع منهـا قطـرا.

والمـدن في بقيـة أنحـاء بـلاد العـرب لا يعنـى بهـا المؤلـف عنايـة خاصـة، فـلا نحصـل منـه عـلى معلومـات مثـل التـي نقلناهـا عـن عـدن. فعـمان «كثـيرة النخيـل والفواكـه ولكنهـا حـارة جـدا، والقطيـف عـلى شـط بحـر فـارس

وبها مغاص لؤلؤ وبها نخيل الاحساء... ولها خور في البحر تدخل فيه المراكب الكبار الموسقة في حالة المد والجزر، وبينها وبين البصرة ستة أيام، وبينها وبين عمان مسيرة شهر.

وفى صبح الأعشى فصول متفرقة عن الطرق الموصلة بين أجزاء بلاد العرب ينقلها عن ابن خرداذبة ومسالك الأبصار، لكننا لا ننوي التعرض لها الآن.

وفى بعض ما رواه القلقشندي عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية في اليمن، يجد فيه القارئ متعة ولذة وفائدة. فقد عرض لواردات الدولة ونظام المجتمع فأعطانا صورا حرية بالنقل فهو يقول: « لليمن ارتفاع صالح من الأموال غالبه من موجبات التجار الواصلين الهند ومصر والحبشة وتجتمع لهم الأموال لقلة الكلف على الدولة فيبنون بذلك القصور المتعدّدة حتى أن صاحب اليمن لا ينزل في أسفاره إلا في قصور مبنية له في منازل معروفة في بلاده على أنه ليس باليمن أسواق مرضية دائمة. وإنما يقام لها سوق يوم الجمعة. تجلب فيه الأجلاب ويخرج فيه أرباب الصنائع والبضائع بضائعهم وصنائعهم، فيبيع من يبيع ويشترى من يشترى. ومن أعوزه شيء في وسط الجمعة يكاد لا يجده إلا المأكل.

على أن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة، وسعادات عندهم ملحوظة. ولأكابرها حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفنن في المأكل.

.يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان، ويعمل فيها السكر والقلوب، وتطيب أوانيها بالعصر والبخور. ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية وفى

بيتـه العـدد الصالـح مـن الأمـاء، وعـلى بابـه جملـة مـن الخـدم والعبيـد. ولهـم الديـارات الجليلـة والمبـاني الأنيقـة، إلا الرخـام ودهـان الذهـب والـلازورد فانـه مـن خـواص السـلطان لا يشـاركه فيـه أحـد»

وصاحـب التهائـم مـن اليمـن أي سـلطان بنـى رسـول قليـل التصـدي لإقامـة أحـد رسـوم المواكـب والخدمـة، والاجتـماع بـولاة الأمـور ببابـه. فـاذا احتـاج مـن أمرائـه أو جنـده إلى مراجعتـه في أمـر، كتـب اليـه قصـة يسـتأمره فيهـا فيكتـب عليهـا بخطـه مـا يـراه. وكذلـك إذا رفعـت اليـه قصـص المظـالم فهـو الـذي يكتـب عليهـا بخطـه بمـا فيـه إنصـاف المظلـوم. وأربـاب الوظائـف القائمـون عـلى خدمتـه منهـم النائـب والوزيـر والحاجـب وكاتـب الجيـش وديـوان المـال وكتـاب الانشـاء. وصاحـب اليمـن هـذا لا عـدوّ لـه لأنـه محجـوب ببحـر زاخـر، وبـر منقطـع مـن كل جهـة وللمسـالمة بينـه وبينهـم، فهـو لهـذا قريـر العـين خـالي البـأس.

ولبـاس السـلطان وعامـة الجنـد باليمـن، أقبيـة إسـلامية، ضيقـة الأكـمام مزنـدة عـلى الأيـدي، وفى أوسـاطهم مناطـق مشـدودة، وعـلى رؤوسـهم تخافيـف قلانـس وفى أرجلهـم الدلاكسـات وهـي أخفـاف مـن القـماش الحريـر الأطلـس والعتـابي.... وشـعار السـلطان وردة حمـراء في أرض بيضـاء... والسـنجق اليمنـى الـذي رفـع في عرفـات سـنة ثمـان وثلاثـين وسـبعمائة كان أبيـض فيـه وردات حمـر كثـيرة.

وملـوك اليمـن مقصـودون مـن آفـاق الأرض، فـكل مجيـد في صنعـة مـن الصنائـع يصنـع للملـك شـيئا ثـم يجهـزه اليـه، فيقبلـه منـه ويحسـن نزلـه ويسـنى جائزتـه. فـان أقـام ببابـه أقـام مكرمـا محترمـا أو عـاد محبـورا

محبورا. ولا يسمحون لغريب بالعودة مع أمواله إلا إذا قدّم القول بأنه أتاهم راحلا لا مقيما. وإلا جردوه مما استفاد عندهم، وخرج عنهم على أسوأ حال. ولكثرة من يقصدهم من مهرة الصناع اشتهرت اليمن بجودة الصناعة.

أما النجود من اليمن، وهي بلاد أئمة الزبدية الشرفاء فهي جبال شامخة ذات عيون دافقة، ومياه جارية، على قرى متصلة الواحدة إلى جانب الأخرى. وليس لواحدة تعلق بالأخرى، بل لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم ولا يضمهم ملك ملك ولا يجمعهم حكم سلطان. وإمامها يجلس في ندى قومه كواحد منهم، ويتحدّث فيهم ويحكم بينهم، سواء عنده الشريف والمشروف والقوى والضعيف. وربما اشترى سلعته بيده ومشى بها في أسواق بلده، لا يغلظ الحجاب ولا يكل الأمور إلى الوزراء والحجاب، يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسع ولا تكثر. هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدل شامل وفضل كامل. والأئمة في هذا البيت أهل علم يتوارثونه، إمام عن إمام، وقائم عن قائم وأهل النجود أهل سلامة وخير وتمسك بالشريعة ووقوف معها ويعضون على الدين بالنواجد، ويقرون كل من يمر بهم ويضيفونه مدة مقامه حتى يفارقهم. وإذا ذبحوا لضيفهم شاة قدموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكبدها وقلبها وكرشها فيأكل ويحمل معه ما يحمل. ولا يسافر أحد منهم من قرية إلى أخرى إلا برفيق يسترفقه منها فيخفره.

وإن كنا نأسف فلأن صاحب الصبح لم يحدثنا عن المجتمع العربي في

نجـد وغيرهـا مـن بـلاد الجزيـرة. وكـم كان بودنـا لـو أنـه فعـل

٥ - سورية

يتحـدث القلقشـندي عـن سـورية باعتبارهـا المملكـة الشـامية ومضافاتهـا من بـلاد الأرمـن والـروم وبـلاد الجزيـرة بـين الفـرات ودجلـة. وهـذه المصافـات، إلا الأخـيرة منهـا، قليلـة. لذلـك فالمملكـة الشـامية، عـلى مـا يحددهـا صاحب الصبـح، تتفـق مـع مـا قبلـه جغرافيـو العـرب عامـة مـن أن الشـام يمتـد مـن الفـرات شرقـا إلى بحـر الـروم غربـا ومـن جبـال طـوروس شـمالا إلى صحـراء سـيناء جنوبـا، وحـدوده السياسـية هنـا عمـل العريـش.

يبـدأ القلقشـندي حديثـه بذكـر فضـل الشـام. فـيروى حديثـا خلاصتـه أنـه «طـوبى لأهـل الشـام... لأن الملائكـة باسـطة أجنحتهـا عليـه ". ثـم يضيـف « هـذا وقـد بعـث بـه الكثـير مـن الأنبيـاء، وفيـه ضرائحهـم، وفيـه المسـجد الأقـصى الـذي هـو أحـد المسـاجد الثلاثـة التـي تشـد إليهـا الرحـال «ثـم يعـود فينقـل حديثـا آخـر هـو « إن اللـه بـارك فيهـا بـين العريـش إلى الفـرات وخـص فلسـطين بالتقديـس وينتقـل المؤلـف بعـد ذلـك إلى ذكـر خـواص الشـام وعجائبـه. فأمـا خواصـه فـان بـه الأماكـن التـي تعظمهـا الأمـم عـلى اختـلاف عقائدهـم كالأقـصى والصخـرة وكنيسـة القيامـة وطـور نابلـس وكنيسـة صـور. وأمـا عجائبـه فكثـيرة يذكـر منهـا الكاتـب حمـة طبريـة، ووادي الفـرات قـرب حصـن الأكـراد، وقبـة العقـارب في حمـص» وهـي قبـة بالقـرب مـن مسـجدها الجامـع، إذا أخـذ شيء مـن تـراب حمـص وجبـل بالمـاء وألصـق بداخـل القبـة وتـرك حتـى يجـف ويسـقط بنفسـه، مـن غـير أن يلقيـه أحـد، ثـم أخـذ ووضـع شيء منـه في بيـت، لم يدخلـه

عقـرب، أو في قـماش لم يقربـه. « ومـن عجائـب الشـام حـمام القدمـوس، وهـي قلعـة مـن عمـل طرابلـس، يخـرج منهـا أنـواع كثـيرة مـن الحيـات تظهـر مـن أنابيـب مائهـا وتدخـل في ثيـاب داخلهـا، ولم يشـتهر أنهـا أضرت أحـدا قـط عـلى ممـر الدهـور وتطـاول الأزمنـة. وفى سـور قلعـة الخوابـئ» صـدع إذا لـدغ أحـد بحيـة فـأتى إلى ذلـك الموضـع فشـاهده بعينـه، أو أرسـل رسـوله فشـاهده، سـلم مـن تلـك اللدغـة، ولم يـضره السـم. وينقـل صاحـب الصبـح عـن ابـن الأثـير أن بقـرى حلـب قريـة تسـمى بـراق يقـال إن بهـا معبـدا يقصـده أصحـاب الأمـراض ويبيتـون بـه. فأمـا أن يـرى المريـض في منامـه مـن يقـول لـه استعمل كـذا وكـذا فيـبرأ، أو يمسح عليـه بيـده فيـبرأ.

ويعـرض المؤلـف لمـا بـين الكتـاب مـن خلـف حـول حـدود الشـام وتسـميته وبـدء عمارتـه. ولكـن القلقشـندي كاتـب في ديـوان الإنشـاء فهـو يعنـى بالوضـع الـذي كان في عـصره أكـثر مـما يعنـى بالتاريـخ، وتهمـه الأحـوال السياسـية الإداريـة أكـثر مـما تهمـه خلافـات المؤرّخـين. فيـترك ذلـك عاجـلا وينتقـل إلى أنهـار الشـام العظيمـة وبحيراتـه وجبالـه المشـهورة وزروعـه وفواكهـه ورياحينـه ومواشـيه ووحوشـه وطيـوره فيشـير إليهـا إشـارة مختـصرة لكنهـا دقيقـة، والمؤلـف حريـص عـلى أن يقابـل زروع الشـام بمثلهـا في مـصر. فالشـام تنبـت فيـه حبـوب مـصر كلهـا ولكـن لا يوجـد فيـه الكتـان ولا البرسـيم. ويـزرع قصـب السـكر في أغـواره، إلا أنـه لا يبلـغ في الكـثرة حـدّ مـصر. وفواكـه الشـام أكـثر أنواعـا وأبهـج منظـرا مـن فواكـه مـصر، وتزيـد عليهـا في الجـوز والبنـدق والأجـاص والعنـاب والزعـرور. والزيتـون في الشـام في غابـات كثـيرة، ومنـه يعتـصر الزيـت وينقـل إلى أكـثر البلـدان. أمـا البلـح

والرطـب فمعدمـان في الشـام أصـلا ورياحينـه تزيـد عـن رياحـين مـصر، خصوصا في الـورد، حتـى إنـه يسـتقطر منـه مـاء الـورد وينقـل منـه إلى سـائر البلـدان. وأمـا مـن المـواشي فالشـام فيـه جميـع مـواشي مـصر مـن الإبـل والبقـر والغنـم والخيـل والبغـال والحمـير. إلا أن أبقـاره لا تبلـغ في العظـم مبلـغ أبقـار مـصر، وأغنامـه لا تبلـغ في اللحـم مبلـغ أغنامهـا، وحمـيره لم تبلـغ في الفراهـة مبلـغ حميرهـا. وبعـد أن عـدد طيـوره نقـل عـن مسـالك الأبصـار أن الفراريـج لا تكـون في الشـام إلا بحضانـة، ولا تنجـح فيهـا المعامـل التـي تعمـل لإخـراج الفراريـج في مـصر. ويذكـر أن رجـلا مـن أهـل مـصر عمـل في الشـام معمـلا فصعـد لـه العمـل في الصيـف دون الخريـف.

وإذ يتنـاول القلقشـندي تقسـيم الشـام السـياسي يعـرض للتقسـيم القديـم الـذي كانـت عليـه البـلاد بعيـد الفتـح الإسـلامي، أيـام كانـت خمسـة أجنـاد هـي مـن الجنـوب إلى الشـمال فلسـطين والأردن ودمشـق وحمـص وقنسريـن، ثـم ينتقـل إلى تقسـيم سـوريا في عهـده أي في زمـن المماليـك. وقـد كانـت البـلاد عندهـا سـت قواعـد، كـما يسـميها، هـي: دمشـق، وحلـب وحـماه وطرابلـس وصفـد والكـرك. وكانـت قاعـدة حلـب تشـمل أقـصى شـمال سـوريا فتدخـل فيهـا أنطاكيـة غربـا، والثغـور والعواصـم شـمالا، ومـا كان المماليـك قـد احتلـوه مـن أرمينيـا، وبعـض أجـزاء الجزيـرة الفراتيـة مـما كان تحـت سـلطانهم. وقاعـدة حـماة تقتـصر عـلى المدينـة نفسـها والمعـرة والقـرى التابعـة للمدينتـين بـين الباديـة السـورية وجبـال النصيريـة. وكانـت قاعـدة طرابلـس تمتـد مـن جهـات أنطاكيـة شـمالا إلى شـمال بـيروت جنوبـا وتشـمل سـفوح لبنـان الغربيـة والقـلاع الرئيسـية في لبنـان وجبـال

النصيرية، فتتبعها اللاذقية وجبلة والمرقب وحصن الأكراد والقدموس. أما قاعدة صفد فكان يدخل فيها صور والشقيف وطبريا والناصرة وجنين وعكاء، فهي تشمل شمال فلسطين وجنوب لبنان الحاليين. والكرك كانت تتبعها الشوبك ومعان وزغر. وما تبقى من سوريا كان يدخل في قاعدة دمشق فكانت حمص وبيروت وصيدا والقدس والغور وما تبقى من فلسطين تابعة لدمشق رأسا.

ويحدثنا المؤلف عن الأعمال التابعة لكل من هذه القواعد، وعندها يعرض للمدن بوصف مجمل. فدمشق « مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية... وغوطتها أحد مستنزهات الدنيا العجيبة... وبها الجوامع والمدارس والخوانق والربط والزوايا، والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوع، ذات الماء الجاري. وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها... وغالب بنائها بالحجر، ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها... ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلا من خشب النخل... وجانب المدينة الشمالي يسمى العقيبة وهو مدينة مستقلة بذاتها... يسكنها كثير من الأمراء والجند. وبإزاء المدينة في سفح جبل قاسيون مدينة الصالحية. وهي مدينة ممتدة في سفح الجبل بإزاء المدينة في طول مدى يشرف على دمشق وغواطتها. ذات مساجد ومدارس وربط وأسواق وبيوت جليلة... « وغزة على طرف الرمل بين مصر والشام، آخذة بين البر والبحر بجانبيها، مبنية على نشر عال على نحو ميل من البحر، متوسطة في العظم، ذات جوامع ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق.

والرملـة قصبـة فلسـطين وميناهـا مدينـة يافـا، وهـي مدينـة صغـيرة بالسـاحل. وقـد كانـت اللـد قصبـة فلسـطين في الزمـن الأوّل حتـى بنـى سـليمان بـن عبـد الملـك الرملـة فتحـوّل النـاس إليهـا وتركـوا اللـد. وفاقـون هـي مدينـة غـير مسـتورة، بهـا جامـع وحـمام وقلعـة لطيفـة، أمـا في زمننـا هـذا ففاقـون قريـة صغـيرة.

والقـدس مبنيـة عـلى جبـل مسـتدير، وعـرة المسـالك، بناؤهـا بالحجـر والكلـس، وشرب أهلهـا مـن مـاء المطـر المجتمـع بصهاريـج المسـجد الأقـصى وعـين تجـرى إليهـا عـن بعـد وكذلـك عـين سـلوان... وكانـت المدينـة كلهـا قـد غلـب عليهـا الخـراب ثـم تراجـع أمرهـا للعـمارة، وصـارت في نهايـة الحسـن، بهـا المـدارس والربـط والحمامـات والأسـواق وغيرهـا. ونابلـس مدينـة يحتـاج إليهـا ولا تحتـاج إلى غيرهـا. وليـس بفلسـطين بلـدة فيهـا مـاء جـار سـواها وبيسـان مدينـة صغـيرة بـلا سـور ذات بسـاتين وأشـجار وأنهـار وأعـين، كثـيرة الخصـب واسـعة الـرزق ولهـا عـين تشـق المدينـة. وصرخـد بلـدة صغـيرة ذات بسـاتين وكـروم وليـس بهـا مـاء سـوى مـا يجتمـع مـن مـاء المطـر في الصهاريـج والـبرك، وليـس وراء عملهـا مـن جهـة الجنـوب وإلى الـشرق إلا البريـة. ومنهـا تسـلك طريـق تعـرف بالرصيـف إلى العـراق يصـل المسـافرون منهـا إلى بغـداد في عـشرة أيـام... وبهـا قلعـة محدثـة البنـاء بدئـت قبـل نـور الديـن الشـهيد بقليـل، ولمـا وصلـت عسـاكر هولاكـو ملـك التتـار إلى الشـام هدمـوا شرفاتهـا وبعـض جدرانهـا فحددهـا الظاهـر بيـبرس وهـي عـلى ذلـك إلى الآن. وبعلبـك مختـصرة مـن دمشـق في كـمال محاسـنها وحسـن بنائهـا وترتيبهـا... وفيهـا يعمـل الدهـان الفائـق (مـن الماعـون

وغيره)، ويحمل منها إلى غالب البلدان مع كونها واسعة الرزق رخيصة السعر. وكانت دار ملك قديم، وحمص من أصح بلاد الشام هواء، وبوسطها بحيرة صافية الماء ينقل السمك إليها من الفرات حتى يتولد فيها والطير مبثوث في نواحيها... وقماشها يقارب قماش الاسكندرية في الجودة والحسن وإن لم يبلغ شأوه في ذلك. وبيروت مدينة جليلة على شاطئ البحر الرومي... وبها جبل فيه معدن حديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر سعتها اثنا عشر ميلا تتصل إلى تحت لبنان... وهي فرضة دمشق، ولها ميناء جليلة. وحماة على ضفة العاصي مكينة البناء... بها القصور الملوكية والدور الأنيقة والجوامع والمساجد والمدارس والربط والزوايا والأسواق التي لا تعدم نوعا من الأنواع... وكان الصيت لحمص دونها، فلما آلت إلى بنى أيوب مصروها بالأبنية العظيمة... وعظموا أسواقها وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق في فنه إلى أن كملت محاسنها... وهي في غاية من رفاهة العيش... وحولها مروج فيح ممتدة، يكثر فيها مصايد الطير والوحش. وطرابلس، أو أطرابلس كما يسميها القلقشندي، مدينة متمدنة كثيرة الزحام وبها مساجد ومدارس وزوايا وبيمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان، وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضا ظاهرا وباطنا وغوطتها محيطة بها وتحيط بغوطتها مزدرعاتها... ومیناها جليلة تهوى إليها وفود البحر الرومي وترسو بها مراكبهم وتباع بها بضائعهم، وهي بلدة متجر ومزرع.

وحلب مدينة عظيمة من قواعد الشام القديمة وهي في وطاءة حمراء ممتدة، مبنية بالحجر الأصفر أنيقة المنازل، واسعة الأسواق، حسنة

القياسر بهجة الحمامات، كثيرة الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق والزوايا وغير ذلك من سائر وجوه البر وبها بيمارستان حسن لعلاج المرضى وبها عسكر كثيف وأمم من طوائف العرب والأكراد والتركمان. وعينتاب مدينة حسنة واسعة الأرجاء، كثيرة المياه والبساتين ذات أسواق جليلة مقصورة للتجار والمسافرين. وأنطاكية قاعدة بلاد العواصم، وميناؤها السويدية.

وإذا نحن عدنا إلى الأجزاء الجنوبية من الشام وجدنا القلقشندي يحدثنا عن صفد بقوله هي بلدة متوسطة بين الكبر والصغر وربضها منتشر العمارة على ثلاثة أجبل، وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادي لقلة الماء بها وسوء بناء حماماتها... وكل ما يوجد في دمشق يوجد فيها: إما من بلادها، وإما مجلوب إليها من دمشق. ونيابتها نيابة جليلة ونائبها من أكبر المقدمين. أما عكاء فهي خراب الآن، لأن المماليك خربوها لما فتحوها سنة ٦٩٠ خوفا أن يتحصن بها العدو.

والكرك ذات قلعة حصينة وأسواق عابرة وبساتين كثيرة وفواكه وبواديها حمام. والشوبك قطعها المعظم عيسى فاعتنى بأمرها وجلب إليها غرائب الأشجار حتى تركها تضاهي دمشق في بساتينها وتدفق أنهارها وتزيد عنها بطيب مائها. ومعان كانت مدينة صغيرة وكان يسكنها بنو أمية ومواليهم لكنها خربت هي وعملها ولم يبق بها أحد.

ويظهر من كلام صاحب الصبح أن النقود كانت موحدة الأساس (إلى درجة كبيرة) بين سوريا ومصر، فالدنانير والدراهم النقرة كانت شائعة في عواصم القواعد الست. أما الوزن والكيل فكانا مختلفين، فدمشق

وطرابلس كانتا تستعملان رطلا وزنه ستمائة درهم، بينما كان الرطل الحلبي يزن سبعمائة وعشرين من الدراهم. وبينما كان كيل دمشق الغرارة كانت حلب وطرابلس تستعملان المكوك للكيل. والغرارة تساوى مكوكين ونصف المكوك.

وجيوش سوريا كانت على ما كانت عليه جيوش مصر في اجتماعها من الترك والجركس والروم والروس والتركمان، وهؤلاء كانوا يقطنون أماكن متعدّدة في شمال سوريا.

والوظائف في القواعد الشامية، مثل الوظائف السلطانية في مصر، أما وظائف أرباب السيوف أو وظائف ديوانية أو وظائف دينية. وتنتظم الأولى نهاية السلطنة في قواعد كل من الأقسام الستة، يضاف اليها نيابتان منفردتان لكل من قلعتي دمشق وحلب ويدخل فيها الجوبية ونقابة الجيش وولاية المدينة وتقدمة البريد. وتشمل الوظائف الديوانية عشر وظائف: منها الوزارة وكتابة السر ونظر الخاص والجامع الأموي والأسواق. وأما الوظائف الدينية فأهمها قضاء القضاة وإفتاء دار العدل وقضاء العسكر ونقابة الأشراف والحسبة والتداريس. على أن القلقشندي يعطينا أنواعا أخرى من الوظائف، ففي دمشق وحلب نجد رياسة الطب والكحالين والجرائحية. ويذكر وظائف زعماء أهل الذمة بدمشق مثل بطرك النصارى اليعاقبة، وبطرك الملكانية. وفى حلب يوجد بيمارستانان: أحدهما يعرف بالعتيق، والآخر بالجديد. ولكل منهما ناظر يخصه، وهذه وظيفة خاصة. كما أن طرابلس بها شاد للميناء بسبب كثرة السفن التي ترسو فيها.

ونحـن وقـد انتهينـا مـن اسـتعراضنا للصـور التـي حصلنـا عليهـا للـشرق العـربي مـن صبـح الأعـشى، نـود أن نعـود فنذكـر القـراء الكـرام بـأن القلقشـندي كتـب موسـوعته الكـبرى لمنفعـة المشـتغلين بديـوان الانشـاء، وعنـى بـالإدارة والنيابـات ومـا يترتـب عـلى معرفتهـا مـن اسـتعمال الصيـغ الصحيحـة في مخاطبـة أربابهـا. وأمـا معلوماتـه الوصفيـة فقـد أخـذ منهـا الكثـير عـن الثقـات مـن الجغرافيـين، ونقـل عـن الرحالـين، وروى عمـن اجتمـع بهـم. وكلـما بعـد القطـر عـن مـصر نقـص اهتمامـه بـه نسـبيا وفقـد سـبيل الاتصـال المبـاشر بـه أو بأهلـه وهـذا سـبب مـا نـرى مـن اقتضـاب في أنبـاء الأجـزاء النائيـة مـن العـالم العـربي. وقـد قبـل القلقشـندي كثـيرا مـن الأسـاطير في تسـمية البلـدان كالـذي نقلـه مـن أن راهبـا اسـمه عجلـون كان يقيـم في مـكان، فلـما بنيـت مدينـة هنـاك سـميت باسـمه، أو أن سـليمان بـن عبـد الملـك وفـد عـلى امـرأة أكرمـت نزلـه. ولما سـألها عـن اسـمها قالـت رملـة، فلـما بنـى مدينتـه هنـاك سـماها الرملـة باسـمها.

لكـن الـذي نأسـف لـه أكـثر مـن كل شيء هـو أن صاحـب الصبـح إذ يعـرض لمدينـة مـن المـدن يذكـر سـعتها وبيوتهـا وجوامعهـا ومدراسـها وزواياهـا في عبـارات عامـة بحيـث تتشـابه الأماكـن كلهـا، دون أن يعطينـا ولـو مـرة واحـدة، أعـدادا تبـين السـكان والمـدارس أو غيرهـا مثـلا.

عـلى أن هـذه الهفـوات أمـر يسـير بالنسـبة إلى مـا في الكتـاب مـن علـم وأدب وتاريـخ. إنـه كتـاب مـن خـير مـا تـرك لنـا السـلف الصالـح.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

